

تأليف
ليندسي موران

ترجمة
خالد الكسروي



Yousry Hassan





"ليس مجرد كتاب لطيف وأخاذ، لكنه أيضاً نهمة قطعة توجه لوكالة الاستخبارات المركزية CIA"

Milwaukee Journal Sentinel

أمين في الوصف بصورة مذهلة ... رائع ... واحد من أهم الكتب التي رسمت صورة واقعية حديثة للحياة اليومية بوكالة الاستخبارات المركزية CIA.

USA Today

"يتخوف المحافظون من بيروقراطية الحكومة، ويتخوف الليبراليون من أجهزة الاستخبارات، على الرغم من أن الاثنين اتفقا على إنجاب طفل غير شرعي هو وكالة الاستخبارات المركزية CIA. ويفوق كتاب ليندسي موران أي شخص بأكثر الطرق إمتاعاً وتشويقاً ومرحاً فهذا الكتاب أكبر من "سري للغاية" إنه حقيقة.

وليندسي ليست جاسوسة سابقة فحسب بل هي أيضاً حالمة تستخرج الرومانسية من أعماق عالم الجاسوسية وتوضح بعض القصور اللازم علاجه بوكالة الاستخبارات المركزية CIA".

P. J O Rouke

"قرأنا جميعاً من قبل عن حماقات الحروب، والآن نشكر موران على كتابها الدقيق الرائع الذي كشف لنا حماقات العالم الحقيقي للجاسوسية الأمريكية، فلم تصف ليندسي في كتابها تفجيرها هي وزملاءها القنابل والسيارات فحسب، بل فجرت الأسطورة أيضاً فلم يكن من وصفتهم في الكتاب من زملائها أشبه بجيمس بوند - كما اعتدنا أن نتخيل عالم الجاسوسية - بل كانوا حمقى، وبلهاء ومكانين وبينهم أيضاً نبلاء".

Davied Schickler

"تسقط ليندسي موران في هذا الكتاب عباءتها لتكشف لنا لأول مرة طبيعة حياة الضابط الميداني بوكالة الاستخبارات المركزية، وتلتزم بالذكاء والصراحة وعمق الرؤية أثناء سردها لتفاصيل التدريبات السرية التي تلقتها بـ "المزرعة" والمهام التي كلفت بها خارج البلاد لتبين لنا أن الحياة الحقيقية لجواسيس وكالة الاستخبارات الأمريكية أمر مختلف تماماً عن الصورة التي تعرضها أفلام هوليود".

مؤلف روايات جيمس بوند الأكثر مبيعاً

"محايد بصورة غير عادية .. ويعكس التجربة الشخصية بقوة".

جريدة الواشنطن بوست



6 أكتوبر - ميدان الحصري - ش. الشهداء
مبني رقم ٢٧ الدور الثالث شقة (٢)
جوال / ٠١٠٦٣٠٠٠٢٦ - ٠١٦٤٩٠٣١٨٣
تليفاكس /
mas10000001@yahoo.com

كشف المستور

(قصة واقعية لعميلة CIA)

الكتاب: كشف المستور

المؤلف: ليندسى موران

ترجمة : خالد سيد كسروى

الناشر : غراس

الطبعة : الأولى

غلاف عبد الرحمن مجدي

رقم الإيداع: 2008/14187

عدد الصفحات: 280



360 ش الأهرام – الهـــرم – الجيـــزة

تليفاكس: 0235830768 موبايل: 0106300026 – 0164903183

Kawy2007@yahoo&hotmail

كشف المستور

(قصة واقعية لعميلة CIA)

بقلم

ليندسى موران

ترجمة

خالد سيد كسروى

المقدمة

تتباهى الولايات المتحدة الأمريكية بذلك العملاق الذي يسمى بوكالة الاستخبارات المركزية CIA وترهب العالم بقوته وكفاءته وإمكانياته المادية والبشرية بالإضافة إلى تغلغله بكافة الدول والمؤسسات.

واستمرت تلك الأسطورة التي دعمتها هوليود بأفلامها تخدع البسطاء داخل أمريكا وخارجها حتى وقعت أحداث الحادي عشر من سبتمبر فاكتشف الجميع أن هذا العملاق هو مجرد أسطورة على حد وصف الكاتبة.وكانت ليندسي موران من بين الملايين الذين انبهروا بالصورة المبهرة التي نشرتها وسائل الإعلام للاستخبارات الأمريكية، وظلت منذ نعومة أظفارها تحلم بالالتحاق بتلك المؤسسة الجبارة.

وعندما أنهت ليندسي تعليمها الجامعي وأرسلت طلب التحاقها لوكالة الاستخبارات المركزية بدأت تتشكك منذ اللحظة الأولى لإجراء اختبارات الالتحاق في خطأ التصورات التي ترسخت في أذهاننا جميعًا عن هذه المؤسسة الاستخباراتية، وبعد أن قبل طلب التحاق الكاتبة بالمخابرات وبدأت تتلقى تدريباتها على مهارات التجسس بالمزرعة مع زملائها تحولت شكوكها إلى

يقين.وتنقل لنا الكاتبة طبيعة التدريبات التي يتلقاها الضباط الميدانيين بالإضافة إلى طبائع شخصياتهم وطريقة تفكيرهم من خلال احتكاكها بهم أثناء فترة التدريب، ثم تنتقل بنا الكاتبة إلى العالم الميداني حيث عملت كضابط ميداني بدول البلقان لتنقل لنا صورة حية عن طبيعة عمل الاستخبارات الأمريكية بهذه المنطقة في فترة الاضطرابات التي حلت بها منذ أزمة البوسنة والهرسك وحتى أزمة الألبان والمقدونيين وكيف تعاملت الحكومة الأمريكية مع هذه الأزمات وسياسة الولايات المتحدة بهذه المنطقة من العالم بالإضافة إلى طبائع شعوب منطقة البلقان.وخلال سرد الكاتبة لبعض مهامها التي كانت تقوم بها في منطقة البلقان في الفترة من أوائل 2001 إلى أواخر 2002 تذكر لنا كيف تمكن العديد من البسطاء من ابتزاز أموال الوكالة بمنتهي البساطة.وانتقلت الكاتبة لتتناول أحداث الحادي عشر من سبتمبر وكيفية تعامل الوكالة معها وكيف استثمرت الإدارة الأمريكية هذه الأحداث لتحتل دول العالم الإسلامي.

وزاد استياء الكاتبة من الوكالة بعد تكليف جورج بوش لها بتلفيق أدلة لتبرير شن الحرب على العراق.

وقررت الكاتبة في النهاية أن تترك العمل بوكالة الاستخبارات المركزية وتتفرغ للكتابة لتخرج لنا هذا الكتاب الذي يقلب الكثير

من المفاهيم ويكشف العديد من الأسرار ويوضح لنا الكثير من الحقائق التي كانت غائبة عنا.

خالد كسروي

الكاتبة في سطور :

ليندسي موران هي كاتبة تنشر مقالاتها بالعديد من الصحف مثل نيويورك تايمز والواشنطن بوست ويو إِس إيه توداي، وعملت كضابط ميداني بوكالة الاستخبارات المركزية في الفترة من 1998 إلى 2003 وتعيش حاليًا بواشنطن العاصمة.

ملاحظات هامة :

- تمت مراجعة مادة هذا الكتاب والموافقة على نشرها من قبل وكالة الاستخبارات المركزية CIA، ولا تعني هذه الموافقة تصديق الوكالة على صحة ما ورد بالكتاب من معلومات، ولا موافقتها على ما تضمنه من آراء.
- تم تغيير أسماء بعض الشخصيات من قبل الكاتبة حفاظًا على سريتها.

إهداء

إلى كل الرجال والنساء العاملين بوكالة الاستخبارات المركزيةCIA الذين يناضلون من أجل التميز وخدمة بلادنا على الرغم من كافة العوائق الموضوعة بطريقهم.

الفصل الأول

جلست بمعمل تحاليل طبية داخل وكالة الاستخبارات المركزية أنتظر إجراء بعض التحاليل الطبية وأحسست بالقشعريرة تجري في جسدي بسبب الحوائط البيضاء التي تحيط بي من كل جانب، وشعرت ببعض الإهانة عندما خطر ببالي احتمالية تعرضي لفحص طبي للتأكد من عدم تعاطي المخدرات إلا أني كنت أرغب بشدة في الحصول على هذه الوظيفة مما جعلني مستعدة للقيام بأي شيء.

وكنت قد فرغت للتو من اختبار السمع بغرفة عازلة للصوت رفعت فيها يدي كلما سمعت صوت صيحة، وتطلب مني هذا أن أثبت خلال الأيام القليلة القادمة ـ ضمن الأشياء التي يجب على إثباتها ـ أنني لست صماء، وأثناء قيامي باختبار السمع والبصر أحسست بفخر متنامي جعلني أشعر أني أحد رواد الفضاء وأني أمتلك " المهارات الحقيقية "، بينما جعلني اختبار فحص المخدرات أشعر وكأني كائن منبوذ..

وتذكرت الحوار الذي دار بيني وبين صديقي عندما علم بوجوب قيامي بعدد من الاختبارات لمدة أسبوع فاندهش بشدة وقال :

لماذا ترغبين في العمل في مؤسسة لا تثق فيك من البداية ؟

قلت : فحص المخدرات معتاد في عدد من الوظائف.

قال : نعم، فحص المخدرات وليس الجلوس أمام جهاز كشف الكذب! قال هذا تلميحًا لاختبار كشف الكذب الذي سأجريه في الأيام التالية.وقطع على حبل أفكاري دخول ممرضة كئيبة المنظر عينها أشبه بعيون الموتى وهي تحمل في يدها كوب من البلاستيك على جانبه مؤشر متدرج حتى المنتصف فأعطتني الكوب .ثم قالت : تأكدي من ملأ الكوب بقدر كافي من البول حتى يصل للإشارة الموضحة على الجانب.فأخذت الكوب وذهبت إلى دورة المياه وعيناي تدوران بالحجرة الضيقة وتشككت في أن تكون المرايا مزدوجة، وتساءلت : " إذا كانت المرايا طبيعية فأين يا ترى الكاميرات المخبأة ؟ " وجلست على المرحاض وأمسكت الكوب بيدي وعاد عقلي خمس سنوات إلى الوراء لأتذكر كيف وصلت إلى هن

ألقيت خطاب تخرج دفعتي منذ خمس سنوات وختمت كلمتي بقول : وأملي أن يؤثر كل منا في مجتمع ما، ولن نحقق هذا بأن نضع على عاتقنا عبء تحقيق أماني الآخرين ؛ بل سنحقق هذا بالحفاظ على إيماننا بأنفسنا قبل كل شيء.وأرسلت طلب التحاقي بوكالة الاستخبارات المركزية في اليوم التالي لإلقائي هذا الخطاب، وكانت هذه هي رؤيتي الشخصية للالتزام في الواحدة والعشرين من عمري.

ولم يتوقع أبي ــ الذي قضى حياته كلها بوزارة الدفاع ــ أن يتم قبولي، وكان يصر على قول " أنت لست من النوعية التي يبحثون عنها. إنهم لا يبحثون إلا عن الشباب الذي يمثل أندية الجمهوريين" .وربما كان إصرار أبي هو الدافع لي على أن أفكر في وكالة الاستخبارات المركزية في المقام الأول لكي أثبت له خطأه بالإضافة إلى رغبتي الدائمة في أن أصبح عميلة استخبارات وإحساسي بأني قضيت حياتي كلها في إعداد نفسي لهذا الدور فقد كانت كتبي المفضلة في مرحلة الطفولة والتي اعتدت قراءتها مرارًا وتكرارًا هي تلك المتعلقة بالجاسوسية، وعندما كنت أحتجز بغرفتي عقابًا على سوء سلوكي كنت أستغل هذه الفرصة لمراقبة حركة أبواب جيراننا والتواصل مع أعز صديقاتي ــ التي كان بيتها يبعد عن بيتنا بمنزلين ــ باستخدام الإشارات الضوئية، كما اعتدت أن أفتح علب هدايا الكريسماس قبل الحفل وأغلقها ثانية دون أن يعرف أحد، ولم أجد أي مشكلة في الكذب خصوصًا على والديّ.

وأثناء طفولتي واجهني أبي ذات مرة مع أخي ليسألنا أي منا هو الذي شوه حوائط غرفة المعيشة بأقلام الألوان فلم يعترف أي منا فقال أبي بعد أن يأس : أعرف أنك أنت التي فعلت هذا يا لندسي.

قلت : أنا ؟ !

وبكيت وانتحبت من شدة الإِحساس بالجرح الذي سببه لي اتهامه وقلت : كيف تعرف أني أنا الفاعلة ؟

فقال أبي في هدوء : لأن أخاك قبل كل شيء لا يرسم على الحوائط بالإِضافة إلى أنه لا يكذب.

فلم أقدر على جداله فقد كنت حقًا مخربة وظللت على حالي هذا طوال فترة المراهقة وكان أقل المشاكل التي أقوم بها هو تحريض زملائي على الهرب من المدرسة واختلاق الأعذار والتسلل من المنزل والاستيلاء على أشياء أخي من خزانته الخاصة.وطوال فترة دراستي في الأدب الليبرالي وبعد أن أنهيت دراستي الأكاديمية نصحني الجميع بأن أصبح كاتبة أو محامية أو أن أشتغل بالسياسة إِلا أنني دائمًا ما كنت أقول في نفسي. .. .. ما أريده حقًا هو أن أكون جاسوسة.وانبهرت بكل ما يتعلق بالجاسوسية فالتهمت روايات الجاسوسية ومذكرات عملاء وكالة الاستخبارات المركزية واستمتعت بأفلام جيمس بوند التي كنت أشاهدها بسينما بوسطن الشعبية، ولم أكن بلهاء لأظن أن حياة الجاسوسية هي بالكامل كما يصورها سحر أفلام هوليود لكني كنت متأكدة من أني سأكون عميلة استخبارات ممتازة.وأحسست أن عشقي لهذا المجال ليس وليد الصدفة بل هو ميراث عائلي

وذلك لأن أبي كان يقول دائمًا: إنه يعمل بالمختبر واقتنعت أنه جاسوس بسبب عدم تحدثه عن أسرار عمله بالإضافة إلى سفره المتكرر وعودته للمنزل وخروجه منه في أوقات متأخرة.

واعتدت مرافقته في بعض السفريات المتعلقة بعمله وأن أبقى متيقظة لملاحظة أي متتبعين محتملين، أو أن أحزم أمتعتي بطريقة مميزة لأكتشف ما إذا قام شخص ما بالعبث فيها، وحتى بعد أن تأكدت من أن أبي لم يكن يعمل تحت غطاء وأنه فعلًا مهندس بحري كما كان يقول، ظلت شكوكي حول أبيه ــ جدي بومبا مستمرة.عاش جدي بومبا بكل بلدان العالم لأنه كان مهندس بالجيش الأمريكي، وحدث أن قامت انقلابات غير متوقعة في كل البلدان التي عاش فيها، ومات جدي بومبا قبل أن تواتيني فرصة لسؤاله إلا أن شيئًا في أعماقي ظل يقنعني بأني قد أجد الحقيقة لو أني دخلت وكالة الاستخبارات المركزية كما سأتمكن من القيام بالمغامرات السرية المثيرة.

تمكنت من أن أثبت لأبي خطأ وجهة نظره عندما أتاني خطاب من وكالة الاستخبارات المركزية لإجراء مقابلة بواشنطن العاصمة بعد شهر من إرسالي طلب الالتحاق.وغادرت بوسطن بالقطار في نهاية الصيف الطويل الحار لأنضم لحوالي عشرين رجلا وامرأة تجمعوا في غرفة طعام بأحد الحانات، وكان مظهر

ممثلي وكالة الاستخبارات الأمريكية الذين قابلونا مخيبًا للآمال إلى حد ما ؛ فقد كانت المرأة في خريف عمرها ترتدي ملابس زرية وحذاء أجرب ونظارة سميكة وكان الرجل أصلع ممتلئ البطن كئيب المظهر.وأوضح لنا ممثلي الاستخبارات أن وكالة الاستخبارات الأمريكية لها أربعة أقسام رئيسية فبالإضافة إلى إدارة العلوم والتكنولوجيا والإدارة العامة، إدارتان أخريان أمل ممثلي الوكالة أن ننبهر بهم وهما إدارة الاستخبارات المهتمة بتحليل المعلومات، وإدارة العمليات التي وصفها الرجل الأصلع بأنها الإدارة التي تتم بها الأعمال الحقيقية للوكالة.

وأوضح الرجل الأصلع أن داخل إدارة العمليات وظيفتين رئيسيتين هما ضباط التقارير الذين يأخذون التقارير الاستخباراتية ويقدموها للمحللين مع مراعاة حجب مصادر المعلومات، والضباط الميدانيين الذين يجمعون المعلومات الاستخباراتية في المقام الأول، وقال الرجل الأصلع : الضباط الميدانيون هم العملاء الحقيقيون.وعندما خرجت من اجتماع هذا اليوم لم يساورني أدنى شك في أن أصبح ضابطا ميدانيا إن كنت سأعمل بالوكالة لأن إدارة الاستخبارات بدت لي أشبه بمكان يجمع عدد من الموظفين المتبلدين وبدا ضباط التقارير أشبه بالسكرتارية.غادرت واشنطن مثل الآخرين وفي يدي طلب

التحاق من خمسة عشر صفحة أكثر صعوبة من طلبات الالتحاق بجامعة هارفارد التي ملأتها منذ أربع سنوات.
وجدت لنفسي مقعدًا في القطار العائد لبوسطن فجلست فيه القرفصاء وأخذت أقلب في صفحات طلب الالتحاق ووجدت فيه بجانب الأسئلة التي تتطلب إجابات تفصيلية وذكر نبذة عن حياة كل فرد بعائلتي طلبًا بوضع قائمة تضم كل الأماكن التي عشت فيها وأن أحدد أحد الأشخاص الذي يمكن الرجوع له في كل مكان من هذه الأماكن، وتذكرت الحجرة التي استأجرتها ببوسطن في عطلة العام الدراسي الأول وخفت مما قد يقوله زملاء هذه الأيام عني.
واحتوى الطلب أيضًا على أسئلة تستعلم عن الأنشطة الإجرامية وتناول المخدرات، وكنت على يقين تام من أني سأتعرض لجهاز كشف الكذب قبل الالتحاق فقررت أن أكون أمينة في إجابتي وأن أذكر حقيقة تناولي للمخدرات في مرحلة سابقة من عمري، ورنت في أذني كلمات أبي " إنهم لن يوظفوك أبدًا لأنك تعاطيت الماريجوانا."
وأحسست أن أبي ربما يكون محقًا إلا أن عزيمتي التي أصرت على إثبات خطأ تقديراته لم تخور، وبمجرد عودتي للمنزل دخلت غرفتي التي تشاركني فيها زميلتين ويفصل سريري عنهم

ستارة، فدخلت خلفها وأمسكت بقلم جاف أسود وبدأت أملأ الطلب، وأخيرًا أتاني صوت أحد زميلاتي في السكن من خلف الستارة يقول : " هل أنت بخير ؟ ماذا تفعلين عندك ؟ " وتذكرت تعليمات الرجل الأصلع بألا أخبر أحدًا ــ باستثناء أفراد أسرتي ــ بأني أقوم بإِجراءات الالتحاق بوكالة الاستخبارات المركزية، فأخفيت الأوراق تحت الوسادة وقلت : " أنا بخير "، وأحسست أن نبرة صوتي في الرد لم تكن بالصورة الملائمة فقلت : " أشعر ببعض التشنجات لذلك أتمدد في الفراش وبعد قرابة الساعتين أنهيت كتابة الطلب ووضعته بدرج مكتبي لأرسله في اليوم التالي، ونمت في هذه الليلة وشاهدت حلمًا رأيت فيه أسرتي تجمعت للقيام بنزهة في أحد الحدائق العامة التي اعتاد أبي وأمي أن يأخذونا إِليها ونحن أطفال لنستمع لأداء بيتر وبول وماري، وكان جداي المتوفيان موجودين معنا في الحلم يجلسان على بطانية مفروشة على الحشائش والجميع يضحك بما فيهم أبي وأمي اللذان انفصلا منذ سنوات وأمي تجمع أطباقًا من الدجاج المحمر وسلطة البطاطس والجميع يرتدي ملابس فضفاضة كتلك التي اعتدنا عليها، وكان أخي الأكبر مع فتاة لا أعرفها، لكنها بدت كأنها زوجته. فاقتربت من هذا الجمع وحاولت أن أحتضن جدتي لكنها لم تعرفني وأعطتني

ظهرها وجلست تنظر في الجانب الآخر، فقلت لأبي : أخبر ميمو أني أنا.

فقال : من أنت ؟

فصرخت : أنا، ليندسي.

فضحكت أمي وقالت : ليندسي ؟ ! إننا لم نراها منذ سنوات.

وقال جدي بومبا : لا بد وأنك ذهبت لأسرة خطأ.

ثم أشعل جدي غليونة وألقى بعود الثقاب خلف ظهره.

وعندما استيقظت أحسست أن هذا الحلم ربما كان دلالة على أني سأسير في طريق قد أندم عليه فيما بعد، وربما كانت أسرتي على حق عندما قالت لي: إن وكالة الاستخبارات المركزية ليست المكان الملائم لي، وعلى الأقل ليس في هذه الفترة فأنا لا زلت شابة على الانخراط في مثل هذه الوظيفة الجادة، أو في أي وظيفة أخرى ولذلك لم أرسل هذا الطلب أبدًا.

وانتقلت إلى كالفورنيا وعملت نادلة بمقهى وعملت أيضًا كمساعدة لرجل كان يؤلف كتاب " الدليل الكامل لإعداد العصائر " ثم التحقت بمدرسة بنيويورك. وبعد أن سئمت من نيويورك عملت خارج البلاد كمدرسة لغة إنجليزية ببلغاريا التي بدت بلدة كئيبة إلا أني اعتدت عليها وأحببتها وترك أهلها أثرًا عميقًا في قلبي..وبعد أن قضيت عامًا ببلغاريا عدت للولايات المتحدة

والتحقت في نهاية المطاف بوكالة الاستخبارات المركزية.لماذا ؟ لأن الوكالة كانت لي بمثابة حكة بجسدي تستثيرني من آن لآخر، وكنت أعمل مدرسة بإحدى مدارس سان فرانسيسكو عندما عادت هذه الحكة تستثيرني، وتذكرت عملي خارج البلاد واشتقت للعودة إليه كما اشتقت بشدة لبلغاريا وفكرت في طرق العودة فألحت على عقلي فكرة الالتحاق بالمخابرات وفكرت بجدية " لماذا لا أقضي مستقبلي في الحياة خارج البلاد ؟ لماذا لا أعمل في مجال مختلف عن تعليم اللغات الأجنبية وأتعامل مع ثقافات مختلفة وأقوم بالمغامرات في البلدان البعيدة ؟ لماذا لا أذهب للوكالة هذه المرة ؟ فأنا الآن أكبر سنًا، وأشعر بالاستعداد.وعلاوة على هذا فقد بدا لي العمل بالاستخبارات وسيلة للقيام بواجبي نحو بلدي، وشجعني على هذا التفكير عمل أخي بالبحرية الأمريكية الذي أجج فيَّ مشاعر الوطنية والفداء، إلا أني كنت أدرك تمامًا أني لا أصلح للأعمال العسكرية وكنت راضية بالتدريس كمهنة نبيلة بلا جدال ترضي رغبتي في تحقيق واجبي نحو بلادي على الرغم من أنها جعلتني دائمًا قلقة ولا أشعر بالراحة. وبدأت وكالة الاستخبارات المركزية تبدو أمامي كحل لكل مشاكلي حيث تحقق لي كلا من التزاماتي تجاه بلادي ورغباتي الشخصية..

أرسلت لمؤسسة فولبرايت[1] طلبًا للعودة إلى بلغاريا وأرسلت في نفس الوقت طلب التحاق لوكالة الاستخبارات المركزية وقد أصبح عمري الآن ستة وعشرون عامًا أي أني صرت أكبر سنًا بخمس سنوات عن المرة الأولى التي أرسلت فيها طلب التحاقي الأول، وتساءلت عما إذا كان لدى وكالة الاستخبارات المركزية ملفًا لي وما إذا كانت ستعطيني فرصة ثانية

واستجابت الوكالة لي بسرعة للمرة الثانية وأرسلت لي خلال شهر استمارة التحاق أخرى ملأتها وأرسلتها، وبعد عدة أسابيع اتصل بي شخص دون أن يعرف نفسه أو المؤسسة التي يمثلها ليخبرني بموعد إجراء مقابلة شخصية في الأسبوع المقبل بنزل " رصيف الصياد " وطلب مني عدم سؤال مكتب الاستقبال والصعود مباشرة إلى الطابق العلوي باستخدام الدرج وليس

---

[1] مؤسسة فولبرايت هي مؤسسة تابعة للحكومة الأمريكية لها برامج هي من أوسع برامج التبادل الأكاديمي ذات الشهرة الواسعة. ويهدف برنامج فولبرايت، الذي أنشأه السناتور وليام فولبرايت عام1946 ،- على حسب زعم المؤسسة - إلى تعزيز أسس السلام من خلال تعزيز التفاهم المتبادل بين شعب الولايات المتحدة وشعوب البلدان الشريكة حول العالم. وتعتبر الوسيلة الرئيسية والاهم التي يوظفها برنامج فولبرايت لتحقيق هذا الهدف هو تبادل محاضرين وطلاب متفوقين من أعلى المستويات الأكاديمية. لكن يلاحظ التدخل الكبير لإسرائيل بصفة خاصة واليهود بصفة عامة في إدارة شئون هذه المؤسسة وصياغة برامجها وهذا غير خافي ، فهو معلن وواضح بالموقع الرسمي للمؤسسة على شبكة الإنترنت (المعرب) .

المصعد وأن أطرق على الحجرة رقم 219 مرتين، وتعجبت من هذا الأسلوب وفكرت لوهلة في أن المتصل ربما يكون أحد الأشخاص القلائل الذين يعرفون أني قدمت طلب التحاق لوكالة الاستخبارات المركزية مثل أخي أو صديقي وأن أحدهم يمزح معي.وبعد عدة أيام توجهت للنزل النائي وصعدت للطابق العلوي باستخدام الدرج وطرقت مرتين على الحجرة رقم 219وأحسست بالسخافة وببعض القلق لتوقعي إِزعاج السائح الذي يقطن هذه الغرفة وبحرج الوقوع في هذا الفخ الذي نصبه لي أحد أقاربي..وسمعت ردًا من الحجرة على طرقاتي وفتح لي رجل أخرج رأسه وأطل من الحجرة يمينًا ويسارًا وأدخلني بسرعة للحجرة رقم 219وأحسست أن هذا الرجل أكثر ملائمة للعمل بالاستخبارات من الموظف السابق الذي قابلته منذ خمس سنوات فقد كان هذا الرجل على الأقل شابًا وقدم لي نفسه على أن اسمه ديف، وعندما تحرك ديف عبر الحجرة ليصل للمنضدة الصغيرة قرب النافذة المغلقة لاحظت أنه يعرج بصورة خفيفة وكنت متأكدة تماما من أنه تعرض لإِطلاق نار على قدمه أثناء قيامه بأحد الأعمال البطولية، وبعد عدة أعوام أصبح ديف أحد مدربيني واعترف لي أن هذه الإِصابة حدثت له أثناء لعب الكرة مع بعض ضباط مكتب التحقيقات الفيدرالية..وعندما بدأنا

الحديث فتح ديف التلفاز ليغطي على صوتنا وحاولت أن أصرف انتباهي عن الغناء والرقص والألوان غير المتجانسة لأركز على ما يقوله ديف.قال ديف: إنه كان ضابطا ميدانيا ووصف لي بعض الأماكن التي عمل بها وبدت لي كلها غريبة ومثيرة وكان يتكلم عددًا من اللغات وعاش تقريبًا في كل بلدان العالم، وبدا عليه نوع من الضيق لبقائه لمدة عام داخل البلاد لإجراء المقابلات الشخصية مع المجندين الجدد.

ظل اللقاء مستمرًا على وتيرة حسنة وقال لي ديف في النهاية: إنه يرى أني مرشحة قوية لأكون ضابطا ميدانيا، وأعتقد أنه تم استدعائي لواشنطن بناءًا على توصيته لقضاء أسبوع من الاختبارات وإجراء المزيد من المقابلات الشخصية..

وخرجت من الاجتماع منتشية من شدة الشعور بالإثارة والرغبة في إتمام إجراءات التحاقي بوكالة الاستخبارات المركزية على عكس توقعات أسرتي وصديقي فقد كان أبي لا يزال مقتنعًا بأني لا يمكن أن أوظف بالوكالة بسبب خلفيتي الليبرالية وطريقة حياتي شبه البوهيمية، كما كان أخي مقتنعًا ــ بناءًا على خبرته العسكرية ــ أن هذه المهنة الذكورية لا تناسب الطبيعة الأنثوية بالإضافة إلى أنها ستقوض روحي المنطلقة، وكانت أمي قلقة بشدة ومتأكدة من أني سأذهب إلى مكان كئيب وأعرض نفسي

للقتل فورًا، وظن صديقي أني أصبت بالجنون وقال لي : ماذا سيحدث لو أنك فكرت في الاستقالة في وقت ما ؟ هل سيتركونك ترحلين ؟! وعندما أستعيد هذه الذكريات أعتقد أنهم كانوا خائفين من فقدي أو على الأقل فقد الإنسانة التي كانت في هذا الوقت مرحة وودودة وتروي النكات وعلى استعداد دائم لمشاركة الآخرين الضحك.

وسألني صديقي : ما فائدة القيام بالمغامرات إن لم يكن بإمكانك الحديث عنها مع أي أحد ؟وتضافرت معه أمي فقالت : جار صديقتي رودا يعمل بالاستخبارات، وتقسم رودا على أنه أسأم شخص رأته في حياتها.

وقال أبي : آمل أن تتوقفي عن تعاطي الماريجوانا.

ونطقها أبي كما لو أني لا يمر على يوم دون تدخين سلطانية من الماريجوانا.وأرسل لي أخي مقالة عن عدد من النساء اللاتي عملن بالاستخبارات الأمريكية وقال : لم تحقق أي منهن شيء في هذا المجال.وحذرني بعد ذلك في حوار هاتفي وقال: هل أنت متأكدة من أن هذا هو ما تريدينه ؟!

وواجهت اهتمامهم الزائد بقولي: إنني لم أعين بعد وربما لا أتمكن أصلًا من اجتياز الاختبارات.

ولجأت لهذا الرد بعد أن أعيتني الحيل الدفاعية على الرغم من

أن شيئًا في داخلي كان يلح على في أن أجتاز الاختبارات، وأمدني هذا الإحساس بثقة ذاتية غير متوقعة عندما أتاني طلب الوكالة بالسفر إلى واشنطن العاصمة لقضاء أسبوع من الاختبارات.أسكنتني المخابرات بفندق هيلتون في ماكلين بفرجينيا ووصلني منها خطاب يحذرني من التحدث مع أي أحد عن طبيعة عملي ووجوب كتابة تقرير وإرساله في الثامنة من صباح يوم الإثنين للعنوان. ... الذي لا يبعد كثيرًا عن الفندق وكانت المهمة الأولى هي القيام بعدد من الاختبارات والفحوصات الطبية بالإضافة إلى فحص تعاطي المخدرات، ولم أكن قد تعاطيت الماريجوانا بعد المرة الأولى التي تقدمت فيها للاستخبارات إلا مرة واحدة فقط فكتبت في التقرير فيما يتعلق بتعاطي المخدرات " مرات قليلة أثناء المرحلة الجامعية ".جلست بمبنى الاستخبارات المركزية في غرفة اجتماعات عارية من الأثاث مع ثمانية مرشحين آخرين، وقدم لنا عدد من القصاصات وطلب منا قبل التعرض لجهاز كشف الكذب وفحص تعاطي المخدرات أن نكتب أي أنشطة إجرامية أو تعاطي للمخدرات لم نذكره في التقرير، وكنت الوحيدة التي تناولت بسخافة القلم وكتبت.وبعد الانتهاء من الفحوصات الطبية قمت بالإجابة على عدد من الاختبارات ذات الإجابات الاختيارية، وكان أحد هذه

الاختبارات المملة أكثر من ألفي سؤال، وتضمنت الاختبارات أيضًا أسئلة غريبة تتطلب إجابتها الصواب والخطأ مثل : " أفضل أن أكون بائع زهور على أن أكون محاربًا " و " نادرًا ما أحب تعذيب الحيوانات الضعيفة ".

وظللت معتقدة أني أسير في اختباراتي على ما يرام حتى قابلت في اليوم التالي أحد أطباء الوكالة النفسيين الذي كان رجلًا عجوزًا يرتدي معطفا طبيا أبيض وتتدلي من على أنفه نظارة من طراز الخمسينات وكنت متأكدة من مظهره أنه يعمل بالوكالة منذ نشأتها وأن المبنى تجدد عدة مرات من حوله هو ومكتبه البالي، فاكتأبت إلا أني كنت متأكدة من أني أجلس مع طراز عتيق من الأطباء النفسيين فحرصت على أن أسعده أو على الأقل أثبت له أني عاقلة تمامًا.

بدأ الطبيب حديثه بأن أخبرني أني أحرزت أعلى الدرجات مقارنة بباقي المرشحين فيما يتعلق باختبارات الذكاء الرياضي واللفظي، فأحسست بإشراقة أمل وبفخر. ثم انتقل للحديث عن الجانب النفسي من التقييم وقال : هناك بعض النتائج المقلقة باختبار الصحة النفسية الذي أجريتيه.

واندهشت لهذه الملحوظة فقد كنت معتادة على تخطي كافة اختبارات الذكاء والاختبارات النفسية بكفاءة عالية.

وقال الطبيب وهو يفرقع بلسانه في استهجان : هناك بعض النتائج المقلقة بشدة.
وتوقفت أنفاسي وأحسست أني سأخرج من سباق الحصول على هذه الوظيفة، واستمر الطبيب في حديثه فقال : لقد وضعت على سبيل المثال علامة خطأ أمام عبارة " لم أرغب أبدًا في أن أكون من الجنس الآخر." قلت : حسنًا، خطر على ذهني في بعض الأوقات أنه سيكون أمرًا لطيفًا ــ أعني أن الحياة ستكون أيسر ــ لو أني كنت رجلًا. واستمر الرجل يحدق في دون أن يظهر عليه أي رد فعل فقلت مازحة : أفضل أن أتقاضى دولارا كالرجال على أن أتقاضى ستين سنتًا.
وأحسست أن هذا الرجل العجوز يقوض شيئًا بحياتي، ثم أكمل حديثه فقال : وضعت علامة خطأ أمام عبارة أخرى وهي " لم أشارك أبدًا في أي ممارسات جنسية غير طبيعية."
فاحمر وجهي خجلًا وقلت في تلعثم : حسنًا، أعتقد. .. أعتقد أن هذا يتوقف على ما تعنيه بكلمة " غير طبيعية.
فانحنى العجوز نحوي وقال : بل أنا شغوف لمعرفة ما الذي فهمتيه من كلمة " غير طبيعية " عندما وضعت علامة خطأ أمام هذه العبارة.غضبت من نفسي بشدة لتركي هذا العجوز يتغلب علي وقلت : حسنًا ربما كنت مخطئة فقد كنت أظن السؤال

يقصد شيئًا خلاف الأوضاع الجنسية المختلفة.
وتلى هذا فترة صمت معذبة وظل العجوز يحملق في بتركيز فقطعت الصمت قائلة : أعني أنه لو كانت الأوضاع الجنسية المختلفة تعد غير طبيعية لكنت أوضحت أني قمت بممارسات جنسية غير طبيعية. .. لكنني.. .
قاطعني قائلًا : أي نوع من الممارسات ؟
فانزعجت من السؤال وفكرت في أن أقوم وأهجم عليه إلا أني تمالكت أعصابي ولم أدع شخصًا كهذا يرعبني وقلت : أعني أي شيء مثل. .. مثل. .. الجنس الفموي أو أشياء من هذا القبيل.
وأحسست بالرجل العجوز في هذه اللحظة يتوغل في أعماق حياتي الشخصية، وأخيرًا قال : نعم، ينبغي أن أصنف هذا على أنه ممارسة غير طبيعية. .. بل هو انحراف، فمن الواضح أنك قمت ببعض الممارسات الجنسية المنحرفة وسأثبت هذا بتقرير تقييمك.وذهلت بشدة وملأني الغضب ولم أجرؤ على البوح بالأفكار التي ملأت عقلي " هل يظنني حقًا منحرفة جنسيًا أم أنه يقول هذا فقط ليجعلني أرسب في اختبارات القبول ؟"
وانصرفت إلى الفندق وأنا مصدومة وارتميت على فراشي واتصلت بأمي وأخبرتها بما حدث فغضبت بشدة وصرخت في الهاتف : هذا ليس انحراف.

وبعد أن هدأت أنا وأمي اتفقنا على أن الرجل ربما كان منحرفًا ويسقط هذا على الآخرين. وقبل أن تنهي أمي المكالمة قالت :
هل أنت واثقة من رغبتك في العمل مع هؤلاء الناس ؟
وأصبحت في هذه اللحظة أكثر رغبة في الالتحاق بهذا العمل ليس لأثبت لأبي خطأه فقط، بل ولهذا الطبيب النفسي القذر أيضًا.وقررت ألا أجعل جهاز كشف الكذب ــ الذي سيفحصني في اليوم التالي والأخير ــ ينتزع مني أي اعترافات كما فعل هذا العجوز.اغتسلت في اليوم التالي وارتديت ملابسي ثم توجهت لمبنى آخر بشمال فرجينيا للخضوع لجهاز كشف الكذب. وخرجت من هذه التجربة بقناعة أكيدة أن التعرض لجهاز كشف الكذب هو أفضل علاج للإمساك فقد قضيت النصف ساعة السابقة للاختبار في الذهاب والغدو ما بين دورة المياه وحجرة الانتظار، وسبب لي الاضطراب الشديد إسهالًا حادًا.وفتح الباب ونادى علينا المختبرون واحدا تلو الآخر بأسمائنا الأولى ونشأت صداقة حميمة بين المجموعة التي ظلت مستمرة في السباق المحموم للحصول على تلك الوظيفة متجاهلين تمامًا أننا متنافسون على نفس المهنة، وغمز كل منا للآخر وتمنى له حظًا طيبًا، وتمنيت أن لا يجري لي الاختبار شخص وسيم في مثل عمري لأني لم أكن مقتنعة تمامًا أني

يمكن أن أتخطى هذا الاختبار في الساعات القليلة القادمة دون أن أبلل سروالي.وجاء دوري ودخلت حجرة الاختبار فوجدت الذي سيجري لي الاختبار امرأة أمريكية من أصول أفريقية قدمت لي نفسها باسم كيتي، وعرفت بعد ذلك أن كل من تعاملنا معهم كان يستخدم اسما مستعارًا.وبدت كيتي ــ مثلها مثل باقي القائمين على اختبار كشف الكذب ــ غير قادرة على تحمل عبء ابتسامة بسيطة وقادتني دون أن تنطق بكلمة واحدة إلى حجرة بلا نوافذ وأجلستني على كرسي أشبه بالسرير موضوع أمام مكتب خلفه مقعد دوار وجهاز كمبيوتر لم أرى شاشته.وشرحت لي كيتي أن الاختبار سيقيس ردود أفعالي الفسيولوجية على الأسئلة التي ستوجه لي وعندما أكذب سيظهر هذا على شاشة الكمبيوتر بالإضافة إلى المرسام الذي يطبع ردود أفعالي.وناولتني كيتي إقرار أوقع عليه بعلمي أنه لو اكتشف أثناء فحص الكذب قيامي بأي أعمال إجرامية كالقتل أو السطو أو أي جرائم فدرالية أخرى فإن القانون يلزم وكالة الاستخبارات المركزية بتحويل هذه المعلومات لوزارة العدل أو لمكتب التحقيقات الفيدرالية، وكنت متأكدة تمامًا من أن الفترة القصيرة التي كنت أسرق فيها الحلوى من المحال التجارية عندما كنت في السابعة من عمري لن تعرضني لعقوبة فدرالية

فوقعت على الإقرار

.وتذكرت قصة حكاها لنا أحد المرشحين ليلة أمس أثناء تناول العشاء عن رجل اعترف أثناء فحصه بجهاز كشف الكذب أنه قتل زوجته ثم أذاب جثتها ووضع بعض أوصالها في آنية خزنها بقبو منزله.وأدركت أن أي جريمة اقترفتها ستبدو هباء أمام مثل هذه الجريمة، ووضعت كيتي بعض الجساسات على صدري وبطني وبإصبعين من كلا يدي ولفت جهاز قياس ضغط دم حول ذراعي، وأصبحت أقل توترًا وأكثر فضولًا وأشعر ببعض الإثارة.وبدأت كيتي توجه عددا من الأسئلة لم تمثل لي أي تحدي فسيولوجي مثل ؛ هل أنا عضوة بمنظمة إرهابية ؟ وهل قمت بإتلاف أي ممتلكات عامة ؟ وهل أنوي الإجابة بصدق عن كافة الأسئلة أم لا ؟ وهل أعمل بجهاز استخبارات تابع لدولة أجنبية أم لا ؟ بالإضافة إلى البيانات التي ذكرتها بالتقارير التي كتبتها من قبل مثل ؛ هل تناولت المخدرات من قبل ؟ وهل ارتكبت أية جرائم ؟ وهل أخفي عن الوكالة معلومات تتعلق بعلاقة مع أجانب ؟وضايقني السؤال الأخير كثيرًا لارتباطه بمتسلقي الجبال البلغاريين الذين أمددت الوكالة بقائمة كاملة بأسمائهم ضمن القوائم التي كتبت فيها بيانات كل أصدقائي الأجانب، وقد تعرفت على أغلب أصدقائي البلغاريين أثناء تسلق الجبال في الفترة التي

قضيتها ببلادهم، وتساءلت عن حقيقة مشاعرهم تجاهي لو أنهم علموا أني أبلغت وكالة الاستخبارات المركزية عنهم، وتذكرت أن واجبي يستلزم مني أن أضع نفسي تحت التصرف الكامل لوكالة الاستخبارات المركزية، وأن طبيعة مهنتي تتطلب مني تقديم أسماء الآخرين، وبررت هذا بافتراض أن الوكالة ستتحرى عنهم بين قواعد بيانات العملاء الأجانب، واستبعدت أن يعرف أحد أصدقائي هذا الموضوع.وبعد العديد من الأسئلة قالت لي كيتي أننا سنأخذ فترة راحة، واسترحت وأحسست أني أتقدم في خطواتي بصورة حسنة، وفجأة ظهرت كيتي أمامي وهي تحمل بيدها أوراق ووجهها عابث وصاحت في قائلة : أداؤك سيئ. واندهشت للمرة الثانية، وأحسست أني كلما بدأت أتأقلم مع هذا المجال تظهر لي عقبات جديدة.

قالت كيتي : إنك تخفين شيئًا، وآمل أن تخبريني ما هو ؟ ولماذا تخفينه ؟

قلت : إنني لا أخفي أي شيء ولا أنطق إلا بالحقيقة.

فقالت : لو أنك كنت تقولين الحقيقة لما دار هذا الحوار بيننا.

ولاحظت في هذه اللحظة أن الأزرار العلوية لقميص كيتي مفتوحة وأن صدرها واضح، وتساءلت هل ينبغي على أن ألفت انتباهها لذلك، أم أن هذا جزء من الاختبار ؟ ! ولم أقل شيئًا

لكيتي وأشحت ببصري بعيدًا فزاد هذا من شكوكها، وقالت : لديك مشكلة في إجابة سؤال واحد وأطلب منك أن تحددي لي هذا السؤال.قلت : ليس عندي أي فكرة عما تتحدثين عنه ؛ أعني أني كنت أمينة في ذكر ما يتعلق بالمخدرات وربما أكون قد قللت من عدد المرات التي تناولت فيها الماريجوانا،قالت كيتي بحدة : ليس الأمر متعلقًا بالمخدرات.

قلت : حقًا لا أعرف ما تقصدينه، لقد ذكرت أسماء كل معارفي الأجانب.قالت كيتي : أنا أتحدث عن الجرائم، حدث لك رد فعل أثناء إجابة السؤال المتعلق بالجرائم.

قلت : لا بد وأنك تمزحين.

وكان سؤال الجريمة كما يلي " هل حدث بعد أن بلغت سن الثامنة عشر أن قتلت أو سلبت أو سرقت ممتلكات قيمتها أكثر من 200 دولار ؟ "

فقلت بمنتهى الإصرار : لم أقل إلا الحقيقة.

قالت : ألم تسرقي شيئا أبدًا ؟

قلت : سرقت حلوى عندما كان عمري سبع سنوات، لكن لم تبلغ قيمتها 200 دولار.

فقالت : وماذا حدث أثناء عملك كمدرسة ؟ ألم تعتادي سرقة الورق من ماكينة التصوير ؟

فازداد غضبي وقلت : طبعًا لا. ربما أكون قد أخذت بعض الورقات من ماكينة التصوير، لكن هذا كان للاستخدام العام بقصد وضعها في غرفة المدرسين. إِذا كان هذا ما تقصدينه بكلامك.

فقالت كيتي: إنها ستتركني لحظات لتناقش هذا مع رؤسائها بينما ينبغي علي في هذه الفترة أن أفكر في الجرائم الأخرى التي ارتكبتها ولم أتحدث عنها، وأن أكتب قائمة بها لو احتجت لذلك.

وأدركت في هذه اللحظة أني أتعامل مع إِنسانة مختلة تمامًا.

وبعد أن انصرفت كيتي تساءلت عما جعلني أزج بنفسي في هذه الفوضى، وماذا سيحدث لو أنهم لم يصدقوني وأحالوني لمكتب التحقيقات الفيدرالية ؟ وفكرت في احتمالية قضاء بقية حياتي خلف القضبان عقابًا على جرائم لا أعرفها ولم أرتكبها أبدًا، وتجولت ببصري في أرجاء الغرفة وأنا أتساءل أين ينبغي أن تكون الكاميرات المخبأة، فقد سمعنا أن المكان مزود بكاميرات مراقبة تسمح للمختبرين بمراقبة تصرفاتنا أثناء وجودهم خارج الحجرة.وحاولت أن أبدو هادئة وغير مضطربة.

وعادت كيتي وقد أغلقت أزرار قميصها وقالت لي: إن رؤساءها مقتنعين أني أكذب بخصوص شيء ما.

وملأني السخط فقلت : لقد قلت الحقيقة وليس لدى ما أضيفه.

فجلست كيتي أمامي والأوراق بأحد يديها وباليد الأخرى قلم وقالت : سأعطيك فرصة أخرى لتفصحي عما بصدرك.
قلت : لست أكذب وليس بصدري شيء لأبوح به.
فتنهدت كيتي وقالت : حسناً، يمكن أن نعيد الاختبار مرة ثانية اليوم أو أن تعودي غدًا.وكان لدى رحلة طيران للعودة لسان فرانسيسكو في اليوم التالي وكنت قد جلست على مقعد جهاز كشف الكذب لأكثر من ساعتين وبدأت أشعر أن هذه القضية خاسرة فقلت : أنا لا أبالي.
فأجلستني كيتي مرة ثانية أمام جهاز كشف الكذب وتكررت الأسئلة ذاتها مرة أخرى، لكنها في هذه المرة سألت عن الجرائم بين كل سؤال وآخر مما استثارني بشدة وجعلني متأكدة من أن المرسام الكهربائي يسجل انفعالاتي الزائدة. وأخيرًا قالت لي كيتي: أني يمكنني أن أسترخي.
وفحصت كيتي لفافة طويلة عليها النتائج التي رسمها المرسام ثم قالت بسرعة : سأعود.
وغادرت كيتي الغرفة مسرعة، وعندما عادت بدت ملامحها أكثر جدية وأشد عدوانية وقالت : لقد اجتزت الاختبار اليوم، وشكرًا لوقتك.
ونزعت المجسات من صدري وبطني ثم قادتني إلى ردهة

طويلة للخروج.

وبعد أن غادرت المبنى لم أشعر بالرضا بل شعرت بالإِهانة والحماقة لقبولي إِجراء هذا الاختبار المهين.

وعدت إلى سان فرانسيسكو وأنا مقتنعة أن أدائي في الاختبار النفسي وعلى جهاز كشف الكذب لا يسمح لي بالعمل بالاستخبارات على أي حال. وعدت للتدريس وحاولت أن أضع الأفكار المتعلقة بمجال الجاسوسية الذي فشلت فيه خلف ظهري.

ووجدت ذات يوم بصندوق بريدي رسالة تخبرني بأني فزت بمنحة فولبرايت للدراسة ببلغاريا، وبدأت أضع خطط العودة لأوروبا الشرقية وأنا في قمة السعادة.

وبعد ثلاثة أسابيع تسلمت خطابًا آخر يعرض على العمل كضابط ميداني بوكالة الاستخبارات المركزية.

* * * * *

الفصل الثاني

أتعرفين ليندسي موران ؟

سألني هذه العبارة رجل أخرج لي من محفظته بطاقة هوية رسمية، فقلت : أنا ليندسي موران.

فقدم لي الرجل نفسه على أن اسمه فرانك وأنه محقق تابع لوزارة الدفاع ثم قال لي : أتمانعين لو أني طرحت عليك بعض الأسئلة ؟

وأخرج من حقيبته أوراق رسمية وقلم وقدته إلى ردهة المنزل الذي كنت أستأجر حجرة به في الصيف، وتذكرت أن تينا ــ إحدي زميلاتي في السكن ــ حدثتني عن وجود رجل غريب يحوم حول المكان ودائمًا ما يقف بسيارة فان زرقاء قرب المنزل يراقب تحركاتنا بصورة واضحة ؛ وكان هذا هو فرانك.

وقالت لي تينا في اليوم السابق: إن فرانك هذا توجه لجارتنا العجوز أوه سوليفان التي لم تتردد في إغلاق الباب في وجهه بعنف والاتصال بالشرطة ــ وحسب ما قالته تينا ــ فإن فرانك توجه على الفور إلى المنزل المقابل لنا في الشارع والذي يسكنه بعض المجرمين ففر أغلبهم من الباب الخلفي فورًا.

وجلست مع فرانك في غرفة المعيشة التي تناثرت فيها علب

البيتزا وزجاجات الجعة من ليلة أمس، وسألني فرانك العديد من الأسئلة عن أوضاعي المالية وعادات تناولي للشراب، ومسحت عيناه الفوضى التي ملأت الغرفة، فتحدثت عن أعباء دين الدراسة وحياتي المرحة محاولة أن أبدو سعيدة بحياتي بصورة كلية، وأنا على يقين من أن فرانك قابل حالات أشد مني انحطاطًا.

وأثناء حديثنا خرج علينا رجل لم أراه في حياتي من قبل وهو عاري تمامًا باستثناء منشفة ملفوفة حول وسطه، ولم أذهل مثل فرانك فقد كنت حقًا معتادة على عدم معرفة من ينام بالبيت فتينا فتاة شبه مشردة من أسرة مزارعة من أوهايو وقلبها مفتوح دائمًا لأي أحد يمكن أن يقابلها وبسببها وجد العديد من المتمردين وأصدقاء الأصدقاء مأوى في بيتنا.

ومد الشاب يده لي ثم لفرانك وقال : أهلًا، أنا جاي.

فدون فرنك الاسم تحت بعض الملاحظات عن عدد زجاجات الخمر التي أستهلكها أسبوعيًا، ثم قال فرانك لجاي دون أن يرفع عيناه له : ربما آخذ من وقتك بضع دقائق أتحدث معك فيها عن ليندسي بعد أن انتهي من الحديث مع السيدة.

فقال جاي : ليندسي من ؟

فبدا الارتباك على فرانك فأخبرته أني لم أقابل هذا الشاب إلا في

هذه اللحظة، ثم أخبرت جاي أني زميلة تينا بالسكن وأني أقدم لوظيفة حكومية وفرانك هو محقق وزارة الدفاع للتحري عنى. وكانت هذه المعلومات كافية لتجعل جاي يرجع من حيث أتى لتأكدي من أن عبارات " محقق تحريات " و " وزارة الدفاع " لا تثير في أمثال جاي إلا الدلالات السيئة التي تجعلهم يبتعدون تمامًا.

وبعد أن انتهى فرنك من إجراء هذه المقابلة طوى أوراقه وتنهد في ارتياح مثلي واعترف لي بأن هذه الأشياء جديدة عليه وأنه كان يعمل من قبل بائع أحذية وقال في شبه اعتذار : هذا هو أول تحقيق تحري أجريته في حياتي وآمل ألا أكون فظًا.

فأخبرته أني أتفهم موقفه وأني لا أخفي عنه أي شيء.

وبمجرد خروج فرانك ناديت على جاي وأخبرته أن الخروج أصبح آمنًا، لكن جرس الباب دق مرة أخرى وفتحت الباب لأجد فرانك ثانية وعيناه تنظر حوله في خجل وقال : آسف على المضايقة لكن هناك شيئا واحدا أود أن أسأل عنه.

ونظر فرانك حوله ليتأكد أن لا أحد من الجيران يرانا ثم خطى داخل المنزل وقال وعيناه متسعتان وشفتاه متدليتان كالسمكة : لم تعودي تفعلين هذا، أليس كذلك ؟

وبدا من الواضح عليه أنه لم يدخن الماريجوانا من قبل.

وكنت لم أتعاطاها منذ أكثر من عام من وقت ذهابي لبلغاريا في منحة فولبرايت، فقلت له : لم أعد أتناول المخدرات.

وأحسست باقتراب جاي وتلويحه لي، فقال فرانك : حسنًا، كنت أتأكد فقط.

ودون هذا على ورقة جديدة ثم حياني أنا وجاي وانصرف.وبمجرد خروجه وإغلاقي الباب خلفه قال جاي : كان هذا مروعًا.ورأينا من النافذة فرانك وهو يركب سيارته الفان الزرقاء ويقودها ببطء وبدا عليه هذه المرة أنه ينصرف حقًا.

* * * * * *

وواجهني اختيار صعب ؛ إما قبول منحة فولبرايت أو العمل بوكالة الاستخبارات المركزية، ولم أعرف ماذا أفعل فمن ناحية كنت شغوفة لأبدأ حياتي في مجال الجاسوسية ومن ناحية أخرى فإن منحة دراسية ببلغاريا لمدة سنة فرصة لا تعوض يمكنني فيها القيام بأبحاثي دون أن أكون تحت المراقبة، وكنت على يقين أني بمجرد بدء عملي بالمخابرات فإن أدق تفاصيل حياتي ستكون تحت المراقبة، وأحسست أن منحة فولبرايت ستعطيني عامًا آخر من الحرية، أو بمعنى آخر ؛ فرصة أخيرة للابتهاج.
واتصلت بالوكالة وسألت عما إذا كان بإمكاني أن أؤجل بداية عملي لمدة عام حتى يتسنى لي الحصول على منحة فولبرايت. فقال لي ممثل إدارة الموارد البشرية بالوكالة : إننا على وشك أن نطلب منك الحضور، وأن نعرف منك ما إذا كنت ترغبين في العمل أم لا.
وكان هذا الموقف بسبب رفضي العمل مع الاستخبارات عندما أتاني طلب منها لتولي مهام عملي خلال أسبوعين، وطلبها بأن أوقف إجراءات منحة فولبرايت. وكنت في هذا الوقت في منتصف فصل دراسي وأحسست بأن واجبي تجاه طلابي يحتم علي أن أكمل العام الدراسي، واندهشت من موقف الوكالة التي تعتمد في المقام الأول على إخلاص موظفيها عندما لم تبد أي

اهتمام بالتزامي الأخلاقي أمام تلاميذي.
وفي النهاية وافق قسم التوظيف بالوكالة على أن أنهي العام الدراسي وأن آخذ منحة فولبرايت على شرط القيام باختبار كشف الكذب مرة ثانية بالإِضافة إلى إعادة التحري عني بعد عودتي من بلغاريا، وتم التنبيه علي بعدم الاتصال بالمخابرات أثناء وجودي خارج الولايات المتحدة.
ورغبت في الاستمتاع بعام الحرية الأخير المتاح لي فانهمكت في القراءة والأبحاث واستمتعت ببعض الجولات بالبحر الميت وتسلق الجبال وأصبحت أكثر شراهة في الاستمتاع بالحياة إِن لم أكن قد انغمست في ملذات الحياة تمامًا وعدت بعد عام بصديق جديد صنفته للمخابرات عندما تعرضت لجهاز كشف الكذب على أنه " صديق حميم أجنبي ".
وكان اختبار كشف الكذب مؤلمًا كسابقه وممل بشدة وسألني الرجل الذي كان يجري الاختبار : هل تعمدت إِتلاف ممتلكات حكومية أو أنظمة إِلكترونية ؟
وبعد أن أوضحت للمرة المليون أني ليس لدى سبب يدفعني للكذب في إِجابة مثل هذا السؤال، قال لي الرجل النحيل الذي كان يجري الاختبار : أريدك أن تفكري طويلًا وبتمعن يا لندسي لأن هذا السؤال سيغطي الكثير من الجرائم. ..

ومال نحوي بصورة تآمرية وقال : مثل سحق جهاز الفاكس بمطرقة !فقلت : حقًا، لقد نلت مني فتحطيم آلات الفاكس بالمطرقة عادة يبدو أني لن أتخلص منها.
وبعد عدة ساعات من الاستجواب أخبرني الرجل أني لم أجتاز الاختبار وأني لن أعين بالاستخبارات بعد كل هذه المعاناة.
وأحسست أن جزءًا مني قد استراح لهذا الخبر بعد أن تخطيت الكثير من الصعاب وبعد أن نسيت ما كنت أرغب فيه في المقام الأول، كما كنت قلقة بسبب تفكيري فيما تعنيه وظيفتي الجديدة بالنسبة لي وبالنسبة لساشو ـ صديقي البلغاري ـ بالإضافة إلى عدم قدرتي على تخيل صمودي مرة أخرى أمام جهاز كشف الكذب أثناء الفحص الدوري لي بعد التعيين بالوكالة.
وبينما كان الرجل الذي أجرى لي الفحص ينزع المجسات من صدري وبطني تأرجحت مشاعري بين الراحة العميقة وخيبة الأمل، واستأذنني في أن يغيب لبضع دقائق قبل أن يقودني لطريق الخروج.
وعندما صرت وحدي بالحجرة قمت من على مقعدي وهندمت ملابسي وحملت حقيبتي بيدي وأصبحت مستعدة للخروج بمجرد عودته.وعاد الرجل مبتسمًا بصورة شبه هيستيرية وقال :
مرحبًا بك في وكالة الاستخبارات المركزية يا ليندسي، وآمل أن

تعذريني على ترويعك.

قلت : هل نجحت ؟

قال : طبعًا.

واقترب مني ومد يده ليصافحني وقال : فعلت هذا فقط لأتأكد من عدم وجود أي احتمالية للخداع.

قلت : فعلت هذا لتتأكد مما إذا كنت أخفي شيئًا ما ؟ !

قال : طبعًا، نحن نقوم بهذا دائمًا.

ولم أسمع من قبل حتى هذه اللحظة عن مختبر كشف كذب يكشف أوراقه بهذه الطريقة.

وغادرت المبنى وأنا أشعر بالرضا والذهول ورحلت الراحة التي شعرت بها منذ لحظات ليحل محلها الرضا والفخر والاستثارة المتنامية بسرعة غريبة.

وأثناء مغادرتي المبنى قال لي المختبر أني ينبغي أن أنتظر ثلاثة شهور على الأقل حتى ينتهي إعادة عمل التحريات اللازمة فقررت العودة لسان فرانسيسكو من أجل صديقي ساشو الذي أوشكت تأشيرته السياحية على الانتهاء وكان يعمل بمهن مختلفة بين الفترات التي يقضيها في تسلق الجبال.

قضيت الصيف مع ساشو مخيمين بمنتزه يوزميتي العام وعدنا للمدينة عندما نفذت أموال ساشو وتوجب عليه أن يطلي مرآب

سيارات أو ينظف بالوعة للحصول على المال.
وبينما أنا أنفصل عن ساشو في أحد زوايا الطريق حيث يتجمع العمال من أمثال ساشو الذين كان أغلبهم مكسيكيين فكرت في التحول الذي سيطرأ على حياتي، وتذكرت الليالي الثلاث الأخيرة التي نمناها بالعراء ملتحفين السماء بنجومها اللامتناهية، وقلت لنفسي : ما الذي سيحدث لي ولصديقي الأجنبي عندما أبدأ عملي بوكالة الاستخبارات المركزية.وأحسست بصراع رهيب في نفسي ؛ فمن ناحية كنت شغوفة لانتهاء التحريات وبدء عملي بمجال الجاسوسية، ومن ناحية أخرى كنت قلقة لما يتوجب علي التخلي عنه، فقد أحببت تسلق الجبال وأحببت ساشو ومثل كل منهم ــ بالنسبة لي ــ الحرية بكل معانيها، وكانت هذه هي مزايا حياتي الحالية التي ربما أضطر للتخلي عنها، بينما لم تكن لدى معلومات كافية عن حياتي العملية الجديدة ومتطلباتها.وبدلًا من أن أفكر في الاختيار بين ساشو وحياتي العملية الجديدة أخرجت هذه المعضلة من رأسي وأقنعت نفسي أن بإمكاني الحصول على كل شيء، ووافق ساشو الذي كان يعرف فقط أني سألتحق بوظيفة " في الحكومة " على أن ينتقل للحياة معي قرب واشنطن العاصمة بمجرد أن أوفر سكنًا هناك.
وبينما نحن نودع بعضنا في أحد الشوارع القريبة من المنزل

الذي زارني فيه فرانك من قبل وقف ساشو بجوار الشاحنة التي استأجرتها لنقل أغراضي عبر البلاد في الأسابيع القليلة القادمة ووضعت يدي على عجلة القيادة ونظر لي ساشو بتمعن وقال :
هل أنت واثقة من أنك سترغبين في حضوري ؟
قلت : طبعًا.وكان صوتي يحمل نبرات حزن أكثر من نبرات البهجة فقد كانت الحقيقة أني لا أعرف، وارتعبت من فكرة هجر ساشو فأقنعت نفسي أن خسارة صديق أجنبي ليست خسارة كبيرة إذا كنت سأعمل بوكالة الاستخبارات المركزية، وبينما أنا أسير في طريقي كان تخيل مدي ملائمة وجود ساشو في حياتي أثناء عملي بالاستخبارات تصبح أكثر قساوة، وقلت لنفسي: إني في طريقي للعمل بالجاسوسية فكيف سينظر لي ساشو ؟ وكيف ستنظر الوكالة لساشو ؟ !وفي نهاية كل يوم طويل من القيادة كنت أركن الشاحنة وأجلس مع نفسي لبعض الوقت في أحد الحانات الموجودة على جانب الطريق أتناول إحدى شرائح الهمبورجر أو فطائر التفاح وأحملق في السماء محاولة أن أستريح لبعض الوقت من التفكير في ساشو وأتخيل مشاهد من مستقبلي بدونه.

*****

كان اليوم الأول الذي التحقت فيه رسميًا بالعمل بوكالة الاستخبارات المركزية يوم إثنين حار بشهر أغسطس ولبست في هذا اليوم بدلة زرقاء جديدة وقدت شاحنتي العتيقة التي تعطل بها جهاز التكييف ووصلت في تمام الساعة التاسعة صباحًا للمبنى الضخم للإدارة الرئيسية لوكالة الاستخبارات المركزية والذي علته لافتة واضحة كتب عليها بحروف كبيرة CIA ولم أكن حصلت بعد على شارة تمكنني من دخول المبنى فاقتربت من صندوق به كاميرا وميكروفون على بعد أمتار قليلة من البوابة الرئيسية وقلت في الميكروفون على نحو أبله :

مرحبًا، أنا هنا ليومي الأول.

فسمعت صوت من الصندوق يقول : حسنًا تعرفين أن هذا هو مبنى الإدارة الفيدرالية، أليس كذلك ؟

فأحسست بالبلاهة وقلت : لا.

فسمعت صوت فرقعة تلاه صوت المتحدث يقول ثانية : آسف كنت أمزح معك فقط، استمري في قيادة سيارتك.واسترحت لمعرفة أن بهذا المكان أشخاص يتمتعون بروح مرحة.

وحصلت على شارة مؤقتة للدخول وعرفت المكان المخصص لسيارتي ودخلت المبنى الرئيسي للمرة الأولى ووقفت على الختم الكبير المرسوم على الأرض وتفرست للحظة في النجوم الذهبية

الموضوعة على الحائط والتي كنت أعرف من الكتب التي قرأتها أن كل واحدة منها ترمز لأحد ضباط المخابرات الذين ماتوا أثناء القيام بواجبهم وبدا لي اللاتناهي الزماني لهذه النجوم مجيد بقدر ما هو مأساوي.

وأحسست بالفخر لتحقيقي هذا الإنجاز فقد أصبحت أخيرًا داخل وكالة الاستخبارات المركزية ولم يستوقفني أحد.

وخمدت نفسي المنتفخة عندما رأيت لوحة كئيبة عليها شخصية إلف الكرتونية وهو يمسك بمجموعة من البالون ويقول مرحبًا بك في الوحدة 101 بوكالة الاستخبارات المركزية.

وخلف إلف لوحة تعليمات تطلب من الموظفين الجدد أن يذهبوا لحجرة بالطابق الأول بمبنى الإدارة الرئيسية القديم، وتطلب مني حفظ متاهة الممرات والردهات التي تربط المبنى القديم بالمبنى الجديد أسابيع طويلة، وأحيانًا ما كنت أتوه في السراديب المتشابهة فأذهب لدورة مياه السيدات لألتقط أنفاسي وأستعيد توازني.قضيت الأسبوعين الأولين بالوحدة 101 التي كانت عبارة عن حجرة كبيرة جلسنا فيها وتلقينا عددا من المحاضرات العامة كان بعضها مشوق مثل شرح كيفية استكشاف المتفجرات، وبعضها ممل مثل الأنواع والتقسيمات الأمنية وواجبات كل منها وعقوبات الفشل في إنجاز مهامها.وكان أهم

المحاضرات بالنسبة لي تلك التي ألقاها ممثلين لمكتب الأمن وأوضحوا فيها القوانين المتعلقة بمواعدة الأجانب وتكلم في هذه المحاضرة رجلين أشبه بالآلات وامرأة خرقاء قضوا أغلب المحاضرة في سرد الحكايات المحزنة عن عميلات بالوكالة وقعوا في غرام رجال أجانب اتضح فيما بعد أنهم جواسيس، وباعوا بلدنا خلال ما أسموه حب، ولم تكن هناك حاجة لذكر انتهاء الحياة المهنية لتلك النساء بصورة مهينة وبعضهن يقضي عقوبات سجن خلف قضبان السجون الفيدرالية.

وأدركت من البداية التفريق في المعاملة داخل الوكالة بين الرجال والنساء فقد كان الرجال أحرارا في مواعدة الأجنبيات وفعل ما يشاءون، وقال أحد الرجلين : لا حاجة لكتابة التقارير عن ممارسة الجنس مع العاهرات ما دمت لم تعاشر نفس المرأة أكثر من مرة، وأحسست من ظاهر هذا الكلام أن من حق الضابط الميداني ــ الرجل ــ أن يتردد على نفس بيت البغاء ويمارس الجنس دون أن يبلغ الوكالة بذلك ما دام يمارس الجنس كل مرة مع امرأة مختلفة.وكان الوضع مختلفا تمامًا بالنسبة للنساء، وأوضحت المرأة ذلك بتوجيه كلامها للسيدات الموجودات بالحجرة وقالت : لا يعني هذا أن تقوموا بالعلاقات بمنتهى الحرية مع المواطنين الأمريكيين لأنكم ينبغي أن

تحافظوا على سمعتكم والتأثير الذي يمكن أن تعكسه هذه السمعة على مجال عملكم. وكانت رسالة الوكالة واضحة : النساء أكثر عرضة للتملق والخداع والوقوع في شباك الأجانب محل الاشتباه، وأن المرأة تمثل خطرا أمنيا أكبر على الوكالة، وأن النساء ضعيفات.واستهجنت هذا التفريق في المعاملة بين الرجال والنساء، وكان عقلي يذهب بين الحين والآخر إلى ساشو، وكنت على يقين من أن ساشو ليس جاسوسا إلا أني كنت على يقين أيضًا من أنه مشتبه به ولذلك كان نادرًا ــ إن حدث أصلًا ــ ما أتحدث مع رؤسائي أو زملائي عن صديقي البلغاري، وأدركت أن إستراتيجية تقسيم حياتي على هذا النحو لن تدوم طويلًا.

* * * * *

كانت الوحدة 101 تضم الموظفين الجدد بالإدارات الأربعة بالوكالة ؛ الإدارة العامة، وإدارة العلوم والتكنولوجيا، وإدارة الاستخبارات، وإدارة العمليات. وتعرفنا نحن ضباط العمليات على موظفي الإدارات الأخرى وشكلنا رابطة بسرعة وتبادلنا الحكايات عن خلفياتنا المختلفة وكيف انتهى بنا المطاف في هذا المكان، وشبهنا اختبار كشف الكذب بأسوأ الكوابيس التي مرت علينا في حياتنا، وكنا آخر مجموعة من الموظفين التي تلتحق بوحدة التدريب السرية بفصل C.

وعلمنا أن باقي الملتحقين بالفصل C يعملون حاليًا بقيادة الوكالة وأنهم ينتظرون قدومنا حتى تكتمل المجوعة ونبدأ التدريب، وكنا نرى بقية المتدربين بمطعم الوكالة أو أثناء تحركنا في الردهات ونميزهم بسهولة من خلال سنهم الصغير وتحركهم في زهو وثقة، وعلى خلاف باقي موظفي الوكالة الذين كانوا أشبه بذكور النحل في تعاملاتهم لم يبد على باقي الملتحقين بالفصل C أنهم تأثروا بالمناخ العام للعمل بمكاتب الوكالة، وبدا عليهم بصورة ملحوظة النشاط الجم فقد كانوا على سبيل المثال الموظفين الوحيدين الذين يذهبون لصالة التمارين الرياضية بالوكالة.

ووصفنا باقي الملتحقين بالفصل C بـــ " الموجة الأخيرة " لأننا كان يتوجب علينا العمل لتسعة أشهر فقط قبل أن ننتقل للتدريب

بالمزرعة بينما كانوا يشعرون بالذبول والتراخي لاضطرارهم للقيام بالأعمال المكتبية لقرابة عام قبل وصولنا، ونظروا إلينا في فتور وتجمعوا حول دائرة مستديرة بمطعم الوكالة، وبعد فترة ذهب الجمود الذي كان يسود علاقاتنا ونشأت بيننا علاقات صداقة قوية وأصبح فصل C مجموعة مترابطة ومتماسكة.

وتلي فترة تدريبنا بالوحدة 101 أسبوعين من التدريب بإدارة العمليات من خلال وحدة التدريب السرية، ولاحقتني أول هواجسي بهذا المجال الذي اخترته.

وبدأت أدرك أن الروايات التي قرأتها عن الجاسوسية قبل التحاقي بالعمل بوكالة الاستخبارات المركزية كانت تعكس صورة مضللة تمجد هذه المهنة، وكنت لا أزال أعتقد ـ بطريقة أو أخرى ـ أن كوني جاسوسة سيعني سرقة أسرار الدول الأخرى وكسر الخزائن وتسلق حوائط المباني والهروب من خلال شبكات الأنفاق المجهولة لدرجة أني تساءلت عن الوقت الذي ستنفعني فيه مهاراتي في تسلق الجبال واستخدام الحبال، وكان أهم ما فكرت فيه أن الشخص الذي سأعرضه دومًا للخطر هو أنا.وكانت الحقيقة بالطبع أمرا مختلفا تمامًا عن الروايات.

شرح لنا المدربون في اليوم الأول من تواجدنا بإدارة العمليات طبيعة العمل فأخبرونا بأن هدفنا الأول في الحياة طوال وجودنا

بهذه الإدارة هو تحديد وتقييم وتطوير وتوظيف الجواسيس الأجانب وهؤلاء " العملاء " أو " الأصول " ـــ كما يسمون في لغة الوكالة ـــ سيبيعون لنا أسماء ضباط عملياتهم وأسرارهم. وتعلمنا تصنيف المعلومات حتى لا تقود بأي حال من الأحوال إلى معرفة الضابط الميداني إذا ساءت الأحوال بأن ألقي القبض على العميل أو الضابط الميداني، وفي هذه الحالة يتم إعادة الضابط الميداني للبلاد مع وضع ملاحظة سلبية بملفه الوظيفي تؤثر على عمله المستقبلي نوعًا ما بينما يلقى بالعميل في السجن لبقية حياته وربما يعدم، ولم نتناقش كثيرًا ـــ إن كنا تناقشنا أصلًا ـــ في المعايير الأخلاقية التي تتعلق بإقناع شخص بالتجسس على بلاده، فقد كان شعار العمل بإدارة العمليات هو ؛

" **اكذب وغش واسرق ؛ لكن لا تسمح بأن يقبض عليك** "وتعلمنا كيف نحدد الشخص الذي نعتقد إمكانية تعامله مع معلومات هامة وكيف نقيم معه علاقة وطيدة، وتعلمنا أيضًا البقاء متيقظين وبعيدين عن أي شيء قد يتسبب في سقوطنا في يد العدو مثل الإسراف في تناول الخمور.

وعلى خلاف ما هو شائع فإن عميل وكالة الاستخبارات المركزية ليس هو الموظف الفعلي لدى الوكالة بل الموظف الفعلي لدى الوكالة هو ذاك التعيس الذي جند من قبل ضابط

ميداني بالوكالة للتجسس على بلاده لصالح الولايات المتحدة مقابل الحصول على المال في أغلب الحالات. وتسمى عملية تحديد وتقييم وتطوير وتوظيف الجواسيس الأجانب " دائرة التوظيف ".وبمجرد تحديدنا لشخص يتمتع بإمكانية الوصول لمعلومات سرية والتأكد من احتمالية تجنيده يفترض بنا أن نلعب على نقاط ضعفه وأن نطرح حلول ربما تتمكن " مؤسستنا " من تقديمها.وإذا كان الهدف أو من نسميه بـــ " العميل المحتمل " يرغب على سبيل المثال في أن يرسل ابنه للتعلم بمدرسة بالولايات المتحدة فإن بإمكاننا أن نعرض عليه أن نرتب له هذا وأن ندفع له كافة التكاليف، ولو أن ابنة الهدف تموت بسبب مرض نادر فمن الممكن أن نوفر العلاج، ولا يبدو هذا بالطبع شيئًا سيئًا، لكن إذا رفض الهدف أن يكون عميلًا ففي هذه الحالة يتم سحب العرض فورًا، أما إذا قبل ثم عاد بعد ذلك وقرر أنه لا يقدر على المخاطرة بارتكاب جريمة الخيانة العظمى، أو قدم معلومات تافهة لا تفيد الوكالة فيجب أن نوقف فورًا كافة الاتصالات به وأن نقطع المساعدة التي كنا نقدمها له.وإذا كان الهدف المحتمل منيع وغير قابل للسقوط في أيدينا فينبغي في هذه الحالة أن نقدم له الخمور والأطعمة الفاخرة بأرقى المطاعم وأن نغريه بالخمور وبمظاهر الحياة المرفهة فإذا تجاوب مع

هذه الأساليب فمن الممكن تجنيده.
وكان مدربنا يقول لنا مرارًا وتكرارًا : لكل شخص حلم كبير، ومهمتكم أن تكتشفوا هذا الحلم.
وعلمنا أن التقدم في عملنا يعتمد في المقام الأول على عدد العملاء الذين جندناهم وفي نفس الوقت فإن العملاء الذين يصعب الحصول عليهم كالروس والكوريين الشماليين والصينيين يتم اعتبارهم مثل بقية العملاء الآخرين أي أن الكم أهم من الكيف، وأن أبطال الوكالة الأسطوريين هم الذين يحققون أرقامًا قياسية في عدد المجندين.
وبدأت أشعر ببعض الأفكار الغريبة فلم أكن من النوع الذي يتلذذ بإيقاع الآخرين في المتاعب خصوصًا الأشخاص الذين يمرون بأوضاع صعبة، ولم أستسغ فكرة إدعاء صداقة شخص ما من أجل استخدامه للترقي في سلمي الوظيفي، ولم أسترح على وجه الخصوص لفكرة تعريض شخص ما للخطر بأن أطلب منه أن يقوم بفعل شيء لا يمكنني القيام به أبدًا كخيانة وطني.وقدم لنا قدامى الضباط الميدانيين آلاف التبريرات مثل " إننا نقدم معروفًا لهؤلاء الناس، إنهم يرغبون في العمل لصالحنا ويحتاجون إلى المال لتحسين ظروفهم المعيشية، والعديد منهم يعيش في ظل نظم حكم استبدادية وخيانتهم لهذه النظم شجاعة

وإيجابية ".وبدأت أتفهم وجهة نظر قدامى الضباط الميدانيين وأصبح من السهل على فهم سبب احتياجنا لتوظيف عملاء أجانب، ولم أتوقع مَن الجاسوسية إلا أن تكون عمل قذر وأحسست بقيمي ومبادئي تشوش ووجدت نفسي أنجرف في هذا التيار، وبعد أن انتهت فترة تدريبنا بإدارة العمليات حددت لنا مكاتب للقيام بأعمالنا الأولى مؤقتًا.

واندمجت في عالم غريب علي لأني كنت معتادة قبل ذلك على أن أكون إنسانة منفتحة واجتماعية، والآن لم يعد أصدقائي في الخارج يعرفون أين أعمل وأصبحت حواراتي معهم أكثر تكلفًا وغريبة ولم أجد أحدًا داخل الوكالة يمكنني أن أثق به خصوصًا وأن المنافسة بين المتدربين أصبحت شديدة الضراوة، وتكالبت علينا مشاعر الطموح والاستقلالية ووحدة الهدف كل هذا بالإضافة إلى عدم القدرة على الاعتماد أو الثقة في أحد غير النفس وكل هذه الصفات لازمة للجاسوس في عمله حتى يصبح ناجحًا، ومن التهور الثقة بأي أحد داخل الوكالة.

واعتدت من فترة لأخرى أن أثير التساؤلات مع زملائي في الفصل عن مدى أخلاقية إيقاع الأجانب في الفخ للتجسس لصالح الولايات المتحدة، ولم أتلقى إلا نظرات خالية من أي معنى أو نظرات تشكك، وفي ذات مرة قال لي أحد الزملاء : لو كانت

هذه مشاعرك ما كان ينبغي لك أن تكوني هنا.وفكرت في أنه ربما كان محقًا، وكنت في هذا الوقت أرغب في عمل شيء مفيد لبلدي من خلال وجودي بوكالة الاستخبارات المركزية، وبدأت أتخلى عن مثالياتي وأن أتقبل المسائل التي لم تكن دائمًا محسومة، أو أفعل الأشياء التي لم أكن أشعر نحوها بالراحة النفسية.وباختصار، لم أجد شخصًا أثق فيه لأناقش معه الأمور التي تقلقني فأزحت مخاوفي جانبًا، ونتيجة لذلك بدأت أفقد إحساسي بنفسي، وبدأت أتغير.

* * * * *

وفي هذه الأثناء بدأت أقلق وأفكر في التصرف الأمثل مع ساشو الذي لم يبق على موعد وصوله إلا أسابيع قليلة، وعلمت من خلال المحاضرات الأمنية التي لا تنتهي أنه بالإضافة للقيود الكثيرة المتعلقة بمواعدة الأجانب فإنه يجب علي الحصول على تصريح خاص لو كان الأجنبي سيقيم معي لأكثر من ثمانية أيام متواصلة، وخصوصًا إن لم يكن لديه قيود تربطه بالوطن فكتبت مذكرة لمكتب الأمن أطلب الإذن بالسماح لصديقي البلغاري ساشو تودوروف بأن يأتي لزيارتي والبقاء معي لأسبوعين أو ثلاثة، ولم أكن أعرف ــ في الحقيقة ــ الفترة التي ينوي بقاءها.وفكرت أن أحدثه في الزواج لأتجنب احتمالية إبعاده لكني ترددت لعدة أسباب ولم يكن أخطرها احتمالية تعريض ساشو مجال عملي الجديد للخطر.

وتنص لوائح وكالة الاستخبارات المركزية أنه في حالة رغبة أحد الضباط في الزواج من أجنبي ــ بعد الحصول على إذن الوكالة بطبيعة الحال ــ فإن هذا الأجنبي سيحصل على الجنسية الأمريكية ويعني هذا بقاء الزوجان داخل الولايات المتحدة لمدة خمس سنوات على الأقل، ويعني البقاء داخل الولايات المتحدة نصف عقد بالنسبة لضابط المخابرات الميداني قتلًا لمجاله المهني، وعلاوة على ذلك فإن الأجنبي مطالب قبل الزواج

بالتعرض لجهاز كشف الكذب والتحري عنه من قبل الاستخبارات تحريات دقيقة جدًا وفي هذه الأثناء يحظر على ضابط الاستخبارات أن يخبر الطرف الأجنبي بحقيقة مهنته قبل التعرض لجهاز كشف الكذب، ويمكنك أن تتخيل مشاعر الشخص الذي ظللت تكذب عليه طوال فترة العلاقة ثم تأتي بعد ذلك لتضع المزيد من الملح على الجرح وتطلب منه بعد أن خدعته مرارًا وتكرارًا بأن يقوم باختبار كشف الكذب.

وليس غريبًا أن أغلب الضباط الميدانيين يتجاهلون هذه التعليمات دائمًا، وقد كان كل الضباط الميدانيين والمتدربين الذين أعرفهم ممن كانوا يواعدون أجانب أطلعوهم على حقيقة عملهم بالاستخبارات قبل إبلاغ مكتب الأمن بالوكالة وبرروا هذا بطريقة مهذبة على أنه " تتبع دقيق " لاقتناص الأجنبيات في المقام الأول.وعلى الرغم من أني أرسلت طلب الموافقة على زيارة ساشو قبل وصوله بأسابيع إلا أن الرد لم يأتني حتى أيام قلائل من موعد وصوله، وأخبرني مكتب الأمن أن الطلب يتداول بعدد من المكاتب وقال لي أحد ضباط مكتب الأمن بعدم اكتراث " ربما تمر شهور قبل أن يأتيك أي رد، هذا إن أتاك رد أصلًا. "قلت : ولو أني سمحت له بالبقاء معي دون إذنكم فهل سيعتبر هذا تجاوز أمني ؟ !

قال : طبعًا، ولا أخفي عنك أن هذا سيعتبر مخالفة جسيمة.وسخطت على محاولتي الشجاعة لاتباع القوانين وأحسست أن هؤلاء الموظفين البيروقراطيين يستمتعون بوضع العراقيل.

وأخيرًا اتصل بي ضابط أمن قبل وصول ساشو بيوم واحد وطلب مني الذهاب إلى مكتبه، واهتم هذا الضابط بطلبي لأنه لاحظ ــ الآن فقط ــ أني كتبت بالصفحة الأولى من المذكرة أن أبا ساشو يعيش بليبيا.

واستقبلني ضابط الأمن بملامح صارمة مثل محققي الجرائم وسألني : ما الذي يفعله بليبيا ؟

قلت : والده جراح، لكنه لا يكسب قدرا كافيا من النقود ببلغاريا لذلك سافر لليبيا للعمل.

قال : لماذا ليبيا تحديدًا ؟

قلت : أظن لأن هناك جالية بلغارية كبيرة.

قال : حسنًا، هذا الوضع غير مطمئن.

قلت : إنه ليس ليبي.

قال : لا يغير هذا شيئا من الوضع.

وتركني الضابط وأنا أعاني من احتمالية رفض طلبي، وعدت للمنزل وأنا أتساءل عما ينبغي أن أفعله، هل أستقيل ؟هل أطلب

من ساشو ألا يحضر ؟ إنه بالفعل أنفق كل الأموال التي ادخرها من عمله لشراء تذكرة الطائرة، ولم أتمكن من النوم تلك الليلة من شدة الكرب الذي ألم بي لعدم تمكني من الاهتداء للتصرف الأمثل وأنا أشعر أن هذه المشكلة هي بداية المآسي.

وقررت تجاهل هذا الموقف تمامًا والسماح لساشو بالإقامة معي، وأتت الموافقة بعد أشهر من إقامة ساشو وانصرافه، والأسوأ من هذا أن مكتب الأمن أخطأ في كتابة اسم والد ساشو وتحرى عن شخص آخر يدعي ساشو بودوروف ــ بدل تودوروف ــ وسمح لأجنبي ليس له وجود بالبقاء معي لفترة لا تزيد على عشرة أيام متتالية اوجاءني الرد على المذكرة مكتوب فيه ما يلي :

" **تحرينا عن صديق الموظفة وكافة أقاربه ولم نجد أي معلومات متعلقة به تثير الشكوك.** "

واختلطت مشاعري أثناء وجود ساشو معي ما بين البهجة والحزن، وقضيت معه قرابة الشهر وتسلقنا في العطلات الأسبوعية مرتفعات غرب فيرجينيا، ووجدت ترفيها مؤقتا في تخطي صعاب الصخور وفي مشاهدة لمعان الشمس على صفحة المياه بالنهر الذي ألقينا أنفسنا فيه بتهور من على ارتفاعات عالية، وكان وجود ساشو معي في هذا الوقت مؤشر لي على التحول الذي طرأ علي وذكرني ببلغاريا الهادئة وبصيفها

الممتع، وعندما أصبحت غاضبة وسريعة الانفعال حاول أن يهدئني، ولم تكنِ لدي القدرة على التحدث في الموضوع الذي يؤلب فكري ولم أعد أعرف ما الخطأ وما الصواب، وكان الكذب المتكرر يسحقني تمامًا.

وكان ساشو يعلم أني أعمل بـــ " إحدى الوكالات الحكومية " في واشنطن العاصمة، وعندما كان يحاول أن يصحبني في طريقي للعمل كنت أراوغ وألتمس الأعذار يومًا تلو الآخر ؛

" سأذهب إلى فرجينيا أولًا لأشتري بعض الحفاضات ".

" اليوم دوري لشراء الكعك للمكتب من عند كرسبي كريم ".

" البنزين أرخص في محطة لانجلي القريبة من فيرجينيا ".

ولابد أن ساشو ظن أن واشنطن العاصمة مدينة بغيضة بشدة حيث لا يوجد بها مكان لشراء الحفاضات أو الكعك أو البنزين بأسعار معقولة.

وأحسست في نهاية المطاف باستحالة استمرار علاقتي بساشو فقد جعلني الكذب المستمر سريعة الغضب وجعل هذا السلوك ساشو يتمزق من شدة الحزن، وأحسست دومًا بالذنب وانعكس هذا الإِحساس بالذنب في صورة غضب ونوبات صراخ، وأعتقد أن ساشو احتفظ بحزنه في صدره.

وعندما أتى يوم أخبرت فيه ساشو بأنه ينبغي عليه العودة إلى

سان فرانسيسكو لم يكن من الصعب إقناعه أن هذا هو التصرف الأنسب، ولن أنسى أبدًا عيناه وهما يتفحصاني وقد اغرورقا بالدموع، وعندما ودعنا بعض بالمطار قال لي بنبرة حزينة بها همسة سخرية : " أتمني لك التوفيق في وظيفتك. "

وأدركت أنه علم في قرارة نفسه أن عملي استغرقني ولابد أنه نظر له على أنه عمل مهين وسخيف.

وظللت لأيام تالية أتعذب من التفكير فيما إذا كان قراري صائب أم لا، وبالطبع لم يكن أحد بالوكالة يفهمني، أو يجعلني أبتسم، أو لمس روحي كما فعل ساشو، وكنت على يقين من أن لا أحد يهتم بي قدر اهتمامه ــ إن كان هناك من يهتم بي من الأساس ــ.

وأخرجت ساشو من حياتي ولم أستقيل من المخابرات على الرغم من كل الآلام التي مررت بها، بالإضافة إلى تمتعي بكل الفرص التي تسمح لي ببدء الحياة خارج الوكالة ؛ فقد كنت شابة وأحمل شهادة من جامعة هارفارد ومنحة فولبرايت متاحة لي ويمكنني العودة للتدريس الذي أحببته أو إلى مدرسة بركلي للقانون التي أجلت الالتحاق بها لعامين بسبب التحاقي بوكالة الاستخبارات المركزية. والسبب في كل هذا بسيط جدًا وهو تلك الحكة التي لم تشف بعد والتي تدفعني لرؤية الوكالة من الداخل

بصورة كلية.

لقد أردت أن أنهي تدريبي وأن أعيش خارج البلاد، ولا زلت أرغب في أن أصبح جاسوسة، وأردت أن أكون قادرة على أن ألتفت وأقول ــ ولو لنفسي ــ " لقد فعلت ذلك "، وعلاوة على ذلك فقد كنت على يقين من أن الوكالة تحتاج أشخاصًا على شاكلتي أذكياء ونشيطين ولديهم القدرة على نفض الغبار الذي تراكم على هذه المؤسسة الضخمة، ويمكنهم أن يحققوا إنجازًا كبيرًا، وأيقنت أن كل الأشياء التي ضايقتني بالوكالة يمكن أن تتغير لو أن المسؤولية وضعت على عاتق أناس أذكياء ويفكرون بمنطق، وربما أكون يومًا ما من هؤلاء الأشخاص. ولذلك قررت الاستمرار حتى ولو عنى ذلك السباحة ضد التيار فلابد وأن أضع قوانيني الخاصة وأحافظ على أخلاقياتي وألا أدع روحي تخمد.

وكنت أردد هذه الكلمات لنفسي كل صباح وأنا أرتدي ملابسي وأربط شعري، وأرددها أيضًا وأنا أقود سيارتي يوميًا للعمل محاولة ألا أحيد عن طريقي وأنا أبحث بجيبي عن تلك الشارة الصغيرة الزرقاء.

* * * * *

الفصل الثالث

وصلت منهاتن بعد أسبوع من العمل الرتيب بقيادة الاستخبارات المركزية وكنت قد أخذت ليلة أمس قطار الساعة السادسة الذي يتحرك من واشنطن ليصل لمحطة بن في تمام العاشرة مساءًا، وأتيح لي وقتا كافيا للذهاب لشقة إيما وإميلي أعز صديقاتي وتغيير بدلتي الزرقاء بأخرى ملائمة من خزانة ملابس إميلي والخروج للمدينة قبل منتصف الليل.

وذهبنا في اليوم التالي بعد الظهيرة لإشباع جوعنا بطعام دسم وتوجهنا لتدليك أجسادنا بالحي الصيني، وتسكعنا حتى منتصف الليل ثم توجهنا لحفلة بمنهاتن في شقة على سطح أحد المنازل لشخص يدعى تاكر وكان الجميع ينادونه باسم سراش.

ونظر لي سراش بريبة وكأني ضابط شرطة متخفية وكنت على يقين من أنه المورد الرئيسي الذي يمد إيما وإميلي بالمخدرات، وبعد قليل لم أجدهما بجواري ولم أعرف أين ذهبتا وإن كنت أعتقد أنهما ذهبتا إلى الطابق العلوي مع الآخرين، ووقفت بأحد الأركان وأنا ضامة يداي إلى صدري متحجرة كالعامود وأشعر أني بلهاء والجميع من حولي يتبادلون الغرام.

ولم تكن إيما ولا إميلي يعرفان طبيعة عملي، إلا أنهما كانتا تعرفان أني توقفت تمامًا عن تعاطي المخدرات منذ بدء عملي

بواشنطن، ولم تتضايق الفتاتان من صرامتي فقد كان من الملائم وجود شخص واحد على الأقل متيقظ في الحفلة، لكنهما ربما تساءلا مثل سراش عما إذا كنت حقًا ضابط شرطة متخفية.

وكنت قد تعرفت على إيما وإميلي فيما نسميه بـــ " حفلات الاتصال البلغاري "، وعرفت عن إيما أنها فتاة أمريكية من أصل بلغاري وصلت لصوفيا عاصمة بلغاريا في بداية التسعينات في نفس الوقت الذي وصلت فيه، وكان والداها فنانان هربا من النظام البلغاري القمعي إلى الولايات المتحدة منذ عشرين عامًا وعادوا إلى بلدهم بعد انهيار الإتحاد السوفيتي بقليل ليقطنوا بفيلا خارج مدينة صوفيا ويعطوا إيما فكرة عن أصولها البلقانية.

أما إميلي فكانت تعيش في صوفيا مع زوجها النحيف الذي كان يتقاضى راتبا ضئيلا مقابل مساعدة الشيوعيين البلغاريين السابقين على التحول إلى الرأسمالية، واستغلت إميلي أيام الفراغ التي قضتها بصوفيا في كتابة رواية أعطتها قدرًا من الشهرة، وانفصلت بعد ذلك عن زوجها وأصبحت أنا وإيما وإميلي ثلاثي لا ينفصل عن بعضه، واعتدنا على أن نتقابل شبه يومي بمطعم النادي الروسي ـــ الذي ظل تذكارًا للحرب الباردة ـــ لتناول الويسكي والكولا وفطائر البيتزا ثم نذهب لصالات الديسكو

البلغارية ونقضي بها بقية ساعات الليل.
وانتقلت الفتاتان من بلغاريا إلى نيويورك تقريبًا في نفس الوقت الذي بدأت فيه إجراءات الالتحاق بوكالة الاستخبارات المركزية، وتعمل إيما حاليًا في مجال إنتاج الأفلام بينما تعمل إميلي بإحدى دور النشر، وينهمكان في عملهما بجد شديد طوال الأسبوع ثم ينتقلوا للانغماس في المتع في عطلات نهاية الأسبوع.وأحاول جاهدة في هذه الفترة أن أستمتع بكل عطلاتي الأسبوعية قدر الإمكان لعلمي بأن جدول تدريبي سيزدحم في الفترة القادمة ولن يسمح لي بالذهاب لأي مكان، وعلى الرغم من أني كنت أتهرب من إجابة الأسئلة التي تتعلق بعملي إلا أن الفتاتان لم تكونا تدركان مدى أهميتهم بالنسبة لي فقد كانتا الرابط الذي يجعلني متصلة بالعالم الخارجي أثناء إبحاري في عالم الوكالة الغريب.
وكانت الفتاتان تذكراني بالوقت الذي لم أكن ملزمة فيه بكتابة تقارير عن كل شيء أفعله، وبالأيام التي لم أحتاج فيها تصريحًا للسفر أو للحديث مع أجنبي، وبالزمان الذي كان بإمكاني فيه أن أتخذ القرارات الخاصة بي، وبالماضي الذي لم أشعر فيه بالوحدة الكئيبة.
وعلا ضجيج الحفلة بشكل غير عادي وكأنه هدير، وأزعجني

صوت ضجيج الموسيقى الذي يكاد يدمر السماعات فانتقلت من حجرة المعيشة المكتظة بالناس إلى المطبخ خافت الإضاءة فوجدت سراش يقطع رغيفًا فانزعج لرؤيتي وانحنى على ما كان يقطعه وكأنه طالب يخفي ورقة الإجابة عمن بجواره حتى لا يغش منه فقلت له وأنا أعود أدراجي إلى غرفة المعيشة : معذرة، كنت أبحث عن صديقتاي.

ووجدت بعد ذلك إيما وإميلي أمام باب دورة المياه تضحكان بصوت عالي وبهستيرية فسألتهما : ما الأمر المضحك ؟

ووضعت إميلي ذراعها على كتفي واحتضنتني إيما من الجانب الآخر، وقالت إميلي وسط نوبات الضحك : لا شيء، كل ما في الأمر أن سراش مرتاب تمامًا، ويعتقد أنك ستخرجين شارة ما فجأة وتعتقلين كل من بالمكان.

ولم أجد ما أقوله أو أفعله إلا الانخراط معهم في الضحك، وعلى الرغم من أن الفتاتان كانتا شبه غائبتان عن الوعي إلا أني أحسست منهم بالحماية في هذه الحفلة الغريبة، وضحكت عندما تذكرت ما يمكن أن يفكر فيه ضباط مكتب الأمن بالوكالة تجاه مثل هذا السلوك، وكانت هذه اللحظة من اللحظات التي جعلتني أدرك مدى الغرابة التي حلت بحياتي.

* * * * *

منعني أكثر من سبب عن التوقف وترك الوكالة عندما بدأت الشكوك تساورني، فقد جعلتنا الوكالة نشعر من البداية كما ولو أننا ليس بإمكاننا الرحيل، أو على الأقل ليس الرحيل اختياريًا، فقد وقعنا على اتفاقيات سرية تعطي الوكالة صلاحيات واسعة في اتخاذ الإجراءات ضدنا، وقال لنا ضباط مكتب الأمن بمنتهى السرور : سنتعقبكم.

وقالت امرأة ضخمة ترتدي بذلة رسمية وتقف خلف منصة تضع قبضتاها الضخمتان على سطحها : لقد فعلنا هذا في الماضي وسنفعله مرة أخرى، وأعتقد أن الشخص الذي يحاول أن يستخف بالوكالة يرتكب أشد الحماقات وأفظعها، ولا تفكروا في وضع خبرتكم بالعمل بالوكالة في سيرتكم الذاتية فليست هذه مؤسسة أعمال تجارية، وسننكر أي معرفة بكم في حالة تلقي اتصال من أرباب أعمالكم.

وتخيلت نفسي في إحدى المقابلات الشخصية أقول للذي يجري معي المقابلة : " نعم، يمكنني أن أفسر لك يا سيدي العامين الذين لم أتطرق لذكرهما بالسيرة الذاتية لكنني سأضطر لقتلك أولًا. "

وبدأت أشعر أن خياراتي خارج الوكالة تتضاءل رويدًا رويدًا، وأنه ربما كان أفضل شيء يمكنني فعله هو الاستمرار في هذا المجال.

وبعيدًا عن محاولة الوكالة زرع الخوف في قلوبنا تلقينا خدعة جديدة ؛ فقد وعدنا من قبل الوكالة بالسفر خارج الولايات المتحدة خلال عام في عطلة نقضيها بمنازل أكثر رفاهية من تلك التي يستخدمها موظفي البيت الأبيض مع تأمين السرية التامة، وبغض النظر عن كل هذا فإن الإقامة المرفهة لضباط وكالة الاستخبارات المركزية بالخارج والتي تشبه أماكن إقامة نظرائهم من موظفي الرئاسة تمثل كشفًا لغطاء ضباط الوكالة وتمكن السكان المحليين من تحديدنا بمنتهى السهولة.

وأخبرنا مسئولو الوكالة أننا ستتاح لنا كافة التسهيلات للقيام بأعمال تجارية بكل مكان نذهب إليه، وبالإضافة لذلك فإننا سنحصل على بدل مخاطر في حالة العمل في الأماكن التي يمثل العمل فيها خطورة عالية، وصدمت عندما علمت أن صوفيا عاصمة بلغاريا ـــ التي أعرف تمامًا أنها بلدة مريحة وأنها مكان ملائم للمواطن العالمي ـــ تصنف على أنها منطقة عالية المخاطر وأن ضباط الوكالة الذين يعينون بها يتلقون أكبر راتب على الإطلاق.

وكانت المفاجأة عدم وجود أماكن شاغرة بالبلقان، ولم أكن التحقت بالوكالة لأعمل بلندن أو باريس ؛ بل على العكس من ذلك كنت مفتونة بالعمل في المناطق النائية كالمقاطعات الجنوبية

ببلغاريا، وحسبت أني لو عملت بإحدى هذه المقاطعات البائسة لدورتين فإن بإمكاني أن أسدد قرض دراستي الجامعية في أقل من خمس سنوات.

وكان أحد إغراءات الوكالة التي جعلتني أفضل البقاء ؛ إستراتيجية التدريب في حد ذاتها التي تقضي بالعمل في ثلاث مهام لثلاث شهور بثلاث إدارات مختلفة، ويلي ذلك الانتقال لتلقي تدريبات عسكرية وتعلم القفز من الطائرات، وأحسست أني على وشك القيام بالمغامرات المثيرة لذلك أزحت الأفكار المقلقة جانبًا وتطلعت للأيام الأفضل القادمة.

كلفت في المهمة الأولى بالعمل بالقسم المركزي لمنطقة الأورو ــ آسيوي، وكانت المفاجأة التي أذهلتني بعد أسبوع من العمل عدم وجود ضابط مسئول عن مكتب كازاخستان لعدة شهور، ونتيجة لذلك فإن كافة المراسلات التي أرسلها ضباطنا بكازاخ[1] والماتى[2] تم تجاهلها تمامًا.

وقرر رئيس وكالة الاستخبارات المركزية بالماتي استغلال فرصة وجودي بمكتب كازاخستان بالإدارة العامة واقترح ترتيب رحلة لنظرائنا من ضباط الاستخبارات الموجودين بكازاخستان،

---

[1] عاصمة كازاخستان .

[2] أكبر مدن كازاخستان بعد العاصمة كازاخ

وكلفت بترتيب إِجراءات زيارتهم وحجز الفنادق ووضع البرنامج الترفيهي الخاص بهم وأهم ما فيه الحانات التي سيقضون بها سهراتهم.

ولم يتوجب علي مقابلة أي من الكازاخيين وجهًا لوجه حفاظًا على سرية شخصيتي ؛ فامتننت لهذا كثيرًا لأنه بدا من صورهم أنهم أشبه بعصابة من السفاحين، وأرسل لي الكازاخيين عشرة دولارات لأشتري لهم هدايا تذكارية من متجر الوكالة فاشتريت لهم عشرات من المكعبات الزجاجية والأقلام التي تحمل شعار وكالة الاستخبارات المركزية.

وكان الترتيب للزيارة عملًا مضنيًا وليس فيه أي متعة فلم يشغلني إِلا حجز الفنادق وأماكن العشاء والحافلات التي ستصحبهم أثناء برنامج الزيارة ومعرفة مواعيد عمل المتاجر التي سيقصدونها، وتأمين أنشطة مضللة لزوجات الكازاخيين لإِبعادهم عن أزواجهم في الأوقات التي سيقضونها بالحانات التي تمارس فيها الفحشاء، وأحسست أني أتأرجح ما بين شخصية فتاة محترمة وأخرى قوادة.

وبعد انتهاء الرحلة أرسل رئيس استخباراتنا بالماتي بريدا إليكترونيا لرئيسي بالإِدارة الرئيسية يمتدح فيه مجهوداتي وأخبره أن الكازاخيين سكروا وأكلوا الكثير من شرائح اللحم

واستمتعوا برقصات الحانات بينما كانت زوجاتهم تستمتع بمياه الحمامات الدافئة وبأكوام الملابس التي اشترينها.

وكتب رئيس الوكالة بكازاخستان قائلًا : " كانت الرحلة ناجحة بصورة تفوق الوصف لعدم إغفال متدربتك لأي جزء من التفاصيل، وأتنبأ لها بمستقبل واعد بمنظمتنا. "

* * * * *

وكانت مهمتي الثانية هي العمل كضابط تقارير مختصة بما يتعلق بدول البلقان، وكانت الأولوية في هذا الوقت لما يتعلق بالسياسة الخارجية لدول البلقان، وكانت مهمتي تتعلق تحديدًا بجمهورية مقدونيا اليوغسلافية
(سابقًا) التي كانت دولة صغيرة مجاورة لبلغاريا التي أحبها، ولم أزر مقدونيا أبدًا طوال العامين الّذين قضيتهما ببلغاريا على الرغم من أنها كانت بلدة تستحوذ كثيرًا على تفكيري لتمتعها بالبحيرة الأسطورية أوهريد أكبر وأعمق بحيرات البلقان التي ينبع ماءها الأسود من أكثر المقاطعات انخفاضًا بألبانيا.
وكانت مقدونيا في هذا الوقت الجمهورية اليوغسلافية الوحيدة التي لم تندلع بها حروب أهلية أو يحدث فيها تطهير عرقي على الرغم من أن الكثير من سكانها مسلمون ألبان والغالبية العظمى من السكان سلافيين أرثوذكس، وبدا لي هذا أمرًا غريبًا في هذا الجزء من العالم غير المتناغم مع بعضه.
وكانت مهمتي كضابط تقارير هي أن أمحو من الأخبار التي تردنا من سكوبجي عاصمة مقدونيا أي معلومات تقود إلى مصدر الخبر، وبعد هذا ينزع عن المعلومات صفة (سري للغاية) وترسل لمحللي إدارة الاستخبارات لمطابقة هذه المعلومات بالمعلومات الأخرى التي لديهم، وأحيانًا ما يتم إعادة

صياغة بعض التقارير لترسل إلى بعض أعضاء الكونجرس في أوقات معينة، وعلى الرغم من أن عملي بالمهمة الثانية لم يكن مثيرا إلا أنه كان أفضل من حجز حانات البغاء.

* * * * *

اعتاد أعضاء فصلي التدريبي على التقابل باستمرار بمطعم الوكالة، ولم نكن رابطة بالمعنى المفهوم لهذه الكلمة، بل كنا عبارة عن خليط من العسكريين السابقين والقليل جدًا من الأكاديميين ؛ فلم تعد الوكالة كسابق عهدها امتدادا طبيعيا للحياة الأكاديمية ولم يكن هناك إلا شاب واحد متخرج من جامعة يايل وآخر من جامعة هارفارد يدعى وارن.

وكان وارن يسبقني بالعمل في الوكالة بعام وعلى الرغم من ذلك لم نتقابل كثيرًا، ودرس وارن القانون بهارفارد واشتهر بادعائه أنه ترك مرتبا من ستة أرقام بشركة محاماة بلندن من أجل الالتحاق بالوكالة ولم يكن مؤهلًا للعمل بالوكالة بصورة واضحة جدًا، وليس هذا لانخفاض مستوى ذكائه بل إنه كان ذكيا جدًا ويتحدث نصف دستة من اللغات الأجنبية بطلاقة، وإنما كان هذا بسبب تبلد مشاعره تمامًا ؛ ولسوء الحظ كانت هذه ميزة رائعة في الضابط الميداني.

وبغض النظر عن ميله للمبالغة في إظهار ردود أفعاله أو التذمر من القيام بالمهام البسيطة وتدريبات المحاكاة الأساسية فقد كان دائمًا ما يحضر للفصل متأخرًا، ويفوت مواعيد كاملة، ويغفو تقريبًا في كل المحاضرات، والأسوأ من هذا أنه كان يكشف غطاءنا في بعض الاجتماعات العامة.

ودعانا وارن ذات مرة لحفلة أقامها، ودعا لهذه الحفلة بالإضافة إلى متدربي فصلنا عددًا هائلًا من الأجنبيات تعرف على أغلبهم بصالات المطار، ووقف أغلب مجموعتنا في صمت كئيب بينما وارن يعرفنا بضيوفه على نحو صاخب ويشوه أسماءنا الحقيقية بخلطها بمواقع عملنا داخل الوكالة ثم يتدارك خطأه ويضرب جبهته بيده مقلدًا هومر سيمبسون.

ولم أدري السبب الذي جعلني أحب وارن والأشخاص القليلين الذين أضافوا روحًا لفصلنا الكئيب، وكان وارن الشاب خريج يايل رجلا مقاوما عنده العديد من الحكايات عن فترة وجوده بأدغال أفريقيا للقيام بأبحاث الدكتوراه وقيادة فرق راكبي دراجات من طلاب الثانوية العامة أثناء رحلاتهم، وكان وارن طويلا أبيض تعكس ملامحه طبيعته الأكاديمية، وأحيانًا ما كان يتحدث بإحدى اللهجات الأفريقية المحلية ولم يكن أحد يعرف ما إذا كان يتحدثها فعلًا أم أنه يدعي ذلك، وأحببت سخرية روب ضابط الشرطة السابق بلويزيانا وتسميته لي بـــ " آنسة هارفارد الصغيرة " وكان يتمتع بروح فكاهة عالية جعلتني ألجأ للحديث معه لأضحك حتى أتمكن من التغلب على الكآبة الجاثمة على المكان.أما الغالبية العظمى من زملائي فكانوا عبارة عن خليط من الأشخاص المشتركين في صفة واحدة وهي الغطرسة التي

لا حدود لها، ولم يكن هذا غريبًا بسبب اعتياد موظفي الوكالة على التمييز في المعاملة بين الضباط الميدانيين وغيرهم من الإدارات الأخرى، ونظرتهم للضباط الميدانيين على أنهم الصفوة وظل الجميع يذكرنا يوميًا بأننا " الأفضل والأذكى "، وسخرت في نفسي من هذه الطريقة في التفكير لأني درست بهارفارد بين العباقرة والنوابغ، وعرفت حدود إمكانيات ومواهب مجموعة التدريب التي كنت بها ؛ لذلك كنت على يقين من أن تصنيف المسئولين بوكالة الاستخبارات المركزية لنا على أننا " الأفضل والأذكى " محض هراء.

وعاملنا مسئولو وحدة التدريب السرية كالأطفال المدللين واهتموا بإطعامنا وراحتنا ؛ حتى إننا حين كنا نقوم بالأعمال التافهة كانوا يقنعوننا بأننا نساهم في مهمة كبيرة جدًا، وربما كان هذا أحد الأسباب التي جعلتني أستمر في العمل بالوكالة.

* * * * *

اهتممنا أثناء فترة التدريب اهتمامًا كبيرًا بـــ " الغطاء " فاستخدم أغلبنا أسماء مستعارة ولم يعرف أحد منا اسم العائلة الحقيقي لأي من الأشخاص الآخرين، ولم نبح أبدًا لأي أحد بأية تفاصيل تتعلق بحياتنا خارج الوكالة.

وعلمنا خلال المحاضرات التي تلقيناها عن الاستخبارات المعادية ؛ خيانة كلًا من جيم نيكلسون Jim Nicholson والدريش أميس Aldrich Ames الضابطان الميدانيان اللذان عملا لصالح الروس ودمروا عددًا من عمليات الوكالة طوال عدد من السنوات، وباع أميس للسوفيت عددًا من العملاء الروس الذين كانوا يتجسسون لصالحنا وأعدمتهم المخابرات السوفيتية KGB الواحد تلو الآخر، أما نيكلسون الذي تم تجنيده من قبل الاستخبارات السوفيتية أثناء قيامه بالعمل كمدرب بالمزرعة فقد قام بإمداد المخابرات السوفيتية بقائمة بأسماء الضباط الجدد الذين يتم تدريبهم بالإضافة إلى قوائم بأسماء مسئولي وحدة التدريب السرية والضباط الشبان المقرر ذهابهم لموسكو، ونتيجة لذلك قامت الوكالة بزيادة رواتب المدربين بصورة كبيرة ولم يعد الآن مسموحًا للمدربين بمعرفة الأسماء الحقيقية الكاملة لطلابهم.

وأدت حالات الإخفاق الكثيرة التي تعرضت لها أعمال الوكالة

خلال أواخر الثمانينات وأوائل التسعينات بسبب خيانة نيكلسون وأميس إلى تدني الروح المعنوية للعاملين بالوكالة، واتخذت الوكالة إجراءات لزيادة صرامة المعايير الأمنية وتقسيم المعلومات لدرجة أن الضابط الميداني بإدارة العمليات لا يمكنه أن يطلع على معلومة إلا طبقًا لقواعد الحاجة للمعرفة.

ولسوء الحظ فإن هذه التعليمات لا تطبق على الرغم من صلاحيتها للتطبيق، وأغلب الموظفين ــ بمن فيهم أنا ــ يعرفون أكثر بكثير مما يحتاجون معرفته.

والأكثر سخرية أننا قيل لنا: إن الموظفين الذين يضعون شارة رمادية مثل عمال المطعم والحراس هم آخر من يحتاج للإطلاع على معلومات الوكالة ولذلك يرتدون زيا رسميا موحدا للتمييز بينهم وبين ضباط الوكالة، وكنت على يقين من أن هؤلاء الموظفين الذين يتجولون طوال النهار بردهات الإدارات المختلفة للوكالة ويقفون بها لفترات طويلة غير مدركين خطورة المؤسسة التي يعملون بها وسرية المعلومات التي تتداولها.

وكان من حق الموظفين والمحللين والعلماء والإداريين أن يخبروا أسرهم وأصدقاءهم أين يعملون على خلاف من سيصبحون في المستقبل ضباط ميدانيون ولذلك كنا شديدي الاهتمام فيما يتعلق بغطائنا، وأحسست بالإثارة عندما أخطأت

مجلة خريجي هارفارد في نقل البيانات التي أعطتها لها زميلتي في السكن أثناء الدراسة بأني أخطط للعمل في وزارة الخارجية فكتبت المجلة أني أخطط للعمل بالغابات، وكان البعد عن الحقيقة أفضل بكثير واستخدمت هويتي الجديدة كحارسة غابة.

ولم يكن أغلب سكان واشنطن العاصمة أغبياء فعندما كنت أحضر حفلًا وأسأل عن عملي وأجيب بأني أعمل " في الحكومة " كانت تأتيني الإجابة الفورية والثابتة : " آه، تعنين أنك تعملين بوكالة الاستخبارات المركزية.

وعلمنا أننا بتقدمنا في مجالنا يتآكل غطاءنا بصورة طبيعية.

وقال لي أحد رؤسائي الأوائل : يمكنك أن تحددي ضابط الوكالة في أي حفلة ؛ فدائمًا ما يكون هو الذي يقف بعيدًا عن الآخرين بينما يتجمع الحرس الرئاسي بأحد زوايا المكان.

وعلى الرغم من تأكدنا من أن غطاءنا واهٍ إلا أننا تمسكنا بالدفاع عنه بقوة في البداية، وتعودنا أثناء وجودنا بفصل وحدة التدريب السرية على التفكير الجماعي ونقصتنا القدرة على مناقشة أي أمور بعيدة عن عمل الوكالة.

وأقصينا أحد شباب مجموعتنا عن حواراتنا عندما اكتشفنا أنه أخبر صديقته بحقيقة عمله بالوكالة، وصاح أحد المهووسين بالغطاء قائلًا : " لقد عرضنا جميعًا للخطر ".وتبعه الآخرون في

غضب، وصاح أحد المتعصبين : " ما أدرانا بحقيقة هذه الفتاة ؟
وعنى الحفاظ على الغطاء بالنسبة لي البقاء في عزلة
ويقظة.وأثناء تناول العشاء في عيد الشكر مع أقاربي كنت قد
رتبت نفسي للإجابة على تساؤلاتهم حول طبيعة عملي، وبذلت
قصارى جهدي لأبدو طبيعية وأنا أشرح لهم كيف أذهب للعمل
كل صباح وهل تطل نافذة مكتبي على منظر خلاب أم لا.
واستخدمت خيالي في صياغة قصة عن طبيعة عملي بأحد
المباني الحكومية بوسط البلد بواشنطن العاصمة، ولم أتذكر
المبنى المقابل للمبني الذي يفترض أني أعمل به فبررت هذا
بمبررات غامضة مثل " أذهب مع أحد زملاء العمل بسيارته "
و " مكتبي بالقرب من الردهة الزرقاء " مشيرة إلى لون ممرات
المؤسسة التي أدعي أني أعمل بها، لكن غالبًا ما كان الناس ــ
خصوصًا أقاربي ــ ما يلحون طلبًا للمزيد من المعلومات
التفصيلية، وفي نهاية المطاف أخبرتهم أني أعمل بأحد وكالات
الحكومة بفيرجينيا، وأنا متأكدة من أنهم فسروها على أنها وكالة
الاستخبارات المركزية.
وأمدت الوكالة كل متدرب برقم هاتف لمكتب بواشنطن العاصمة
ليعطيه للأصدقاء وأفراد الأسرة كنوع من التمويه، وكان اسم
مكتبي البديل " القضايا الإقليمية " واعتبرت هذا الغطاء مهلهلًا.

وطلبت من أمي ذات يوم أن تتصل بهذا الرقم وتسأل عني بالاسم كمجرد اختبار، وقالت لي أمي أن الهاتف ظل يرن لحوالي خمسة عشر مرة قبل أن يجيب رجل قال في سخط " مرحبًا "، وعندما سألت أمي عني تردد الرجل كثيرًا قبل أن يطلب من أمي أن تقدم رقم تأميني الاجتماعي، ثم تركت أمي معلقة على الخط لبضعة دقائق سمعت فيها أصوات أشبه بأصوات مزاح في مكان فسيح وكأنها اتصلت بهاتف موجود بأحد السجون.وبعد ما بدا وكأنه بحث لا نهائي عاد الرجل ليخبر أمي أنه على الرغم من أن ليندسي موران تعمل بـــ " مكتب القضايا الإقليمية " إلا أنها غير موجودة بمكتبها، ويمكن لأمي أن تترك لي رسالة إن كان الأمر طارئا. وكانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي أعطيت فيها أحدًا رقم هاتف مكتب القضايا الإقليمية.

وأصبحت أمي لا تعرف ما الذي تقوله لصديقاتها فكانت تردد لهم : " لو أنكم أردتم معرفة ما تقوم به ليندسي فاسألوها ! " وكانت تتردد عندما يوجه لها هذا السؤال حتى إن أحد جيرانها خمن من حضوري وانصرافي في أوقات غريبة وتهربي من الإجابة أني حتمًا عاهرة، ولم تملك أمي إلا أن تهز كتفيها وتقول : " كيف لي أن أعرف ؟ أنا لست أكثر من أمها. "

وتعرضت لاستجوابات قاسية من قبل زملائي خارج الوكالة عن طبيعة عملي، وبمرور الوقت حسنت من ردودي حول ما يتعلق بغطائي حتى صرت أتقبل تلميحات أكثر تهذيبًا من قبل، وبحلول عيد الشكر من العام التالي صرت أكثر براعة في الحديث عن غطائي وإِعطاء تفاصيل دقيقة عنه لدرجة أن أمي قالت لي أخيرًا: إنها بدأت تصدق فعلًا أني أعمل بمكان آخر.

وعلى الرغم من ذلك لم أشعر بالراحة لكثرة ترديدي الأكاذيب، واختلف الأمر الآن عنه أثناء الطفولة، لأني كنت أكذب في مرحلة الطفولة للمزاح واللهو أما الآن فأنا أكذب لأن الكذب حتمي ويتخلل كل معاملاتي، وفي ذات مرة قالت لي ضابط ميداني : " احترسي فقد بدأت الآن تكذبين بشأن وظيفتك وقريبًا سيزول هذا الحد وستكذبي فيما يتعلق بكل شيء "، وكانت هذه المرأة تزوجت ثلاث مرات من داخل الوكالة، وقالت لي : " احفظي مني هذه الكلمات ؛ سينتهي بك المطاف زوجة لأحد هؤلاء الحمقى ".وآلمني هذا كثيرًا لدرجة أني صرت أذبل كل يوم أكثر من سابقه، ولم يبد على أحد الرجال الذين يعملون معي أي اهتمام بي خلافًا للصورة التي رسمتها هوليود في أفلام الجاسوسية مثل فيلم " لعبة الجاسوسية " أو فيلم " التوظيف " حيث البطل مهتم بمشاعر الآخرين ويعاني من الصراع الداخلي

بسبب تعارض رغباته مع بعض مصالح العمل، وكان الواقع من حولي على خلاف هذا تمامًا فقد كان رجال الوكالة مبتذلين وثقافتهم ضحلة بصورة غير عادية ويقضون ساعات طويلة بمطعم الوكالة يفكرون في الطريقة الأمثل للترقي.

وكنت وحيدة بصورة قاسية وافتقدت ساشو وصديقاتي، وقضيت أغلب فترة التدريب الثالثة بمكتب في ركن بعيد داخل قسم " الاستخبارات المضادة " وضيعت الوقت في تبادل الرسائل من خلال شبكة الكمبيوتر الداخلية مع زملائي في التدريب والاستماع للحوار المستمر بين السيدة يي والسيدة روزنفيلد اللتان قضيتا بالوكالة فترة طويلة، ولم يكن هذا الحوار بالكلمات بل بإطلاق الغازات طوال اليوم بصورة مقرفة وتساءلت عن السبب الذي أدي بي في نهاية المطاف إلى هذا المكان البشع.

* * * * *

الفصل الرابع

أحسست بالخوف الشديد من أن أترك وحدي بإحدى الغابات فتأكلني الذئاب حية ثم تترك بقايا جثتي لتتحلل من شدة الحرارة ؛ وهذا هو ما دفعني للتركيز في أول الأيام التي بدأت فيها تلقي التدريبات العسكرية بمحاضرة عن معرفة الاتجاهات بعد محاضرة أخرى عما اعتبرته " بعض التحذيرات النظرية "، وأعطي لكل منا بوصلة وعصاتان مضيئتان، وبعد عدة ساعات حملتنا شاحنة قذرة لحافة إحدى الغابات المخيفة وحدد المدربون لكل متدرب إِحداثيات موقع يبعد ميلًا على الأقل عن طرف الغابة، وكان المطلوب أن يشق كل منا طريقه للنقطة التي حددت له بالجانب الآخر من الغابة وبدأنا التحرك عند منتصف الليل.أطلقت اللعنات المرة تلو الأخرى كلما وجدت نفسي عالقة في أفرع الأشجار وتوقفت بين الحين والآخر لأنظر ببوصلتي، وسمعت بكل مكان حولي أصوات أوراق الأشجار والغصون تتكسر تحت ما ظننتها أرجل حيوانات مفترسة تتربص بي في ظلام الليل، ولم أكن لأفاجأ لو أن واجهني فجأة خنزير بري أو التف حول قدمي ثعبان كما تخيلت احتمالية ظهور أسد.
وحدد لنا المدرب ساعة واحدة للوصول إلى الجانب الآخر من الغابة، وأحسست وكأن ساعات طويلة مرت علي فبدأت أيأس

من احتمالية الوصول للجانب الآخر، ونظرت حولي بألم بحثًا عن مكان نظيف أجلس لأبكي فيه، ثم تخيلت السخرية والاستهزاء الذي سأتعرض له إن لم أتمكن من الوصول للجانب الآخر فاستجمعت ما تبقى من طاقتي ونهضت وبدأت التحرك. وعانيت كثيرًا أثناء تخطي الأغصان المتشابكة حتى وصلت لمكان فسيح وجدت فيه المدرب جالسا على كرسي من النوع الذي يستخدمه مخرجي الأفلام وهو يدخن غليون ويدندن في هدوء، وتوقف عن الدندنة ليخرج نفسًا كبيرًا من الدخان تصاعد في الهواء وهو يقول : " ما الذي أخرك كثيرًا يا سيدتي الصغيرة، لقد كنت موشكا على النوم ".

وقلت : هل أنا آخر من وصل ؟

وسمعت صوتًا من جهاز اللاسلكي الذي معه لأحد المدربين بمكان آخر بالغابة يعطي إشارة بوصول طالبه أيكي، وسمعت صوت أيكي في الخلفية، وقال لي المدرب : " لا يا عزيزتي لست آخر من يعبر "، ثم التفت لي وقال : " أنت في الحقيقة من أوائل من وصلوا، والآن اذهبي خلف المبنى وافحصي نفسك جيدًا لتتأكدي من خلوك من القراد الذي أراهن أنه يغطيك تمامًا فانطلقت متجهه نحو أضواء بطرف الغابة وقابلت في طريقي كل خمسة وعشرين ياردة مدربًا ينتظر وصول طالبه.

ووصلت أخيرًا لشاحنة متهالكة وجدت أيكي وطالب آخر ذو طاقية خضراء يدعى ديريك جالسين بها، ووقف المدرب أيد الذي لا زلت أذكر اسمه بسبب شهرة غرابته الشديدة التي سبقته بيني وبين الشاحنة مباعدًا بين ساقيه وضاممًا يده إلى صدره فبدا أشبه بضابط بإحدى القرى الصغيرة يتولي مسؤولية رحلة هامة.

وقال : أحسنت يا طفلتي.

ثم غير من وقفته القتالية ليسمح لي بركوب الشاحنة فارتميت على أرضيتها بين أيكي وديريك، وأومأ لنا أيد وهو يغلق الباب خلفنا وقال : سأعيد السيدات إلى المعسكر بالسيارة.

وبينما السيارة تتأرجح بنا على الطريق الوعر غير المعبد تبادلت مع أيكي تفاصيل مغامرة الليلة بينما جلس ديريك يحملق في الظلام وهو صامت فأحسست أنه متضايق لأن امرأة أنجزت مهمتها قبله، وشعرت بنوبة من الفخر والسعادة ونظرت إلى السماء الممتلئة بالنجوم التي لا ترى بواشنطن العاصمة بسبب أضواء المدينة الكثيفة التي تحجبها.

وكان الجو حارا ورطبا وأحسست بجسدي يئن عند كل مطب أو حفرة بالطريق، وعلى الرغم من معاناتي من هذا الطريق الوعر إلا أني شعرت بنوع من الراحة لتخلصي من أحد مخاوفي،

ونمت على ظهري وتركت الظلام يلفني وأنا في منتصف الليل، وفي منتصف لا مكان، ومضى وقت طويل قبل أن أدرك أني حية.

* * * * *

فسخت عقد إيجار شقتي في فصل الربيع وحزمت أمتعتي وركبت مع باقي زملائي بفصل C بوحدة التدريب السرية حافلة مدرسة صفراء انطلقت بنا جنوبًا إلى موقع مملوك لوكالة الاستخبارات المركزية قرب ويليامسبرج بفرجينيا يدعى " المزرعة "، وتعين علينا قضاء بقية العام فيه ونادرًا ما كنا نعود لواشنطن حتى في العطلات الرسمية.
واضطررت أن أختلق قصة كاذبة مقنعة لتبرير غيابي المثير للشكوك طوال أشهر التدريب فقلت : " أرسلتني الحكومة إلى قاعدة عسكرية في نورفوك بفرجينيا وعينت في إحدى المهام العسكرية الدبلوماسية التابعة للبلقان ".
واستغللت في هذه القصة الوقت الذي قضيته ببلغاريا كدليل على صدق روايتي، وبررت بالجانب العسكري من القصة سبب ارتدائي حذاء برقبة طوال الأشهر الماضية، وقلت مبررة عدم تواصلي مع أي أحد طوال فترة التدريب : " من الصعب جدًا إجراء مكالمة من قاعدة عسكرية "، وكنت في الحقيقة خائفة من

أن تؤدي قصتي إلى إثارة المزيد من التساؤلات فلم أكن قد ذهبت من قبل إلى نورفوك، ولا أعرف حتى كيف أصف طريقة الوصول إليها من واشنطن العاصمة، ولا الوقت الذي يستغرقه الوصول إليها.

تطلب برنامج التدريب العسكري في الأشهر القليلة الأولى ؛ التدريب على القفز من الطائرات والتأقلم مع طبيعة معسكرات الأسر، واستمتعت كثيرًا بهذا التدريب وكان بالنسبة لي الشيء الذي أحتاجه بشدة لاستعادة حماستي وقواي الذهنية.

وقسمنا خلال برنامج التدريب إلى تسعة مجموعات تدريبية كل مجموعة مستقلة في كافة الأشياء عن المجموعات الأخرى، وربما كان ديريك هو أقوى من بمجموعتي، لكن لسوء الحظ فإن غضبه لوجوده بين متدربين مبتدئين عاثري الحظ منعه من أن يكون مفيدًا لنا.

وكان مارك ــ زميلي في الفريق الذي خدم أيضًا بالجيش من قبل ــ أشبه بحلقة وصل بين ديريك وباقي أعضاء الفريق وخصوصًا المرأة التي كنا نسميها سالي العاصفة لأنها كانت عاصفة عاتية من الطاقة والأخطاء في ذات الوقت.

واستاء ديريك بشدة من أداء سالي في التمارين التي كنا نقوم بها مثل ؛ القفز من الارتفاعات العالية، والزحف في المواسير،

والهبوط بالحبال إلى الأودية العميقة، والعديد من الصعاب الأخرى التي تطلب منا برنامج التدريب تخطيها.

وكان تخطي سلسلة من العوائق القائمة أفقيًا هو أصعب ما مررت به، أما بالنسبة لمارك وديريك وروب وجونج وأيكي وأمثالهم ممن يبلغ طولهم أكثر من ستة أقدام فكان هذا التدريب تافهًا. وتمثلت المشكلة بالنسبة لي في أن حجم العائق الذي يجب علي تخطيه يصل إلى صدري ومتقارب مع العائق الآخر لدرجة أني لو نجحت في القفز على العائق الأول بسرعة ـ بطريقة ما ـ فإني سأواجه عائقا آخر يقف في مواجهتي ويتطلب الأمر مني أن أتخطي خمس أو ست عقبات متتالية، وتجمع الشباب من الفرق الأخرى حول العوائق للاستمتاع بمشاهدة النساء وهن يحاولن تخطي العقبات، ففكرت في تكنيك يمكنني من تخطي العقبات الواحدة تلو الأخرى دون توقف ودون أن أسمح لأحد بالسخرية مني ؛ ونجحت.

ولم يتم احتساب وقت الفريق إلا بعد انتهاء الشخص الأخير من تخطي كافة العقبات والابتعاد عن العقبة الأخيرة بربع ميل، واتفقنا كفريق على أن نصل إلى خط النهاية في وقت واحد، إلا أن سالي لم تتعاون معنا كعادتها ووصلت بعدنا وهي تتعثر في رباط حذائها وتحاول إخفاء دموعها، وأدار ديريك وجهه عندما

تعثرت قبل خط النهاية ببوصات قليلة ووجهها محمر من الخجل، وكان ديريك بذيئًا في سلوكه معها فقال بصوت خافت : " العاهرة الباكية "، فغضبت بشدة من أسلوبه وقلت بصوت خافت أيضًا لكنه كان مسموعا من الجميع : " الحمار المتعجرف "، وتسبب حبي لسالي وبغض ديريك لها في نشوء نوع من الجو العام الذي ساعد على تماسك الفريق.

* * * * *

وازدحم برنامج الأسبوع الأول بتدريبات التحدي حيث أعطي كل منا خريطة وبوصلة وطلب منه الوصول لنقطة معينه في الغابة وجد عندها تعليمات أخرى وهكذا حتى يتجاوز عشرة مراحل قبل أن يصل لنقطة النهاية بعد حلول الظلام ؛ وكنا قد بدأنا هذا التدريب منذ طلوع الشمس وأحسست بالتعب وقت الظهيرة، ونجحت في الوصول لكل نقاطي بعد عناء كبير وأحيانًا ما كنت أتجول حول النقطة لمسافة ميل في كافة الاتجاهات قبل أن أتمكن من تحديدها، ولاحظت في طريقي عددًا من الغزلان لكني لم أقابل أي شخص.

وفكرت لساعات طويلة في التوقف لتناول وجبتي، لكني كنت مدركة أن هذا التدريب يعني التحدي وأن ديريك وروب وجونج وأيكي لن يضيعوا وقتا في الاستراحة لتناول الغداء، وأقنعت نفسي أني لو توقفت لتناول الغداء فسأجدد طاقتي وسأشعر بالشبع لباقي اليوم لو أني أكلت المكرونة ذات الصلصة الرائعة، وشققت طريقي طوال الساعات التالية بين الغابات الكثيفة حتى وصلت نقطة التجمع قبل حلول الظلام بعد ديريك مباشرة، ولم أندهش بسبب تضايقه من تقارب وقت وصولنا فقد كان تعصبه الذكوري هو أحد الأسباب التي أمدتني بالحماسة، ولم يسرني شيء قدر سروري برؤية وجهه مكفهر من شدة الغضب بسبب

نجاحي الذي كان يمثل نوعًا من النجاح لسالي التي ينظر ديريك لها باعتبارها غير مناسبة وسخيفة.

ولم يتمكن عدد كبير من المتدربين من إنهاء يومهم التدريبي ؛ فمثلًا أوفيليا ـ الفتاة الضئيلة شديدة العزم ـ استسلمت مبكرًا وجلست على جانب الطريق تنظر لخريطتها في اكتئاب حتى وصل أحد المدربين وأعادها للمعسكر، وعلق وارن المسكين في الغابة لساعات قبل أن يتمكن من أن يعود أدراجه للطريق وينتظر مدربه لينقله للمعسكر، أما سالي فوجدت قرب حلول الظلام شبه عارية في مستنقع وهي محطمة بسبب عدم قدرتها تحديد طريقها، وقررت فجأة أن تستحم واستخدمت طبيعتها الجريئة كوسام شرف، وضحكنا على نزعتها الاستعراضية.

وأصبح الفصل C بوحدة التدريب السرية أكثر ترابطًا بمرور الوقت، لكن المنافسة استمرت على حدتها، وربما كان أشد المتنافسين بفصلنا ضراوة امرأة كورية ـ أمريكية تدعى جين سوك، وكنا نقوم يوميًا بتدريبات بدنية تبدأ في السابعة صباحًا وتختلف طبيعة التدريبات من يوم لآخر فأحيانًا ما تكون عبارة عن جري مسافة خمس أميال داخل الغابة أو ساعة من السباحة، واعتادت جين سوك أن تستيقظ في الساعة الرابعة صباحًا تمارس العدو أو تمارين الضغط، وفي يوم اختبار اللياقة البدنية

كان الاختبار عبارة عن ممارسة لتمارين الضغط والقيام والجلوس لمدة دقيقتين بأسرع ما يمكن والجري مسافة ميلين في وقت قياسي، واغتاظت جين مني بشدة في صمت وبصورة واضحة عندما تمكنت من القيام بعدد أكبر من تمارين الضغط والقيام والجلوس السريع بصورة أذهلتها، ومن هذه اللحظة صرت المنتقمة لا إِراديًا من جين، وساهمت طبيعة شخصياتنا المختلفة في أن يحدث بيننا تقارب وتنافر مستمر.

* * * * *

بدأنا بعد ذلك برنامج تدريب على قيادة السيارات تحت مسمى " اصدم واحرق " واستمر هذا البرنامج لأسبوعين، وتدربنا في اليوم الأول على القيادة السريعة في وقت زمني محدد، والانعطاف عدة مرات أثناء القيادة بأقصى سرعة والالتفاف حول الأقماع المرورية ثم العودة للالتفاف حول نفس الأقماع بطريقة عكسية، ولم أكن بارعة في القيادة لذلك حطمت مضمار السباق في قيادتي الأولى ودهست كافة الأقماع مما أدى إلى معاقبتي بإضافة ثواني أخرى لوقتي المتأخر أصلًا بصورة مضحكة، وكان أدائي هو الأسوأ في الفصل كله واكتسبت بسبب هذا لقب " الآنسة زهرة الربيع " مما جعل جين سوك تبتهج بشدة.وقضينا الأيام الخمس التالية من الصباح حتى المساء في التدرب على أساليب المراوغة في القيادة على مضمار السباق وحول الأقماع، وتمثل جزءا من مشكلتي في الخلفية المرتفعة للسيارة التي كانت تعوقني عن رؤية الطريق من الخلف عند القيادة العكسية بسبب قصري، وقال مدربي عندما قلت له هذه الملحوظة لأوضح له سبب أدائي المتدني : " ليست هذه مشكلة، ينبغي أن تتم القيادة العكسية دون النظر إلى الخلف، وكل ما عليك هو استخدام المرآة التي أمامك ".

ومنذ هذه اللحظة صرت أنظر في المرآة بغضب أثناء قيادة

السيارة إلى الخلف وأقطب جبيني من شدة الغيظ حتى تظهر عروق وجهي، وأحسست أني أتنافس مع الآخرين بطريقة جين سوك، وتسبب لي مضمار القيادة نوعًا خاصًا من الغضب فقررت ألا أسمح للخوف بأن يشلني.

وعلى الرغم من ذلك لم أرتح لقيادة السيارة في دوائر بسرعة تبلغ مئات الأميال في الساعة وكانت معدتي تتوعك بشدة حتى أصبحت على وشك التقيؤ، وأثناء قيادتي ذات يوم حيث يفترض أن أقود السيارة للخلف بهدوء ثم أتحرك في خط ملتوي بين تشكيل من الأقماع المرورية ارتبكت في القيادة وزاد اضطرابي بشدة وقفز المدربون المرتاعون بعيدًا عن جانب الطريق باحثين عن مكان يختبئون فيه بالغابة خلف الأشجار الكثيفة.

ونتيجة لذلك تعرضت لبعض التوبيخ البسيط الذي لم يكن مثل الإهانة التي تلقتها جين سوك عندما قادت سيارتها إلى حفرة فانفتحت حقيبة هواء السيارة، ولم تتضايق جين من الحروق التي ظل أثرها بوجهها لأسابيع تالية قدر تضايقها من الفشل العلني، وحطمت سالي العاصفة سيارتين من سيارات التدريب، لكنها كانت راضية إلى حد ما عن النتائج التي سجلتها.

وفي اليوم الأخير من الأسبوع الأول لبرنامج التدريب " اصدم واحرق " أعيد اختبارنا في القيادة، وتشبثت أصابعي المعروقة

بعجلة القيادة انتظارًا لدوري، وقال لي بعد ذلك المدرب الذي أجرى لنا الاختبار أنه لم ير في حياته من قبل نظرة الإصرار التي رآها بعيني وأنا أجعل عجلات السيارة تكاد تذوب من شدة احتكاكها بالأرض عندما أطلقت إشارة البدء، وانطلقت بسرعة جنونية، وعلى الرغم من هذا كان ترتيب الوقت الذي استغرقته هو الأبطأ، ولم أسقط قمعًا واحدًا، واكتسبت لقب " المتحسنة ".
وتضمن برنامج الأسبوع الثاني من تدريب " اصدم واحرق " التدرب على كيفية استخدام سيارات الكاديلاك والمونت كارلو لتخطي العوائق ؛ مثل السيارات التي تعوق الطريق والأسوار الخشبية والحوائط الصلبة، وكان المدرب ينزل راية ــ مثل ناتالي وود في فيلم " ثورة بلا قضية " ــ ويتوقع من الطالب أن يضغط على دواسة الوقود وينطلق في اتجاه العائق دون أن يطرف له جفن، وهدف هذا التدريب هو أن يثبت إمكانية تخطينا عدد من العوائق المختلفة ونبقى أحياء.
وعندما جاء دوري لأنطلق في اتجاه سيارتان تقفان في طريقي ؛ أغمضت عيني لحظة التصادم ثم فتحتهما بعد ثانيتين فذهلت لبقائي على قيد الحياة سليمة تمامًا وخلفي حطام السيارتين.
وبعد التدريب لأربعة أيام تالية على اقتحام العوائق الصعبة، أخبرنا المدربون بأن نعد أنفسنا للتدريب الليلي، وكنت أتشاءم

وأشعر بالتعاسة من أي أنشطة تتم ليلًا ولا تحتوي على شرب الخمور لأن القاعدة كلها كانت تخشى من أن يتعرض الأشخاص الضعاف جسمانيًا مثلي للقتل أو الاغتصاب أثناء تفرقنا ليلًا، بالإضافة إلى أني لم أكن متأقلمة مع طبيعة التدريبات القاسية التي تتم في الليل.

وتجمعنا في المساء بفصل قرب أحد النيران الكبيرة الموقدة بالمعسكر لنأخذ اختبارا يتعلق بمدى معرفتنا بالمتفجرات التي أخذنا فيها محاضرة واحدة في بداية هذا الأسبوع.

وأثناء إجابتنا على اختبار المتفجرات كان يدخل علينا ثلاثة مدربين كل فترة ليختاروا طالبًا من بيننا يأخذوه معهم ويرجع بعد حوالي عشرين دقيقة ليكمل اختباره مع تعليمات شديدة بألا يتفوه بكلمة، وخفت عندما لمحت سالي العاصفة خارج الفصل معصوبة العينين وهي تترنح ببطء.

وعندما جاء دوري تسارعت دقات قلبي، وأجلست وأنا معصوبة العينين على المقعد المجاور للسائق بإحدى السيارات الخربة، وجلس المدرب بجواري وقاد السيارة بسرعة جنونية لدقيقتين وتوقفت السيارة وسمعت الأبواب تفتح والمدرب ينزل ثم أتاني صوته يأمرني بالجلوس على مقعد السائق وانتقل هو ليجلس بجواري على المقعد الذي كنت أجلس فيه، ثم قال لي : " حسنًا،

والآن انطلقي. " وضغطت على دواسة الوقود ببطء والمدرب يعطيني إرشادات الانحراف إلى اليمين واليسار، وأخيرًا أمرني بالتوقف ونزع العصابة من على عيني فوجدت نفسي بمكان أشبه بالحدود والمدربين يرتدون أزياء حرس الحدود ويحملون أسلحة وكشافات ضوئية، وتقدم مني أحد المدربين ـــ الذي قضى أغلب حياته الوظيفية بأمريكا اللاتينية ـــ وسلط ضوء كشافه في عيني وطلب مني شيئًا ما بالأسبانية التي لا أتكلمها أو أفهمها، وخمنت من خلال ملابسه وطريقة كلامه أنه يطلب مني جواز سفري فأخرجت له تصريح دخول المعسكر الذي أخبرنا المدربون منذ أسابيع أنه سيقوم بدور الهوية في أي مواقف محاكاة للمواجهات أو التعرض للأسر.

وفي هذه الأثناء تجولت ببصري حولي في اهتياج شديد باحثة عن مفر كأن أحطم سيارة مثلًا لأفتح لنفسي طريق هروب، ثم تذكرت أننا تلقينا العديد من التعليمات التي تؤكد على ضرورة الحفاظ على رباطة الجأش واستخدام لغة الحوار في المواقف الصعبة بدلًا من الهروب أو القيام بالمناورات غير الضرورية لأن تعلمنا طرق الهروب لا يعني أننا ينبغي علينا اللجوء إليها في كافة المواقف.

وبدا لي هذا الموقف أشبه بتلك المواقف التي ينبغي علي

الخروج منها دون إثارة المتاعب أو الهروب بهدم الحوائط، واستمر جورج في الصياح في بعصبية شديدة وهو يقول بالأسبانية كلاما كثيرا لم أفهم منه إلا كلمات " جواز سفر " و " ممنوع " وشيئا آخر أشبه بـــ " مخدرات " وفي نفس الوقت تحرك مدرب آخر أمام سيارتي ليفحص مصدها الأمامي و غطاء السيارة، وعلى الرغم من هذا ظللت على يقين من أن الهروب ليس هو الحل الأمثل.

وفهمت من كلام جورج الذي رفع أمامي حقيبة مليئة بالأوساخ والبصل أني أواجه اتهام بحيازة مخدرات، ولم يكن معي أي مال يمكن أن أرشوه به وفكرت في أن التلميح لمثل هذه الفكرة ربما يتسبب في المزيد من المتاعب فكررت بلغة أسبانية ركيكة " أمريكية، دبلوماسية أمريكية " وفهمت من كلام أحد المدربين مع جورج أنه يحاول إفهامه طبيعة موقفي.

ثم أمرني جورج أن أفتح أبواب السيارة وفتش هو ومن معه السيارة من الداخل ولم أتفاجأ عندما أخرجوا المزيد من الحقائب التي تحتوي على مسحوق أبيض، وأنكرت بمنتهى الهدوء معرفة أي شيء يتعلق بهذه المخدرات.

ويمكنني أن أقول أن دفاعي لم يكن مقنعًا بالقدر الكافي لأني قلت لنفسي : " هذا مجرد تمرين "، وانتابتني فجأة العديد من

الأفكار، وأدركت أن المزيد من تلك الاختبارات سيهيئني بصورة أفضل للحياة العملية وسألت نفسي : " هل أنا حقًا قادرة على الاعتناء بنفسي في حالة التعرض لمثل هذا الموقف في الحياة الحقيقية إذا وجهت بدليل لعين سواء كان حقيقيا أو مدبرا من قبل الأعداء ؟ هل سأتمكن فعلًا من الحفاظ على رباطة جأشي ؟ أم أني سأنهار وأكشف غطائي في رعب وأصر بإلحاح على مقابلة السفير أو ــ الأسوأ من هذا ــ مقابلة رئيس وكالة الاستخبارات المركزية بالمنطقة التي أتواجد بها لينقذني من الأسر.

وأخيرًا سمح لي جورج بالعبور وأعاد لي جواز سفري، وأزال العائق الخشبي من أمام السيارة. وأظن أنه فعل هذا بسبب ملله من أدائي أو يأسه من احتمالية اعترافي بالتهريب أو الاندفاع بتهور لاختراق الحدود. وعلمت بعد ذلك أن بعض الطلاب ــ ومن بينهم سالي ووارن ــ قرروا الهروب بمجرد أن أزيحت العصابة من على أعينهم وتخطوا الحواجز فأسرع جورج وباقي المدربين في أعقابهم.

وطلب مني مرة أخرى أن أضع عصابة على عيني وأن أقود السيارة وأنا معصوبة العينين، وبعد دقائق أمرني المدرب بالتوقف وسحب العصابة من على عيني فوجدت نفسي أقف

بالسيارة في نهاية رواق ضيق طول حوائطه ستة أقدام وبدأت عصابة من الرجال الملثمين تقفز من على الحوائط وهي تطلق صيحات قتالية، وقفز عدد منهم على غطاء السيارة، ولحسن الحظ فإني كنت قد أغلقت الباب بعد خروج جورج من السيارة، وطالبت العصابة بالمخدرات وحاولوا فتح الأبواب دون جدوى وظلوا يطرقون على غطاء السيارة ويصيحون بطريقة غير مفهومة ويقربون عيونهم الشرسة من زجاج السيارة، ولاحظت أنهم يحيطوا بالسيارة من كل جانب باستثناء المؤخرة ففهمت بسرعة الهدف من هذا التمرين فنظرت في المرآة لأرى الطريق خلفي ثم انطلقت للخلف مسافة كافية تسمح لي بالالتفاف ثم أسرعت مطلقة الغبار خلفي.

وبمجرد أن التقطت أنفاسي أعيد وضع العصابة على عيني، ودعوت الله أن نكون هذه المرة في طريق عودتنا للفصل لأتمكن من إنهاء اختبار المتفجرات ثم أعود إلى الثكنة وأرتمي على سريري فقد كنت في غاية الإرهاق والتعب بعد أسبوعين من الجلوس على مقعد السيارة والقيادة بسرعة جنونية والمناورة بعجلتين فقط والتوقف المفاجئ ولوي عنقي لتفادي إيقاع الأقماع، وكنت فخورة لأن مهاراتي الحقيقية تختبر وأني أهيأ لمواجهة كافة المواقف، لكني تساءلت : " ما الذي أفعله في

نفسي بحق الجحيم ؟ أليس كل ما أريده هو العثور على شاب لطيف والاستقرار ؟ "

وأزحت كل هذه الأفكار جانبًا وأنا أقود السيارة وسط الغابات معصوبة العينين وأمرني المدرب بالتوقف وبمجرد أن رفعت العصابة من على عيني وجدت مجموعة من قطاع الطرق ظهرت فجأة من وسط الظلام وهي تمسك بهراوات وتصيح بالبذاءات وأحدهم يطلق أعيرة نارية في الهواء من شدة الابتهاج، ولم أشعر الرعب قدر شعوري بالاستمتاع وعلمت بعد ذلك أن أحد المتدربين بلل سرواله من شدة الرعب، وأحسست أن المدربين يستمتعون بهذه التدريبات أقصى استمتاع، وبدت لي المزرعة أشبه بلعبة متقنة مصممة لرجال لم ينضجوا أبدًا وأن عالم الجاسوسية ربما لا يكون أكثر من لعبة عالمية يلعبها أمثال هؤلاء الحمقى.

وأدركت هذه المرة أن السيارة محاطة من كل جانب باستثناء المقدمة التي وقفت أمامها سيارتين كعائق يمنعانها من التقدم، وفي هذه الأثناء تمكن أحد قطاع الطريق من فتح باب السيارة، وبدأ يدخل السيارة عندما ضغطت فجأة على دواسة الوقود بشدة وانطلقت مسرعة نحو النقطة الضعيفة بالعائق ــ كما تدربت طوال الأسبوع ــ فاخترقت العائق والتفتت خلفي لأنظر

للسيارتين اللتين حطمتهما ثم ضغطت على دواسة الوقود بأقوى ما يمكن فتنبه المدرب لتصرفي وصاح : " ماذا تفعلين ؟ ! "
وقلت لنفسي : " ربما تكون هذه اللعبة سخيفة لكني أبلي فيها بلاء حسنا. "
وقيل لي بعد ذلك: إن أدائي كان رائعًا تمامًا في كافة اختبارات " اصدم واحرق "، لكني رسبت في اختبار المتفجرات

* * * * *

لم يمتعني موضوع المتفجرات على عكس الرجال بفصلنا الذين افتتنوا بهذا الموضوع، وتحتم علينا أن ننتقل بعد الظهيرة إلى مبنى ملئ بالروائح الكيميائية لنتعلم كيف نصنع قنبلة باستخدام مادتي الــ C - 4 والكلوروكس وشاهدنا انفجاراتها في المنطقة العراء الموجودة أمامنا، ودائمًا ما كنت أشعر بعدم الارتياح بسبب أصوات الانفجارات التي يتردد صداها بكافة أرجاء المعسكر.
وكان من الصعب على أن أتصور قيامي بفحص سيارتي كل صباح بناءًا على تعليمات المدربين الذين أخبرونا بأن هذا إجراء احتياطي لازم اتباعه أثناء الإقامة خارج البلاد، وسمعنا العديد

من الشائعات عن الضباط الميدانيين الذين أصيبوا بجنون الارتياب والخبل بسبب هذا الإجراء، وأدركت أن الجنون يبدأ من هنا.وتعلمنا كيف نجمع ونفكك أسلحة الدمار المحدود وأسلحة الدمار الشامل، ولو أني اضطررت في الواقع أن أفكك قنبلة فإني لن أفككها أبدًا بالطريقة التي كنا نتدرب بها.
وقضيت أغلب أوقات المحاضرات الصباحية عن المتفجرات أسرح بخيالي وأحملق في مستنقعات فرجينيا وأنتظر المدرب حتى ينتهي من تفجير سيارة على بعد مسافة منا.
وبعد ذلك توجب علينا أن نسافر بضع ساعات جنوبًا لقضاء أسبوع كامل من التدريب على المتفجرات، ومثل هذا عذابًا فظيعًا لي باستثناء أني أحببت الجو الغريب لمعسكرنا الجديد حيث كنا ننام في حجرات أشبه بحجرات الفنادق بدلًا من الثكنات بالإضافة إلى أن السيدات بمطعم المعسكر قدموا لنا العديد من الأطعمة المنزلية كالدجاج المحمر والبسكويت المصنوع بالزبد، والتفاح المحمص الذي تعلوه القرفة، وكان الجو حارا بصورة لا تطاق وملئ بالحشرات الطائرة، واعتدنا أن نتناول الجعة مساءًا ونسبح في ضوء القمر، ووددت لو أن بإمكاني أن أظل أسبح حتى أصل للنقطة التي يتقابل فيها ظلام السماء مع ظلام البحر.
وأثناء أسبوع التدريب على المتفجرات أصبحنا على معرفة بكل

العناصر البيولوجية، وكان عنصرًا واحدًا منها هو الملائم لأغراض التدريب، وسرنا في أحد أيام التدريب في طابور واحد ويدانا خلف ظهرنا حتى وصلنا غرفة وجدنا المدربين فيها وهم يضعون على وجوههم أقنعة الغاز وهجموا علينا بزجاجات بها رزاز الفلفل ورشوها علينا وهم مبتهجون.

وأحسسنا بالألم الشديد واحمرت عيوننا، وصحنا في غضب واحتجاج وصببنا عليهم اللعنات وطلبنا ماء فأخبرونا أن الماء سيزيد من الألم، ولم يتمكن بعضنا من الصبر فجروا إلى دورات المياه ونضحوا وجوههم بالماء، والتفت حولي دون أن أرى شيئا ومفاصل يداي تغطي عيناي أملًا في أن يذهب الألم، وتصرفت جين سوك مع الموقف برزانة فتراجعت من الحجرة وسارت قليلًا حتى وصلت إلى شجرة فجلست تحتها متربعة القدمين وعيناها مغلقتان وكأنها تمارس أحد تمارين اليوجا.

وتلا هذا الأسبوع أسبوع تدريبي آخر تحت مسمي " **الاستجواب أثناء السفر تحت اسم مستعار** " وأعطيت لنا هويات ووثائق يفترض أن نحفظ كافة تفاصيلها، وأخبرنا أيد أننا سنقابل غدًا عملاء حقيقيين سيسألوننا عن هوياتنا، وقال لنا أنهم سيحاكون الواقع لكن بصورة أشد واقعية من الواقع نفسه وهم محترفون تمامًا وقادرون على انتزاع الحقائق لذا فمن الأفضل أن يحفظ

كل شخص قصته تمامًا.

ودرست تفاصيل شخصيتي المستعارة تمامًا حتى إني عرفت برج كل فرد من أفراد أسرتي الافتراضية، وكان هذا التدريب بمثابة ترفيه لي بينما واجه بعض زملائي متاعب مع شخصياتهم خصوصًا من استعدوا بشراسة لمواجهة العملاء الذين سيستجوبوننا، وعندما قابلتهم اكتشفت أنهم من ألطف الشخصيات التي قابلتها أثناء التدريب.

وذكرني العميل الذي تحدث معي بساشو الذي لم أراه أو أتحدث معه منذ اليوم الخريفي الذي قدته فيه لمطار دولس، وتذكرت كيف اغرورقت عيناه بالدموع وهو يتفحص لوحة مواعيد المغادرة لمعرفة موعد طائرته العائدة لسان فرانسيسكو، ولم أبك وقتها لكني بكيت طوال الطريق إلى المنزل ولم أعرف إن كنت أبكي عليه أم على نفسي.وصار التفكير في ساشو في هذا الوقت مؤلمًا، فعلى الرغم من جمال ذكرياتي معه إلا أنها بدت أشبه بذكريات من حياة إنسانة أخرى، ولم أمنع عقلي من تذكر ساشو وهو يبتسم لي وأنا أنظر إليه أثناء تسلقي أحد المرتفعات، وتذكرت يده القوية وهي تمسك لي الحبل بقوة وتسحبني لأعلى وروحي بين يديه، وتخيلت شفتاه وهي تغرق جبهتي بالقبلات عندما كانت قدماي تصل إلى الأرض.

أزحت هذه الذكريات جانبًا، وعلى الرغم من شدة افتقادي له فإني أبقيت نفسي على قناعة بأني تصرفت التصرف الأنسب، وفكرت في النجاح الذي حققته منذ بدأت تدريباتي العسكرية وفي تلك المهام التي تعلمتها بالإدارة كالتعقب وصياغة الرسائل وتقسيم الأنظمة، وأحسست أني أبلي بلاءًا حسنًا وأني على الطريق الصحيح لأصبح جاسوسة ناجحة.

وفكرت كيف أن ساشو شوش أفكاري وأعاق تقدمي، فلم أكن لأتمكن من تحقيق نجاحاتي التي حققتها لو أن علاقتي استمرت معه وظلت عيون الوكالة المتشككة تلاحق صديقي الأجنبي، ولم يكن ساشو ليتوافق معي في حياتي الجديدة فقد كان إنسانًا بمعنى الكلمة بينما كنت أنا أتحول لإله، وكان ساشو أمينًا بطبيعته بينما أنا أبدأ بناء حياة من الأكاذيب، ومثل لي ساشو الحرية التي بدأت مشوار التخلي عنها، وكان التفكير في ساشو مؤلم للغاية لذلك ركزت تمامًا في التدريب وتركت صورته تتبخر من عقلي.

* * * * *

تلا التدريب على المتفجرات العودة للمزرعة لمدة أسبوع للقيام ببعض التدريبات البحرية، وكان هذا التدريب مثل اصدم واحرق، لكنه هذه المرة يتم في المياه التي تلمع على صفحتها الشمس.

وتعلمنا في هذا التدريب بعض المهارات مثل معرفة القياسات البحرية واتجاهات الملاحة وأحوال الرياح والمد والجزر بالإضافة لمستوى من الاحتراف في قيادة القوارب السريعة، وتعلمت الأساسيات ثم ركزت على الإحساس بالرياح وهي تجعل شعري يتطاير ونحن نخترق الأمواج ونسابق الشمس. وكنا نغسل القوارب في نهاية كل يوم ونحن نستمع لألحان الموتاون[1] ونرش بعضنا بالخراطيم، وامتلأ الجو العام بالمرح وبدا أشبه بإعلانات ماونتن ديو[2] التجارية. وسررت لذلك وتجاهلت تحفظاتي السابقة فقد قررت أن أعيش هذا العالم بكل جوانبه، وعلى الرغم من كل شيء كنت سعيدة بتكوين صداقات جديدة، وتحولت نظرتي لزملائي في الفريق فلم أعد أراهم مهووسين بالذات ومنغمسين في الملذات وأصبحوا الآن يشكلون رابطة من الرفقاء.

---

[1] الموتاون هي إحدي الفرق الموسيقية الشهيرة بالولايات المتحدة .
[2] أحد أنواع المشروبات الغازية التي تنتجها شركة بيبسي .

وصرت أتناول الوجبات مع سالي العاصفة ومارك الطبيب وديريك ذو الطاقية الخضراء واعتدنا على المرح وتبادل النكات وأن نسخر من المدربين أو نخطط إستراتيجيات التقدم على الفرق الأخرى، وأصبحنا مع مرور الوقت أشبه بالعائلة.

وبينما قضينا الأيام في الماء قضينا الليالي في الهواء، واعتدنا أن نجلس بعد الانتهاء من التمارين البحرية الصباحية وقت الظهيرة في مناطق الإسقاط بين سحب الناموس والرطوبة الخانقة، ونضع العصيان المضيئة فوق الأعشاب بطريقة تسمح للطائرات برؤيتها فتلقي لنا بصناديق معدات التدريب.

وذات ليلة وكلت لي مهمة تحريك قفص خشبي ضخم ملأناه سابقًا بأحجار أسمنتية أسقطتها لنا الطائرة وأخفقت في مهمتي لتأخري ثانية تسببت في إسقاط طائرة التدريب صندوق المعدات في مكان مختلف تمامًا عن مكان الإنزال الحقيقي، وتسبب هذا في أن يضرب الصندوق كابل الكهرباء فيقطع الكهرباء عن القاعدة بالكامل لساعات تالية، وذاع خبر إخفاقي واستمر الحديث عنه لعدة أيام حتى أطلق وارن النار على قدمه أثناء التدريب على استخدام الأسلحة النارية.

* * * * *

تدربنا في الأسبوع التالي على استخدام كافة الأسلحة الخفيفة من مختلف أنواع المسدسات والبنادق وكان المدرب يحدد لنا الهدف بوضع صورة لصدام حسين أو أسامة بن لادن الذي لم يكن العدو رقم 1 جماهيريًا في ذلك الوقت من عام 1999 إلا أنه كان كذلك بالنسبة لوكالة الاستخبارات المركزية.

واعتاد وارن على تجاهل التعليمات باستمرار وإطلاق النيران في أي اتجاه ممثلًا خطرًا على كل من بالمكان، والأمر المزعج جدًا هو أن تقييم مستوى إطلاق النيران لم يتم في نهاية الأسبوع باستخدام الأسلحة بل تم في صورة امتحان على أوراق تتضمن أسئلة ضع علامة صح وخطأ، واختر الإجابة الصحيحة، وحقق وارن أعلى درجة !

وتلا أسبوع التدريب على الأسلحة تدريب لمدة خمسة أيام على الاشتباك بالأيدي وصحبه التدريب الطبي، وقضينا مساء كل يوم نعالج الجروح والكدمات التي سببناها لبعض في الصباح.

وفشلت في تدريب الاشتباك بالأيدي، ولكوني أنا وصديقي إيثان الوحيدان اللذان يستخدمان أيديهما اليسرى ؛ دائمًا ما كان يأتي الدور علينا لنتصارع معًا، ولم أكن أنا ولا إيثان بارعان في اللكم ولا الركل لذلك كنا نرقص في دوائر حول الحلبة محاولين أن نوجه اللكمات إلى بعض فكانت اللكمات تأتي غير مؤثرة

على الإطلاق.

وامتدح مستشار تدريب الاشتباك بالأيدي جين سوك عندما ركلت أحد المتدربين بعنف في قصبة ساقه لدرجة أنها أوشكت على تحطيمها ثم فاجأته بلكمة أسفل ذقنه

* * * * *

واندهشت أثناء التدريب العسكري عندما تذكرت أني لم أفتقد البيت إطلاقًا وأن حياتي صارت تتمحور حول المزرعة والعلاقات التي ملأت حياتي هي علاقتي بزملائي في الفريق ومدربيني، واستمرت الحياة على نحو مريح ؛ ففي الصباح نتناول البيض وشرائح لحم الخنزير بصالة الطعام ثم ننتقل للتدريب لثلاث أو أربع ساعات ويلي ذلك تناول شطيرة في وجبة الغداء ثم القيام بأنشطة ما بعد الظهيرة التي تتم غالبًا خارج المزرعة، ووقت العشاء نتناول دجاجا محمرا أو مكرونة ثم نقوم بالتمارين الليلية، وإذا كنا محظوظين وكانت الليلة خالية من أي أنشطة أخرى فإننا نشرب الجعة ونلهو بحانة المعسكر، وقبل أن نلقي بأنفسنا على أسرتنا نفحص بعضنا للتأكد من خلو أجسامنا من القمل والقراد.

وساهمت الأنشطة المتتالية في صرفي عن التفكير في أي شيء يتعلق بحياتي الحقيقية مثل ؛ قلق أهلي من إمكانية تأقلمي مع طبيعة الحياة بالوكالة، وتدهور الحالة الصحية لإحدى جداتي التي لم يعد عندي وقت لزيارتها، وحقيقة اقترابي من سن الثلاثين دون أن يكون لي زوج أو صديق، وأرحت نفسي بالتفكير في التدريب العسكري كنوع من المعسكرات الصيفية للراشدين، وبمرور الوقت نجحت في هذا لدرجة أني كنت

أشمئز من فكرة مغادرة المزرعة.

ونقلتنا حافلة في عطلة نهاية الأسبوع لواشنطن لقضاء بضعة أيام بعيدًا عن المزرعة، وأحسست بالملل وعدم الراحة في بيت أمي، وبالضيق والاختناق في المجمع التجاري عندما ذهبت للتسوق، وبالضجر الشديد بسبب أي شيء بسيط كالتوقف المعتاد في إِشارة المرور، ولم يحاول أي من أصدقائي بالخارج أن يتصل بي لذلك كانت الساعات الثمانية وأربعين التي عدتها للمجتمع مليئة بإِحساس الوحدة فانتهزتها فرصة للاستراحة من إِرهاق التدريب وتلميع أحذيتي استعدادًا لأسبوع " معسكر القفز بالمظلات ".

ولم تكن طبيعة أعمالنا المستقبلية تتطلب ــ في الحقيقة ــ التدريب على القفز بالمظلات ولا على أي من التدريبات العسكرية الأخرى، ولم تكن هناك أسباب كافية للتدرب على اختراق الغابات دون حمل أي شيء باستثناء البوصلة، أو القيام بالدوران السريع أو التوازن على العجلات الخلفية أثناء قيادتنا للسيارات الدبلوماسية.ومثل القفز من الطائرات أكثر التمارين الغير مبررة، فلم نكن سنذهب لمهامنا الأولى خارج البلاد عن طريق الإِسقاط جوًا كما هو الحال في أفلام هوليود، وربما يتم اختيار عدد قليل منا مثل روب الشرطي السابق أو أيكي أو

ديريك للقيام بعمليات خاصة، إلا أن باقي مجموعة التدريب سينحصر عملها في القيام بالأعمال المكتبية في النهار والذهاب لحفلات الكوكتيل الدبلوماسية بالليل، وأدركنا أن الهدف من القفز بالمظلات مقصود به تعزيز ثقتنا في أنفسنا.

وكان ديريك مهيئًا بطبيعته على القفز من الطائرات فلم يبد عليه أي اضطراب بينما كانت بقية المجموعة تشعر بالرعب الشديد دون أن تبوح به، ودارينا خوفنا خلف ستارة من التظاهر بالجرأة. وقبل أن يبدأ التدريب الفعلي على القفز بالمظلات تلقينا تدريبًا نظريًا لمدة أسبوع تعلمنا فيه كيفية الهبوط (التوقف، السقوط، الدوران)، وتعلمنا كيفية الالتفاف في دوائر أثناء الهبوط، وجمع المظلة بسرعة فور الهبوط حتى لا نجر على الأرض بفعل الرياح، وما الذي يجب فعله في حالة الهبوط على الماء أو الأشجار أو الأسلاك الكهربائية.

وشغلت هذه الجزئية الأخيرة عقلي للأيام التالية لقفزتنا الأولى، وكنا نتناقش أثناء تناول الطعام عن أي هذه الأنواع الثلاثة من الهبوط هو الذي يمثل الحظ الأتعس للهابط ؛ واتفقت أغلب الآراء على أن الهبوط على المياه لن يكون الأسوأ فكل ما عليك فعله هو أن تخلع حقيبتك وحذاءك وتملأ جزء من المظلة بالهواء لتستخدمها كأداة طفو.

وقال لنا أحد المدربين : يمكنكم أن تستخدموا أسلوب الطفو بالسروال كبديل.
ويتطلب هذا الأسلوب القيام بربط طرفي رجلي السروال وملأه بالهواء ثم ربط السروال من الطرف الآخر، ولم أري أحدًا نجح في تنفيذ هذا بشكل جيد طوال فترة التدريب، وكان رأيي الخاص أن الهبوط على الماء هو أسوأ أنواع القفز ويلي في درجة السوء عدم انفتاح المظلة على الإطلاق.
وتوجب علينا القيام بخمس قفزات من بينهم قفزة بمعدات لإثبات النجاح في اكتساب مهارة القفز بالمظلات، والقفز بالمعدات هو عبارة عن القفز بحمولة تزن سبعين رطلًا تربط تحت صدر القافز في أعلى قدميه، ويتوجب عليه فصلها عن جسمه قبل الهبوط، وإذا لم ينجح في ذلك فيمكنه الهبوط بها، لكن مع احتمالية كبيرة لكسر ساقيه.
وعندما تلا المدربون علينا أسماء من سيقفزون بالترتيب العشوائي علت صيحة من الجميع لسماع اسم وارن يتلى أولًا فظن المدربون أنه أحمق وزادت معرفتهم حصوله على شهادة جامعية من هارفارد ظنونهم. ولم يلتفت أي أحد طوال الأسبوع إلى الرعب الكبير الذي سيطر على وارن ولا صياحه في فزع كل مرة يهبط فيها على الرغم من ربطه بحبل مع بيتر بان في

برج التدريب الذي يبلغ ارتفاعه ثلاثون قدما، ولذلك لم تكن تسميتنا له " رائد السماء " مجرد صدفة.
وحملت طائرة التدريب تسعة متدربين في كل إقلاع ودارت في السماء ثلاث دورات حول منطقة الهبوط وفي كل دورة دفع المدرب ثلاثة طلاب، وتجمع بقية الطلاب على الأرض للاستمتاع بمشاهدة التدريب، وكانت السماء صافية يوم التدريب وليس بها إلا بقعًا صغيرة من السحب البيضاء التي رصعت زرقتها الجميلة، واستمتعنا بهذا اليوم كثيرًا، وقفز قلبي من شدة الفرحة في اليوم الأول من التدريب العملي عندما سقطت بقعة صغيرة من الطائرة وتلاها انفتاح المظلة المفاجئ وتبختر وارن بالهواء في تباهي وابتهاج حتى لمس الأرض، وأطلق الجميع ــ بمن فيهم من كان يزدري وارن ــ هتافات الابتهاج.
وكنت في المجموعة التي ستقفز في الدورة الثانية من الإقلاع الثاني، وكان ديرك في الدورة الأولى وحذرني قبل أن يقفز من أن " لا أسرق هواءه " أثناء هبوطي بعده.
ووقفت أمام الباب المفتوح قبل القفز وأنا مستعدة تمامًا وكل ما أمكنني التفكير فيه في هذه اللحظة هو عدم استعدادي للموت، وراودتني مشاعر كثيرة مختلطة ؛ فحزنت على أني ليس لي صديق يحزن على وفاتي، وتساءلت " هل ستزيد عنوستي من

مأساوية مشهد وفاتي بالنسبة للمعزين الذين سيحضرون جنازتي ؟ " وخمنت أن وكالة الاستخبارات المركزية ستفسر لوالدي سبب وفاتي بأنه تم أثناء القفز بالمظلة في مكان مجهول ؛ بينما الباقون يظنون أني كنت أقوم بأعمال إدارية في أحد الإدارات الحكومية.

وأحسست بجمال المنظر من الطائرة فتمنيت أن أبقى لأشاهد زرقة السماء اللامتناهية، لكن لم يكن لدي الكثير من الوقت لأفكر في هذا فقد صاح مدرب القذف قائلًا : " اذهبي "، ثم دفعني خارج الطائرة.

وأحسست بالراحة عندما انفتحت مظلتي ونظرت فوقي فشاهدت انتفاخ المظلة فبدت لي وكأنها شمسية ضخمة وأمسكت بحبال المظلة وبدأت أحدد اتجاه هبوطي والهواء الصامت يحيط بي فأحسست بأني ملكت الحرية، وأدركت فجأة بأني سأكون على ما يرام.

وهبطت أبطأ من بقية زملائي لأني من أخف القافزين وزنًا، وباقترابنا من موقع الهبوط صاح وولف ــ الذي كان من المحاربين بفيتنام ومظلي سابق شديد الشبه بالممثل ويلي نيلسون ــ في مكبر صوت قائلًا : " اتجهي إلى اليمين أيتها الدمية الكبيرة "، " احني ركبتاك أيتها الدمية الكبيرة "، قودي المظلة

جيدًا أيتها الدمية الكبيرة ".

ولم تحتو قفزاتي الأربعة الأولى على أي شيء مثير على الرغم من أنها أبهجتني، وعندما أتى وقت القفز بالمعدات عاد الرعب يتملكني، وفكرت في أني أفضل الموت على أن تتحطم ساقي، وراودني إحساس غريب بأني سأواجه صعوبات في نزع المعدات عني قبل لمس الأرض، وأثناء هبوطي بالمعدات مددت يدي لسحب الخيط الذي يفترض أنه يجعل المعدات تنفصل، فوجدت الخيط معقود ولم ينسحب وأحسست بالثقل الذي ظل يتدلى من قدمي اليسرى وكأنه هلب، وصحت : " يا إلهي لا تدع قدماي تتحطم "، ثم خجلت من تديني المفاجئ، ولم تكن المشكلة في تحطم قدماي فقط فليست هذه هي المصيبة الكبرى، بل خفت أكثر من احتمالية عدم تمكني من إكمالي التدريب وانتقالي بطائرة إسعاف لواشنطن لتلقي العلاج لفترة قد تستغرق على الأقل كامل مدة التدريب على الطيران، وكانت فكرة ابتعادي عن التدريب للعلاج واستمرار زملائي ونظرائي في تقدمهم أكثر مما يمكنني احتماله.

وسحبت الخيط بشدة فلم يزده هذا إلا تعقيدًا واقتربت من الأرض التي بدا مظهرها لي كئيب بشدة، ثم ارتفع الأدرينالين بدمي وأحسست بقوة هائلة جعلتني أشد الخيط بكلتا يداي حتى انفصلت

حقيبة المعدات وسقطت على الأرض في دوي شديد مخلفة سحابة من الغبار، وركزت بعد ذلك على قيادة المظلة، وسمعت صوت وولف الذي كان يصيح في هذه اللحظة : " تعالي أيتها الدمية الكبيرة ".

* * * * *

وفي الأسبوعين الأخيرين قمنا بعدد من المهام التي ينبغي أن نطبق فيها كل ما تعلمناه خلال فترة التدريب العسكري، وكانت مهمتنا الرئيسية هي إنقاذ عدد من الرهائن الأمريكان من إحدى المقاطعات التي يسيطر عليها العدو، وأخبرنا المدربون بأننا سنطالب بتنفيذ عدد من المهام أثناء الطريق.

ووقف أيد أمام باب الفصل ولخص لنا تفاصيل المهمة قائلًا : ستسقط الطائرة الهليكوبتر كل مجموعة بموقع مختلف وأمامكم خمسة أيام للوصول لمنطقة احتجاز الرهائن وإنقاذهم والحضور بهم إلى هذه الحجرة التي ستكون مقر القيادة، وخلال هذه الفترة فإنكم ستنامون بالغابات وتبنون مآوي من أي شيء يتاح لكم.

وبدا على وارن الزعر الشديد بينما أمسكت جين سوك بورقة وقلم ودونت الملاحظات باهتمام شديد.

واستمر أيد في حديثه قائلًا : وستمرون خلال طريقكم بعائق مائي واحد على الأقل وسيزود كل طالب بسلاح AK - 47 للاستخدام في حالة مقابلة قوات المختطفين في الطريق.

وغمزت لي إيثان من طرف الحجرة وقالت لي بفمها في صمت : " من أجل اللهو. .. "

وحصلنا على جهازي اتصال لاسلكي قديمين لاستقبال الأوامر من القيادة بالإضافة إلى خريطتين وجهاز تحديد مواقع، وحزمنا

وجبات التغذية التي ستلقى إلينا بطائرات الهليكوبتر في مناطق الإسقاط التي سنكون فيها ونحددها للإدارة من خلال الرسائل المشفرة.

وقال لنا أيد كلماته الأخيرة محذرًا : يفترض بكم أن تتحركوا في سرية عبر الغابات وليس من خلال الطرق المكشوفة، وليس لكم الحق في التواصل مع أي مجموعة أخرى، ويجب أن تحافظوا على أنفسكم بعيدًا عن الوقوع في الأسر.

بدأنا تنفيذ مهمتنا في ليلة ممطرة فأخذت المروحية الهليكوبتر مجموعتنا المكونة من تسعة أفراد وأسقطتنا في مكان بعيد عن المعسكر أشبه بالرمال المتحركة، وبمجرد أن تمكنا من الخروج من الحفر الطينية التي سقطنا بها كان زينا المموه قد امتلأ تمامًا بالأوحال.

وتحركنا حتى وصلنا منطقة بدت صالحة لتكون منطقة إنزال فوضعنا على الأرض العصيان المضيئة في تشكيل متعارف عليه لتراه الطائرة التي ستسقط لنا الوجبات الميدانية التي حزمناها سابقًا بمقر القيادة. ثم قمنا بإبلاغ القيادة بإحداثيات موقعنا لترسل لنا الطائرة.

تشكلت أثناء الشهور التي قضيناها معًا روابط بيننا على الرغم من أن ديريك وسالي كانوا لا يطيقون بعضهما، وكان ديريك

مغتاظًا من كثرة الإسراع لنجدة سالي، وأزعج مارك الآخرين بكثرة حديثه عن مواهبه وقدرته على صيد الذباب " موهبته الأولى "، وكنا مترابطين على الرغم من اختلاف درجات مهارتنا.

وساهمت صداقتنا الوطيدة في أن تسير مهمتنا على أحسن حال، وارتعبنا في الليلة الأولى من السيارات المموهة للثوار التي كانت تسير بالقرب منا وعليها مدافع رشاشة، ولو أنهم رأونا لأطلقوا النيران علينا.

ولم تصل لنا الإمدادات الأولية من الأطعمة نتيجة لما اكتشفنا بعد ذلك أنه خطأ من ديريك في تحديد إحداثيات منطقة الإسقاط، وبعد أن تأكدنا من أننا لن يصل لنا طعام في هذه الليلة أصبنا بخيبة الأمل وبدأنا في تجهيز أماكن نومنا باستخدام المعاطف الواقية من الأمطار، ونمنا وتبادلنا نوبات حراسة ظل فيها حارسان على الأقل متيقظين في كل نوبة، وظلت أصوات الانفجارات وإطلاق النار العشوائي ترد إلى مسامعنا من المعسكر طوال الليل.

وتوجب علينا أن نتصل بالقيادة في الصباح لنأخذ منها رسالة مشفرة، وتولت سالي هذه المهمة في البداية لكنها عندما حرفت الرسالة الأولى ظلت تتفحص ورقة مفتاح الشفرة وتعيد الاتصال

بالقيادة، وعندما كررت هذا ست مرات دون جدوى أخذ ديريك جهاز اللاسلكي منها وسلمه لي.

وفهمت من الرسالة التي تلقيناها من القاعدة أننا ينبغي علينا أن ننتقل لموقع على الجانب الآخر من المعسكر ثم ننتظر هناك لتلقي التعليمات التالية، وبعد ساعات من الجري في الغابات والعديد من المرات التي فررنا فيها من نيران الثوار وصلنا لمنطقة فسيحة بها قاربان مطاطيان وعلى جانب أحد القاربين ورقة عليها تعليمات بالتحرك بضعة أميال في اتجاه مصب النهر حيث يوجد المكان الموجود به مجموعة الأمريكان الذين يتوجب علينا إنقاذهم. وتوليت أنا وسالي قيادة القاربين مع تعليمات مشددة بألا نحيد عن اتجاهاتنا، وبينما كنت ألعن ديريك وأتذمر دائمًا من تعليماته إلا أني كنت على يقين من أنه أكفأ المتدربين وبدا دائمًا على وعي تام بما يجب أن يتم ومتيقظًا لما يجب الاحتراز منه أفضل من بقية المتدربين.

وانقسمنا إلى مجموعتين وأخذت كل مجموعة قارب وأربعة مجاديف، وعند محاولتنا الأولى للإبحار دار بنا القارب بشدة وكأننا نركب أكواب الشاي الدوارة بملاهي ديزني لاند، واقترح ديريك أن يستخدم أحدنا المجداف كدفة ويجدف الآخرون ؛ وأخذت موقع قيادة الدفة وتمكننا بعد محاولات مستميتة من بدء

التحرك ببطء في الاتجاه الصحيح، واتضح لي أنه كان ينبغي علي أن أركز أكثر أثناء تدريبات الملاحة البحرية.
وظللنا نجدف ونجدف وسط الممر المائي البشع الذي امتلأ بحشرات اليعسوب التي انتشرت على صفحة المياه وبطيور مالك الحزين التي كانت تفاجئنا من حين لآخر وهي تنقض على سطح الماء وأحسست أني أصبحت أشبه بالغوريلا.
واقتربنا بعد ساعات من نقطة الوصول ولمحت رجلين يختبآن خلف أحد الصخور على جانب النهر ووجوههم مموهة بخطوط خضراء وسوداء مثلنا، وهمست لمارك الذي كان يجدف جواري : لا تنظر إننا مراقبون.
وتوقفنا عن التجديف انتظارًا لوصول القارب الآخر، وكانت سالي في هذه اللحظة تطلق الصيحات حول كافة ملاحظاتها وكأنها دليل ملاحة نهري وتقول : " أوه، انظروا إلى تلك العصافير، أرأيتم هذه السمكة ؟ واو، ثعبان ! " فأشرت إليها لتصمت، وبمجرد اقتراب القارب الآخر أخبرت ديريك أن هناك أعداء ينتظروننا عند ضفة النهر، وكنا متأكدين من أننا على وشك التعرض لهجوم، لذلك كنا نرغب في أن نستمر في التقدم في النهر بدلًا من التوقف بالمنطقة المحددة مسبقًا، لكن ديريك أصر على وجوب تقدمنا طبقًا للخطة المرسومة، وقال : " إذا

هاجمونا افتحوا عليهم النيران ".
وكنا متأكدين تمامًا من أننا ــ بعد أن ننتهي من سحب قواربنا من النهر ــ سنسمع صوت صيحة قتالية من أحد المختبئين ويبدأ بعدها الهجوم. وعندما تحقق هذا وقف شعر ذراعي من شدة الانتباه وقفزنا نحن التسعة نهيئ أسلحتنا للقتال وأحسست بنفس الإحساس الذي كنت أحسه وأنا طفلة عندما كنت ألعب لعبة رعاة البقر والهنود الحمر لأن أمي لم تكن تسمح لنا بأن نحمل المسدسات اللعبة ولذلك كنت دائمًا ما أقوم بدور أحد الهنود غير المسلحين وأنتظر في سلبية الوقوع في الأسر أو أي مصير تعيس.
وخلال ثواني كنا جميعًا نطلق النار عشوائيًا على الأشجار، واندهشت لانغماسنا في هذا الحدث ونحن نطلق النيران بغزارة حفاظًا على حياتنا وكأنها معركة حقيقية، وتأكدت بما لا يدع مجالا للشك أن لو كانت هذه معركة حقيقية لمات على الأقل نصفنا ــ إن لم يكن كلنا ــ بنيران صديقه.
وتوقف إطلاق النيران وساد هدوء غريب، وكنت على يقين من أن مدربينا الذين يقومون بدور الأعداء لديهم ثلاث مجموعات أخرى ليقوموا بإرعابها وأنهم لا يرغبون في إهدار كل ذخيرتهم وطاقتهم علينا، فجلست على الأرض لألتقط أنفاسي.

وقلت لديريك الذي لاحظت فجأة أنه راقد على بطنه على بعد قدم مني : أعتقد أنهم ذهبوا.

فقال : أعتقد أنك محقة.

وقفز ديريك من على الأرض بخفة في حركة أكروباتية، وخرجت سالي من خلف مجموعة من الأشجار ووجهها مغطى بالأوحال وشعرها مبعثر وكأنها نجت للتو من تحطم طائرة وتلفتت حولها في شبه ذهول وهي تنظر لحزام ذخيرتها التي أسقطته في بداية المعركة، واقترح ديريك أن نعيد تجمعنا ونتحرك لمكان آمن لنرسل إشارة للقيادة.

* * * * *

وجاءتنا التعليمات التالية تأمرنا بالتحرك ليلًا لاختراق عدة أميال داخل أرض العدو بحثًا عن مكان يستخدم من قبل خلية إرهابية كنقطة انطلاق لعملياتها. وبمجرد وصولنا يتوجب علينا جمع المعلومات الاستخباراتية عن العدو قدر المستطاع.
وتعبنا بشدة لكننا كنا على يقين من أنه ليس أمامنا خيار آخر، وتمكنا في تلك الليلة بمعجزة من أن نخفي تحركاتنا عن الأعداء على الرغم من أننا كنا نسمع دورياتهم تتحرك بجوارنا بشاحناتها ذات الضجيج العالي ونسمع أصوات اشتباكاتها بالنيران مع المجموعات الأخرى.
وبعد ساعات طويلة من التقدم وصلنا إلى كوخ بالغابة مضاء من الداخل، وعرفنا من خلال استطلاعنا للكوخ أنه مركز عمليات المجموعة الإرهابية واختبأنا خلف أحد الحوائط حتى سمعنا صوت شخص يصيح بأنه لاحظ حركة في الغابة فانبطحنا أرضًا، وأعتقد أن ديريك لم ينتبه لي عندما سألته عما إذا كانت هذه التدريبات تذكره بالأيام الخوالي بالقوات الخاصة.
وأخيرًا صاح أحد الإرهابيين وقال بلكنة أجنبية قبل أن يبدءوا في الانتقال من معسكرهم " سنرحل الآن "، وبمجرد ابتعادهم عنا تقدمنا نحو الأمام ونحن نتعثر في الظلام الواحد تلو الآخر ونطلق اللعنات همسًا، وبدا الكوخ فارغًا حتى أطلقت سالي

صيحة ابتهاج عندما لاحظت باب سري يؤدي إلى سرداب مملوء بأغراض الإرهابيين التي كانت عبارة عن صحف ومجلات باللغة العربية، وبعض المواد التي عرفنا أنها تستخدم في تصنيع القنابل بالإضافة إلى بعض أوراق اللعب.

وجلسنا جميعًا وكلنا نشاط نصنف هذه الأشياء، وكانت مهمتي هي كتابة تفاصيل كل الأشياء التي وجدناها لأنه لم يكن بيننا من يعرف كيف يستخدم آلة التصوير الرقمية عالية التقنية التي أعطتها لنا القيادة في مهمتنا، فرسمت كوخًا خشبيًا صغيرًا ذكرني ببيت جورج واشنطن الشاب، وأضفت سهمًا طويلًا يشير لأرضية الكوخ وكتبت عليه مدخل سرى.

وبينما كانت بقية المجموعة تتحرك بهمة في أرجاء السرداب تغير الموقف فجأة بصورة كلية ليصبح مناسبًا للتعرض لهجوم، وبعد ثوان رأيت أضواء شاحنة تتقدم على الحشائش في اتجاهنا ؛ فأعددت سلاحي ووقفت خلف ساتر.

ونزل رجل من الشاحنة لم أره من قبل وهو يجر قدمه الملفوفة بقماش وتقدم نحو الكوخ، وفكرت " أينبغي أن أطلق عليه النار ؟ " ثم أحسست بالخزي من نفسي بسبب طريقة تفكيري البربرية.

ونادى الرجل قائلًا : أنا مصاب، وهناك آخرون مصابون.

فناديت باقي المجموعة التي أسرعت بالخروج من السرداب،

وفتحت الباب وأنا أحمل سلاحي، وصاح الرجل : " نحن بعثة أمريكية، وقد تحطمت طائرتنا وهناك العديد من الجرحى. "
وأدركت فورًا أن الهدف من هذا التدريب هو التطبيق العملي للتدريبات التي تلقيناها على العلاج وبطبيعة الحال فإن الرجل الذي وصل إلينا هو جريح من ضمن الجرحى المصابين بإصابات من درجات مختلفة ويرقدون بجوار الطائرة المحطمة انتظارًا لوصولنا.
وأبلغت هذه المعلومات للقيادة فأخبرتنا أن مروحية هيلكوبتر ستصل إلينا بعد لحظات، وقال لي المتحدث على الطرف الآخر : " فطيرة القدر لا تشبع إلا خمسة أفراد. " وتعجبت من عدم استخدامه الشفرة المتفق عليها لكني فسرت هذا التعليق على أنه يقصد به أن المروحية لا يمكنها أن تنقل أكثر من خمسة أفراد من الجرحى.
واتفق معي ديريك في ذلك وقال : سيبقى الآخرون بالغابة.
وقال مارك في نبرة حملت السخرية والإرهاق : إنني أتساءل عن مغزى هذا التمرين ؟ !
فقال ديريك في تذمر وهو ينظر لسالي : إذا كانوا يريدون أن يعلمونا كيف نصنف أولويات إنقاذ الآخرين على حسب أهميتهم النسبية فإنه كان يتوجب عليهم أن يقصوا من الأسبوع الأول من

التدريبات نصف الحمقى بهذا البرنامج.

وقسمت المهام علينا بسرعة، وكانت مهمتي هي فحص الإصابات وتحديد المصابين الذين ينبغي أن ينقلوا بالطائرة، وميزت ملامح بعض الأشخاص العاملين بالمعسكر وهم متمددون للقيام بدور الجرحى بالعراء في مكان بشع مكتظ بالناموس والقراد لساعات انتظارًا لمجموعات المتدربين الحمقى لينقذوهم، وقررت بحزم أن السيدة التي تعمل بمطعم القاعدة يجب أن تفوز بمكان على الطائرة لأنها دائمًا ما كانت تسمح لي كل صباح بأن آخذ صلصة وشرائح لحم الخنزير مع البيض خلافًا للتعليمات التي كانت تنص على أن آخذ مع البيض شيئا واحدا فقط، لكن الخمسة الذين ينبغي أن ينقلوا بالطائرة فرضوا أنفسهم علي عندما أدركت أن من بين الجرحى سفير أمريكي.

وقال ديريك : ينبغي أن يترك من يعانون من جراح خطيرة ليلاقوا مصيرهم لأنه ليس لدينا الوقت أو المعدات للاعتناء بكافة الجرحى.

وبمجرد وصول الطائرة بدأنا ننقل الجرحى الخمسة الذين بدوا أقرب قدرة على التماثل للشفاء، وكان المشهد أشبه بالدراما الكوميدية فقد كنا نحاول تخفيف الآلام عن المصابين أثناء نقلهم بعناية إلى الطائرة، وكان السفير الأمريكي ــ الذي هو في

الحقيقة أحد حراس المعسكر ــ يؤدي دوره بتأنق ونواح انفعالي خفيف عند كل حركة نقوم بها أثناء حمله ويقول : " متى ستعرف الخارجية هذه الأنباء ؟ ! "
وبمجرد أن حلقت الطائرة مرتفعة وجعلت شعرنا يتطاير مع الهواء والأوحال تتطاير على وجوهنا ؛ توقف بقية الضحايا عن تمثيل دورهم وصاحوا فينا في حنق ليبعدونا عنهم. وكانت مجموعة المتدربين الثانية في طريقها.
وأثناء ابتعادنا لمحت عاملة المطعم وهي تبدل ضمادتها بحرق يفترض أنه حدث لها بمجرد سقوط الطائرة ؛ فلوحت لها سرًا وردت على تلويحي قبل أن أتوارى في الغابة.
وبعد أن توغلنا في الغابة لبعض الوقت بدأت الشمس في الطلوع وداعب النوم جفوننا، وقبل أن نخيم اتصلت بالقيادة مرة أخرى وأحسست في صوت المدرب بالمرح الأحمق وهو يقول : " لديكم مهمة أخرى "، وأعطاني بالشفرة إحداثيات موقع يفترض أنه مصنع أدويه يعتقد أن به مواد لإنتاج أسلحة الدمار الشامل.
وتمثلت مهمتنا في الوصول للموقع واستطلاعه والتسلل إليه إن أمكن والرجوع برسومات وصور له، وبالإضافة لآلة التصوير الرقمية عالية التقنية التي كانت معنا فإن كل فريق كان مزودا بمنظارين للرؤية الليلية تحسبًا لاحتمال الحاجة إلى استخدامها.

وتملك منا الإرهاق والتعب بالإضافة إلى الجوع الشديد حيث لم نتمكن من القيام بإسقاط ناجح للطعام إلا مرة واحدة وأكلنا كل الأطعمة التي أتتنا في هذه المرة باستثناء القليل من معلبات زبدة الفول السوداني وبعض المملحات الصناعية والقليل من الكعك، وبغض النظر عن الجوع الذي سيطر علينا فإننا أصبحنا عصبيين بشدة، وكنت على يقين من أن ديريك وسالي سينتهي بهم المطاف بأن يقتل أحد منهم الآخر أو أن يناما معًا بعد أن وصلت العلاقة بينهم لمنحدر غريب.

وتقرر أن أقوم أنا ومارك بالتحرك في منتصف الليل في اتجاه الهدف وكان أمامي عدد من الساعات يمكنني فيها القيام ببعض المحاولات لمعرفة كيفية استخدام آلة التصوير فقضيت المساء كله ألتقط صورًا لقدمي ولسالي التي كانت تنام تحت معطف علقته على بعض الأغصان.

وتحركت أنا ومارك في منتصف الليل بهدوء وأشعل مارك أحد سجائره المهربة وسرت في بطء تحت ثقل المعدات التي أحملها، وكانت وجوهنا مموهة واستخدمنا منظار الرؤية الليلية الذي كان أحد عوامل إعاقتنا بدلًا من مساعدتنا، فقد كان يتسبب في سقوطنا المتكرر في الحفر أو اصطدامنا بالأشجار الضخمة.

وعندما سمعنا صوت هدير إحدى الشاحنات وهي تقترب ارتمينا

في إحدى الحفر الموجودة على جانب الطريق فوقعت على شجرة أسقطتها الرياح بينما وقع مارك في بقعة طينية كبيرة تسببت في تطاير بعض الطين حولها من شدة سقوطه، ومرت الشاحنة بجوارنا دون أن تلحظنا وإن كان من بها قد أطلقوا عددًا من الأعيرة النارية في الهواء.

وزحفنا على بطوننا جنبًا إلى جنب حتى وصلنا إلى سلك شائك يحيط بالمنطقة المستهدفة التي ضمت ثلاثة مباني ومروحية هليكوبتر وشاحنة كبيرة جلس فيها حارسان بشعي المظهر. وتمكنت من رسم أغلب المباني وأخذ بعض الصور بآلة التصوير الرقمية، وانشغل مارك باستخدام جهاز فحص المجال البصري ليتأكد مما إذا كانت هناك فتحة في السور أو أي طريقة للدخول.

وتوقف مارك عن الزحف فجأة عندما أتت إشارة من جهاز اللاسلكي الذي نسي أن يخفض صوته أو يغير تردد موجاته وأسرع إليه محاولًا أن يسكت الضوضاء العالية التي أصدرها الجهاز، وتجمدنا دون أن نعرف ما الذي ينبغي علينا فعله، وتنبه الحارسان للصوت فورًا ونزلوا من الشاحنة فقمت أنا ومارك وأطلقنا ساقينا للريح في اتجاه الغابة، ولم نهتم هذه المرة باستخدام منظار الرؤية الليلية الذي تدلى من عنقي ونحن نجري

في الغابة حالكة الظلام.
وعندما وصلنا الموقع الذي يخيم فيه باقي الفريق كان قلبي يدق بعنف وأنا أشعر بالخوف والإرهاق والبهجة في آن واحد. ولم أحتج أنا ولا مارك لقوة ملاحظة لأدرك أن الجميع ارتحلوا من المخيم، وكانت الخيام منصوبة وبعض الأشياء الخاصة بهم في أماكنها مثل صدرية سالي البنفسجية التي وضعت على الأغصان لتجف، وكانت كل الأشياء الموجودة حول المخيم بمكانها لكن لا أحد هناك.
وتغير هذا الموقف بسرعة.
انبثق لنا من وسط الغابة ستة رجال مسلحين وجوههم ملثمة وأحاطوا بنا من كل جانب، فقفزت أنا ومارك إلى الخلف بقوة متباعدين عن بعضنا ككرات البلياردو.
وصاح أحد الرجال قائلًا : " ألقوا أسلحتكم "، وأطعت أنا ومارك هذا الأمر فورًا، ووضع رجلين كيسين على رؤوسنا، وارتعبت بشدة عندما أصبحت لا أرى شيئا وطمأنت نفسي بأن هذا مجرد جزء من اللعبة وسرنا بضعة أمتار قبل أن نلقى في مكان أشبه بالكهف، وأدركت من خلال ملاحظة الروائح المحيطة بي أننا بصندوق شاحنة مع بقية أعضاء الفريق.
وتبادلنا حكايات كيفية وقوعنا في الأسر وأحسست بالرعب،

وعندما بدأ محرك السيارة يدور تملكتني رغبة عارمة في أن أرى صديقاتي إيما وإميلي اللتان تخيلت أنهما في هذه اللحظة تتجرعان الخمر بشقق تورتيلا في القرية الشرقية، أو أنهما في طريقهما لشاطئ بريتون كعادتنا في الأيام الخوالي، أو أنهما تشربان الفودكا وتأكلان الأسماك الصغيرة المملحة بمطعم روسي قرب البحر، وقلت لنفسي " لماذا أنا لست معهم ؟ ما الذي أفعله هنا بحق الجحيم ؟ "

وبينما السيارة تتحرك بنا أزلت الأسطوانة من آلة التصوير ووضعتها بحذائي ومزقت الرسومات وخبأت أوراقها الممزقة في جيبي.

وتوقفت السيارة وفتح بابها الخلفي وأنزلنا المختطفون على أرض عشبية مكسوة بالطين والعصابات لا تزال على عيوننا، ودوت موسيقي بلقانية خفيفة من مكبرات الصوت، واندهشت وقلت لنفسي " يا إلهي أين نحن ؟ "

وظللنا قرابة ساعة كاملة نروح ونجيء في خطوط مستقيمة ودوائر ويدا كل واحد منا على غطاء رأس الشخص الذي أمامه ومن حين لآخر تنهرنا أصوات غريبة آمرة إيانا أن نضغط غطاء رأس بشدة على عنق الشخص الذي نتبعه، وإذا أبطأ شخص أو تعثر فإن الجنود ينهالون عليه ضربًا بالركلات

وبكعوب البنادق، وسمعت صوت سالي وهي تستغيث بصوت مختنق طلبًا للهواء، وعلى الرغم من أني كنت أدرك تمامًا أننا سنتعرض لاختبار الصمود إلا أني لم أكن مستعدة لهذه الدرجة من الواقعية، وكافحت باستماتة من أجل أن أخفف قبضة الغطاء عن عنقي وسمحت بذلك للجنود أن ينهالوا علي بالركلات المصحوبة بالإهانات اللفظية مثل : " تحركي أيتها الكسولة اللعينة. "

وقادنا الجنود بعد ذلك لحجرة مظلمة لكنها فسيحة ورفعوا عنا أغطية الرأس فرأينا المجموعات الثلاث الأخرى مصطفة على الأرض الخرسانية في صمت وخضوع، وقلقت بشدة عندما اكتشفت أن مختطفينا ليس من بينهم أحد مدربينا أو العاملين بالمعسكر، ونظرت حولي بحثًا عن عاملة المطعم ذات الوجه الأسمر فلم أجدها، وخطرت على بالي احتمالية أن تكون المزرعة تعرضت لهجوم قوات معادية نجحت في الاستيلاء عليها وقتل كل المدربين وكافة العاملين.

وتم إجبارنا على الوقوف وأيدينا مربوطة خلف ظهورنا، وأمرنا أحد الحراس أن نلتزم الصمت قبل أن يخرج هو وباقي الحراس ويتركنا لوحدنا في الغرفة الأسمنتية شديدة الرطوبة.

وبمجرد خروج " الأشرار " تلفتنا حولنا ونظرنا لبعض ونحن

نبتسم في شجاعة، وكنا قد أخبرنا بأنه مهما حدث فيجب علينا الالتزام بغطائنا وعدم الإفصاح عن علاقتنا بوكالة الاستخبارات المركزية. وكنت على يقين من أن منظرنا يوحي بأننا تابعين للوكالة بسبب وجوهنا المصبوغة وأزياءنا العسكرية المموهة ومناظير الرؤية الليلية التي نحملها وآلات التصوير ؛ كل هذا قرب مصنع أسلحة نووية سري للغاية.

وكنت أنا ومارك من بين أول من استدعي للاستجواب وكذلك إيثان المسكين الذي لم أراه منذ أيام لأنه لم يكن بفريقي، وبدا إيثان شاحبًا من شدة الرعب عندما سحبه الحراس هو وأوفيليا التي بدت ــ على خلاف إيثان ــ تترنح من شدة التعب.

وأعاد الحراس وضع الأغطية على رؤوسنا قبل أن نخرج من الحجرة، وبعد فترة طويلة من السير والتجوال بلا هدف أدخلنا مقطورة ونزعت عنا الأغطية ووجدت نفسي أقف أمام رجل اعتقدت أنه المستجوب، وبدت ملامح هذا الرجل عدائية ووجهه أشبه بوجه ابن عرس ومعه جنديان مسلحان.

وسألني : اسمك ؟

فأجبته.

فابتسم المستجوب عند سماع اسمي المستعار وانحنى نحوي وهو يعبث بأحد طرفي شاربه وقال : حسنًا يا آنسة موسبي، ما

الذي تفعلينه هنا ؟

وبينما كان المستجوب يعذبني بسؤاله الذي أعاده مرارًا وتكرارًا عن سبب وجودي هنا أصررت على التمسك بقصة " السياحة "، وأخيرًا أمسك الرجل بورقة عليها رسم لمصنع الأدوية والمعدات النووية، وبدا الرسم من عمل مارك بلا أدنى شك.

وقال المستجوب وهو يرتب الأوراق أمامه وكأنه يجمع قطع أحجية (بازل) : وجدنا هذه الأشياء بجيب زميلك الذي قبض عليه معك.

قلت : لا أعرف أي شيء عن هذا، كل ما في الأمر أننا اعتبرناه موقعًا مثيرًا بدا أشبه بمتحف أو شيء من هذا القبيل.

وكان كلانا على يقين من أن هذا التبرير غير منطقي فضاقت عينا المستجوب وقال : لكن صديقك مارك يخبرنا شيئًا مختلفا تمامًا.وكنت على يقين من أن مارك لن يكشف هويتنا بسهولة فضحكت على ما قاله وأدركت أني أخطأت في هذا التصرف عندما ضربني أحد الحراس ضربة أطارتني من مقعدي، وكافحت لإعادة نفسي إلى توازني واكتشفت أني لم أتأذي بالقدر الذي توقعته، وإنما صدمت وأحسست بالإهانة.

ولحسن الحظ أني أعدت إلى الحجرة الخرسانية مرة أخرى، ووجدت باقي زملائي يلفون في دائرة ويصيحون على أنغام

موسيقي صربية صاخبة " أنا جبان، أنا جبان " وثلاثة حراس يدفعونهم بشدة للزيادة من هذا الصياح ويضربونهم بكعوب البنادق. وتوقف هذا المهرجان تقريبًا في نفس لحظة وصولي وطلب مني أن أقف في منتصف الغرفة، وصاح أحد الجنود : " أترون هذه المرأة، لقد خدعتكم للتو وأخبرتنا القصة الحقيقية وأنكم تعملون بوكالة الاستخبارات المركزية. "

وأحسست بوجهي يحمر من شدة الغضب ورغبت في أن أصرخ دفاعًا عن نفسي، لكني كنت متأكدة من أن الآخرين يعرفون تمامًا أني لست خائنة، وأني لست من النوع الذي ينهار من الاستجواب الأول، وعادت أوفليا وإيثان ومارك واتهموا أمام الجميع بالخيانة كما حدث معي تمامًا، ثم تم إيقافنا بمنتصف الحجرة وقدمت لنا قطع بسكويت وطلب من الآخرين " استجواب الخونة "، وفكرت فيما إذا كان من الأفضل أن أرفض البسكويت، لكني كنت أموت من شدة الجوع بالإضافة إلى أن البسكويت كان لذيذًا.

وعندما يئس المختطفون من هذه اللعبة سمح لنا جميعًا بالعودة للجلوس على أماكننا على الأرض حيث جلسنا في صمت لعدة ساعات نعاني من الموسيقي الصربية البغيضة والأسر الذي كان يتخلله من حين لآخر دعوة واحد من الطلبة للاستجواب، وإجبار

الباقين على الصياح أو الوقوف على قدم واحدة لبضعة دقائق أو تأدية تمارين الضغط أو السير في حلقات ونحن ننعت أنفسنا بالجبن أو الحماقة.

واستدعيت أنا وإيثان ومارك وأوفليا للاستجواب قرابة العشر مرات، وتعجبت لقيام الوكالة بترتيب هذا المعسكر القاسي الذي بدا شديد الشبه بمعسكر أسر حقيقي، وكنت متأكدة من أن الوكالة عينت موظفين جدد خصيصًا لهذا المعسكر، ولم يبد هؤلاء الموظفين أي نوع من الود الذي اعتدناه من مدربينا فقد كان هذا النوع من الأشخاص واقعي الأداء بصورة غير عادية لدرجة أني اقتنعت أن النظر في عين أحدهم ربما يمثل خطورة، لكني كنت اختلس النظر إلى وجوههم من وقت لآخر بحثًا عن أي نوع من التعاطف أو التحفظ ؛ وأكثر من كل هذا ؛ البحث عن أي علامة تدل على أننا لا نزال في اللعبة، وشيئًا فشيئًا بدأت ثقتي تتبخر.وبينما نحن نرفع أيدينا في الهواء ونسير في دوائر ونحن نصيح " أنا فاشل " حاول تيد ــ المشهور بالتحفظ وإطاعة الأوامر ــ إشعال ثورة فصاح فجأة : إنهم قليل ونحن كثير، هيا نتغلب عليهم ونفر.

وتوقفنا ننظر إليه في صمت والجنود ينهالون عليه ضربًا وهو يحاول المقاومة ويصيح : هيا يا شباب ساعدوني.

وأقل ما يمكن قوله هو أن فشل تيد في إِثارة حماس الباقين كان شديد القسوة على قلبي، وتحيرت من مجموعتنا بالكامل التي أثبت كافة أفرادها ـــ باستثناء تيد ـــ عدم الاستعداد للثورة، وعلى الرغم من أن الخط الفاصل بين الواقعية والمحاكاة بدأ يزول إِلا أن إيماننا بقرب انتهاء الاختبار وإِطلاق سراحنا كان يزيد يومًا بعد الآخر، وحسبت في عقلي أننا أسرنا يوم الإِثنين، وسيطلق سراحنا يوم الجمعة لأنه توقيت انتهاء التدريب العسكري المقرر سلفًا، ولأن أهالي بعض الطلاب ينتظرونهم. ودخل علينا الجنودِ بِأغطية الوجه وقالوا لنا : " ضعوا هذه الأغطية على رؤوسكم أيها القطط " ثم فصلوا الرجال عن النساء، وساقونا إلى الخارج كالقطيع.

وبعد دقائق حشدت الفتيات الثلاثة عشرة في زنزانة خرسانية ضيقة جدًا، وقال لنا أحد الحراس : " ابقوا واقفين "، ثم أغلق علينا بابا حديديا، واعتصر قلبي صوت صرير المفتاح وهو يدور فيه من الخارج.

وبمجرد ذهاب الحراس سحبنا الأغطية من على رؤوسنا، وأصبح بإِمكاننا أخيرًا أن نرى وجه بعضنا في الظلام وتلفتنا حولنا بحثًا عن مكان نجلس أو نتقرفص فيه. وعندما سمعنا خطوات الحراس الثقيلة تقترب قفزنا جميعًا على أقدامنا بأقصى

سرعة وأعدنا وضع الأغطية على وجوهنا، وتعجبت من السرعة التي انهارت بها عزائمنا القوية بمجرد وقوعنا في الأسر.

وبدأت السلسلة الثانية من الاستجوابات واستدعيت كل امرأة منا مرة واحدة على الأقل، وبعضنا استدعي عدة مرات، وأجبر بعضنا من حين لآخر على القيام ببعض الممارسات المهينة إرضاءً لجمهور الحراس المعجب بذاته. وأجبرونا على أن نجلس في وضع القرفصاء حتى نسقط من شدة التعب وأن نزحف على الطين وترش علينا المياه وأن نجري حول المعسكر والمدافع الرشاشة تطلق أعيرتها النارية في الهواء.

وكان العقاب الذي ظن الجنود أنه سيكون الأسوأ بالنسبة لنا هو " الذهاب للسور "، واسترحت في الحقيقة لهذا الإجراء الذي تم فيه تقييدنا من أيدينا بالأساور وربطها في سور أظن أنه كان السور الذي يحيط بمعسكر الأسر، وتم تجاهلنا هناك تمامًا باستثناء قيام أحد الجنود بالتوقف أمامنا من حين لآخر لإلقاء بعض السباب واللعنات علينا أو لإدلاء بعض الأطعمة أمام أنوفنا، وتعرضت للضرب مرارًا أثناء الأسر بسبب " الفشل في التعاون " كما أخبروني.

وغمرتني في هذه الأثناء مشاعر السعادة والتصميم لجهل

الآسرين أن السور يمدني بالراحة لأني على أقل تقدير بالخارج وأستمتع بقطرات الندى الخفيفة التي تسقط في أواخر فصل الصيف بالإضافة إلى النسيم الهادئ ؛ بغض النظر عن كون وضعي زري، وبغض النظر عن موجات الناموس التي يستحيل طردها بسبب القيود التي بأيدينا، وكانت هذه الظروف أفضل بكثير من ظروف الآخرين الذين يعانون من موجات الألم والرعب في زنازين ضيقة نتنة.

وانهارت بعض النساء وظللن يبكين بينما جلست جين سوك في هدوء وصمت دون أن تظهر عليها أي انفعالات وهي تضم يداها إلى صدرها وتحملق أمامها، وأحسست بنوع من الإثارة الشديدة تجاه ثبات جين سوك في وجه كلًا من وحشية آسرينا ومحنة زملائنا، وجلست بجوارها أستمد الهدوء من السور.

واعتاد الجنود على أن يعطوا واحدة منا بين فترات الاستجواب بشكل مهين تفاحة أو كعكة أو كيس بسكويت فنتقاسمه معًا، ورفضت جين سوك بطبيعتها كل عروض التغذية لتظهر قوة إرادتها من ناحية، ومن ناحية أخرى سموها وأفضليتها علينا.

ودخلت علينا برندا ذات مرة بعد الاستجواب وهي تبكي بتشنج فاقترب بعضنا منها ـــ بمجرد أن أغلق الحراس الباب خلفهم ـــ وحاولن تهدئتها فقالت : " لقد ضربوني "، وأزاحت عن كمها

فرأينا آثار كدمات وسحجات بذراعها، وبعد ثوان عاد الحارس ذو الملامح الآرية والعيون القاسية وصاح : " اخرسي يا بقرة. " وتجمع عدد من الفتيات أمام برندا مشكلين درعًا بشريًا لحمايتها فلم يؤد هذا إلا إلى زيادة حدة هياج الحارس الذي أبعدنا عنها وهي لا تزال تذرف الدموع.

ولم يضايقني شيء من قبل قدر ما ضايقتني إهانة هذا الرجل لبرندا التي بدت قاسية وغير مبررة، وخرج الحارس من الزنزانة تاركًا برندا خلفه مخلوقة بائسة متكومة على الأرض فتأججت في صدري مشاعر الثورة وقلت : يجب أن نخطط للهرب، ما نحن فيه هراء، وكان تيد محقًا. .. نحن أكثر منهم عددًا، هيا نهرب من هذا الجحيم.

وأظن أني لمحت نظرة خوف بعين سالي على الرغم من أنها ظلت صامتة، وكان رأي بقية الفتيات أن الثورة تنطوي على مخاطر كبيرة، وقالت سالي : يستطيع أضعف الحراس أن يتغلب على أقوانا.

وقالت أوفيليا ونبرات صوتها تعكس التردد أكثر من الخوف : إنهم مسلحون.

وهزت سالي رأسها في أسي وقالت : إذا كان هذا ما يفعلونه معنا، فما الذي يفعلونه بالرجال ؟

وكانت سالي من النوع الذي يهتم بالآخرين أكثر من اهتمامها بالمآسي التي تعانيها هي نفسها.

قلت : " ليس لدى القدرة على البقاء هنا لليلة أخرى "، وقلت هذا وأنا أعلم تمامًا أني أستطيع بكل تأكيد أن أبقى أكثر من ذلك ؛ والأرجح أني سأبقى، وأعتقد أني كنت أشتاق للقيام بنوع من الهجوم.وامتلك عدد من الفتيات قدرًا من الشجاعة ليحاولوا الهروب، لكن بمجرد أن بدأنا وضع خطة للهروب فتح الباب وظهر نفس الهمجي الاستبدادي الذي كان يوبخ برندا وأمرني وإياها بالخروج.

وتمكن ضوء الشمس من اختراق القماش الثقيل لغطاء رأسي وأحسست بدفء الشمس، وبدا من الهواء أننا في الصباح الباكر. وقال الحارس : " ارتميا على الأرض "، وظللنا لدقائق تالية نزحف ــ أنا وبرندا ــ على الطين الثخين ونحن حريصين على ألا نرفع رؤوسنا من الوحل حتى لا يضربنا الحارس الذي ظل يصب علينا الإهانات طوال الوقت، وعندما كانت برندا تختنق أو تبكي من شدة الألم كنت أتحرق شوقًا للتخفيف من معاناتها ؛ لكني كنت مدركة تمامًا أن هذا سيؤدي إلى المزيد من العقاب لكلانا.وأخيرًا أخذ الحارس برندا بعيدًا عنى، ثم أدخلني مقطورة الاستجواب ونزع عن وجهي الغطاء فرأيت بالإضافة لعدد من

المستجوبين والحراس ــ الذين أصبحت وجوههم مألوفة بالنسبة لي ــ روب ووارن مقيدان بالأساور في مقعد معدني.
والتفت أحد المستجوبين لي وقال : أتعرفين هذان الرجلان ؟
فقلت : " لا "، فقد كان من المفروض أن ننكر معرفتنا بأي أحد خارج الفريق الذي قبض علينا معه.
والتفت المستجوب لوارن وقال وهو يشير لي : أعتقد أنك أخبرتني أنك تعرف هذه المرأة.
فقال وارن في شبه مرح : " نعم "، وبدا على وارن أنه سعيد لرؤيتي بالرغم من أني بدوت أشبه بإنسانه متهالكة، واستطرد وارن قائلًا : " لقد درسنا معًا بهارفارد، هذه ليندسي التي كانت تواعد زميلي في السكن "، فتأوهت بصوت مسموع ودارت عينا روب.وقلت لوارن وعيناي تخترقاه : " لا بد وأنك مخطئ "، وأكدت للمستجوبين في الدقائق التالية أني لم أقابل هذا الشخص أبدًا ولا أعرف حتى اسم زميله الذي يدعي أني كنت أواعده، وبدا على المستجوبين استمتاعهم بأن في حوزتهم جامعيان سخيفان.وأثناء انهماكي في التأكيد على مزاعمي من أجل إنقاذ كلانا ؛ زاد وارن من درامية الاعتقال بالنواح والبكاء ونعى حظه العاثر بعد أن كان محاميًا وقال : سأقاضيكم كلكم.
وتجاهل الجميع وارن واتجه الحارس إلى روب وقال له : " بما

أنك تقول أنك لا تعرف هذه المرأة، أعتقد أنه لا توجد أي روابط بينكما "، ثم أشار لي وقال : " إذا وافقت على أن أقتل هذه المرأة ستنال حريتك فورًا ".

وحرك روب رأسه رافضًا بينما كان وارن منهمكًا في نوبة حزنه الميلودرامي وهو غافل تمامًا عن الخطر الذي أتعرض له.ثم صوب الحارس سلاحه لي ووضع أصبعه على الزناد وقال في انفعال شديد : إن لم يعترف أحدكما بأنكم تابعين لوكالة الاستخبارات المركزية فسأقتلها ".

وخطر على بالي أن هذا الرجل فقد عقله ومنعت نفسي بشدة من التقيؤ أو الإغماء ونظرت للباب باهتياج شديد ولم أعد أبالي ما إذا كان هذا يحدث في التدريب أو الواقع ولم تسيطر على عقلي إلا الرغبة في الخروج.

ولم يأخذ روب الكثير من الوقت حتى تنهار عزيمته ؛ ورفع جسده من على مقعده المقيد فيه بالأساور وقال : " كفى "، وأصبح روب بيني وبين الحارس وتدلى المقعد من معصمه وقال : " نعم، نحن من وكالة الاستخبارات المركزية ".

وامتلأ وجهي بالدموع ووددت لو أصرخ بأعلى صوتي من شدة الغضب، وأحسست بملوحة دموعي الساخنة التي تدخل فمي المرتجف تهدئ قليلًا من روعي.

وسمعنا فجأة صوت الشاحنات المألوفة لنا تقترب من المكان فتصنع مختطفونا الرعب وألقوا بأسلحتهم وأسرعوا لتحرير روب ووارن ثم خرجوا بسرعة من المقطورة، وحاولت أن أعانق روب إلا أنه أسرع للاستيلاء على الأسلحة الملقاة على الأرض قبل أن يحصل عليها وارن، ولم يفهم وارن حتى هذه اللحظة أننا على وشك نيل الحرية واستمر في البكاء والعويل.

وخرجنا من المقطورة وشاهدنا المعسكر من الخارج للمرة الأولى فاكتشفنا أنه بقعة طينية فسيحة محاطة من كافة الجوانب بسلك شائك، وتوقفت الموسيقي الصربية الشعبية، ولمحت على مسافة مني أحد المدربين وهو يرفس باب كوخ خرساني صغير ويحرر بقية النساء.وخرجت سالي أولًا وهي تصيح في ابتهاج، وتلتها أوفيليا وقد تبولت على نفسها كالمعتاد، ثم برندا التي تغطي وجهها وملابسها تمامًا بالطين، ونظرت لملابسي فوجدت نفسي في غاية القذارة، واستعدت توازني النفسي مرة ثانية وكفكفت دموعي، وقلت لنفسي إنها لم تكن سوى بضعة أيام، إلا أني شعرت وكأن احتجازنا طال لأسابيع، ونظرت للكتائب الثلاث وهي تخرج للضوء الواحدة تلو الأخرى وهي مصدومة وتتأذى من ضوء الشمس، فأدركت إلى أي مدى أصبحت قريبة من أغلبهم. * * * * *

اغتسلنا في هذه الليلة وارتدينا ـــ أخيرًا ـــ ملابس مدنية، ولم نعر أي اهتمام لتعليمات مكتب الأمن المشددة فيما يتعلق بالخمور، وقضينا ساعات نتبادل القصص المبالغ فيها للأحداث التي مرت بنا أثناء الاعتقال، وامتدح المدربون جين سوك بشدة على ثباتها وعدم إظهارها أي علامات ضعف على الإطلاق.
واقترب مني المدرب أيد القاسي وقال لي وكأنه يتبادل معي معلومات سرية : سمعت أنك كنت تخططين للهروب يا آنستي.
قلت : ظننت أنكم نسيتمونا يا شباب.
فقال وهو يبتسم على غير عادته : " هذا هو ما أردنا أن نجعلكم تظنونه، وكنت مضطرًا لإخراجكم في النهاية "، ثم غمز لي بعينه وانصرف.
واستراحت المجموعة كلها عندما تحررنا من الأسر حتى وارن تشجع بسبب نجاته التي لم يتوقعها، واحتفلنا كلنا وإن كانت برندا ظلت مستاءة من الضرر الذي وقع عليها وظلت محتفظة بالكدمات لأسابيع تالية وهددت بمقاضاة الوكالة من أجل إلغاء اختبار الصمود وعدم تطبيقه على المتدربين الجدد.
وعلى الرغم من كرهي لهذا التمرين إلا أني وجدته مفيدًا فقد اندهشت من قوتنا وتقاسمنا الطعام وتعاطفنا مع بعضنا، وكذلك استغربت ضعفنا واسترجعت ذكريات خجلي وانهزامي عندما

اتهمني المختطفون علانية بالخيانة وعندما أكلت تلك القطع من البسكويت التي قدموها لي، واندهشت من انهيار دموعي الجارف عندما صوب نحوي سلاح وواجهت نهايتي، وتأرجحت مشاعري في هذه اللحظة بين الرعب والإحساس بالذنب والحزن والحفاظ على النفس.غادرنا المزرعة في اليوم التالي كما وصلنا لها في المرة الأولى راكبين حافلة مدرسة صفراء أعادت لي ذكريات المآسي التي واجهتها وذكريات الطفولة المبكرة، وأرحت رأسي على النافذة ونظرت للغابة الكثيفة وهي تتباعد عن أنظارنا ليحل محلها المنظر المريح للافتات الطريق السريع الخضراء ومطاعم الوجبات السريعة، وكنت راضية عن نفسي، ونظرت طويلًا في المرآة فرأيت روحي خالية من الأنانية.وذكرت نفسي بأن أمامنا طريق شاق من التدريب، وليست هذه النهاية بل هي البداية، ولم أكن مبتدئة سيئة على كل حال.

*****

الفصل الخامس

قدت أنا وإيثان دراجتين في منتصف الليل للتنزه في الغابات المحيطة بالمزرعة بعد أن رجعنا إِليها منذ أسبوعين لنقضي بها شهورًا أخري من التدريبات، وكان الهواء مشبعًا بالرطوبة كعادته في هذا الوقت من الصيف، واختلست الغزلان النظر إِلينا من بين الأشجار وعزفت الضفادع سيمفونية نقيق غريبة، وأحسست أن مثل هذه النزهة بالدراجة هي من أجمال متع الحياة وأظن أن إِيثان كان يشاطرني نفس الرأي.

وتبادل الطلاب والمدربون الإِشاعات حول خروجي كل ليلة للتنزه بالدراجة مع إِيثان في الغابة، لكن لم تجمع بيني وبينه إِلا الصداقة، وكنا نتحدث بصوت عال منتقدين سخافة مدربينا وتفاهة البرنامج التدريبي الذي أتينا منِ أجله ؛ لأن الغابات كانت من الأماكن القليلة التي كنا متأكدين من خلوها من أجهزة التسجيل والتنصت.

واعتاد إِيثان أن يقول " ليس هنا إِلا القراد والصراصير "، ثم يسألني السؤال اليومي " أين نذهب ؟ "

فأجيبه: لا أعرف، يمكن أن نأخذ طريقنا المعتاد.

فقد أصبحنا بعد التدريب العسكري نعرف كل شق وزاوية بالغابة، وكان إيثان يحب التجول قرب المنطقة التي استخدمت منذ أسابيع كمعسكر لاختبار الصمود، وكان يطلق عليها اسم " معسكر الموت "، وتغير إيثان بعد هذا المعسكر تغيرًا كبيرًا فصار يتحدث بلغة في غاية البذاءة على خلاف عادته فيما سبق وكان يقول: " على الرغم من شدة المعاناة التي عشتها في هذا المعسكر فإني سعيد بهذه التجربة سعادة لا تقدر بثمن.

وأخبرنا المسئولون أننا سيسمح لنا بالذهاب لواشنطن في عطلات نهاية الأسبوع لو أتيح لنا وقت فراغ أثناء فترة التدريب التالية، وفي اليوم الأول من التدريب قال لنا آدم ــ المدرب المسئول عن تدريبنا على كافة خبرات الجاسوسية ــ وهو يضحك: " ستجدون الأعمال مكومة أمامكم طوال الأسبوع ؛ فلا تفكروا أبدًا في حضور أي حفلات زفاف، ولا أن تروا أسركم، أنتم ملكنا الآن، وهذه هي حياتكم ".

ومن هذه اللحظة أطلقنا على آدم اسم " صدام ".

وأخبرنا آدم بقصة متدرب سابق قاد سيارته إلي واشنطن في إحدي عطلات نهاية الأسبوع لتعويض قلة النوم طوال أسبوع كامل فغلب النعاس الشاب أثناء القيادة وحاد عن الطريق ولقي مصرعه.

وقال لنا آدم: لو أن شيئًا كهذا حدث لأحدكم فلا يمكنني إلا أن أقول: إنه خطأكم اللعين.

وقال إيثان وهو يقود دراجته بأقصي سرعة: يا له من رجل أحمق !

قلت: نبدو وكأننا نعيش في قلب الجحيم.

فقال إيثان وهو يضحك بصوت عالي: حقًا إننا في قلب الجحيم.

ثم انطلقنا وسط نفق من الأشجار.

* * * * *

شاء القدر أن أكون مع إيثان ضمن مجموعة التدريب الصغيرة التي تتشكل من ستة أفراد يتشاركون التدريب لعدة شهور، وكان معي في المجموعة بالإضافة لي أنا وإيثان ؛ أوفليا ومارك وسالي العاصفة وإليس الذي ليس له مثيل، فقد كان يلقي النكات بملامح صارمة وعيناه مثبتتان على شاشة الكمبيوتر ويجعلنا نعاني من آلام المعدة طوال الليل من شدة الضحك.

وخصص لكل مجموعة تدريب صغيرة غرفة بها ستة أجهزة كمبيوتر ومنضدة كبيرة بمنتصف الحجرة نجلس عليها مع مدرب المجموعة لمراجعة أدائنا اليومي لمهامنا وواجباتنا. وكان مدربنا رجلا وسيما يدعي بول، وكان بول يقود سيارة مرسيدس حمراء بسقف متحرك لا تتماشي مع بقية سيارات المدربين الفيات والكورولا، واستمتع بول ــ طبقًا لكلامه ــ بفترة طويلة وممتعة من العمل في مختلف بلدان العالم ؛ لذلك تساءلنا " هل يستمتع بول بعمله كمدرب في المزرعة ؟ "وكنا مدركين تمامًا لتغير الأوضاع ؛ فلم تعد المزرعة ــ كسابق شهرتها ــ مكانًا يلقي فيه بالضباط الميدانيين الذين يخفقون في أعمالهم، إلا أننا ظللنا على يقين من أن الضباط الميدانيين الموجودين هنا لا بد وأنهم ارتكبوا خطأ جسيما أنهي حياتهم المهنية بهذا المستنقع الكئيب.واكتشفنا بعد أسابيع من الملاحظة أن النساء هي نقطة

ضعف بول وذلك بعد أسابيع من ملاحظتنا محاولاته الفاشلة لإبعاد عينه عن فتحة قميص أولفيا المصممة على شكل V وخمنا أنه ربما أبعد عن العمل الميداني بسبب التحرش الجنسي، وكان هذا رأينا جميعًا، وعلى الرغم من ذلك أحببنا مدربنا الذي كان يدافع كثيرًا عن صدام (آدم) فيتسبب دفاعه في تسليتنا بدلًا من التأثير على رأينا المسبق.

وكنا نشك في وجود كاميرات سرية بغرف التدريب، وتأكدت شكوكنا بعد أن وصل إلينا كلام عن فصل طالبين سابقين بسبب ممارستهم الجنس بعد ساعات العمل على منضدة العمليات، واستمتعنا بالسخرية من الكاميرات التي خمنا وجودها في أحد الأركان بسقف الحجرة فأحيانًا ما كنا نشغل أسطوانات الأغاني ونرقص في أوقات متأخرة من الليل (يحظر استخدام المذياع في المناطق السرية)، وكانت أوليفيا تجيد الرقص الشرقي ببراعة، ولا يمكن تخيل مدى سعادة بول وهو يراها تتموج في رقصها حول الغرفة وعلى طاولة العمليات.وتسلينا أيضًا بالمعاكسات التليفونية لمجموعات التدريب الصغيرة الأخرى التي كان أعضاءها دائمًا ما يبدون في غاية الجد والانشغال فكنت أتناول الهاتف وأقول: أنا الآنسة أبوت من قسم الأمن والصيانة، لدينا مشاكل في الكهرباء، لذلك فإننا آسفون لأن نطلب منكم إغلاق

أجهزة الكمبيوتر والأضواء لحوالي نصف ساعة وأن تبقوا بأماكنكم، وسنعاود الاتصال بكم لنخبركم متى تعيدون تشغيل الكهرباء مرة أخري.

ثم نتسلل إِلي الردهة ونحن نكتم ضحكاتنا لنختلس النظر إِلي حجرات الطلاب الأخرى ن الذين يقرضون أظافرهم انتظارًا لعودة الإِذن باستخدام الكهرباء، واعتادت جين سوك في هذه الأثناء أن تكمل أعمالها يدويًا باستخدام أي إِضاءة خافتة تتاح لها.ولم يكن أمامنا أوقات كثيرة لممارسة مثل هذه الألعاب فقد كان البرنامج التدريبي مدته ستة أشهر مكثفة للضغط على الطلاب بأقصي ما يمكن.

ولم يكن لنا أي اتصال بالعالم الخارجي بالإِضافة إِلي حرماننا من النوم لأوقات طويلة فقد كانت المزرعة تعمل طبقًا لسيناريو محكم لمحاكاة الواقع ؛ حيث كان يفترض أننا نعمل كضباط ميدانيين لقسم الوكالة بدولة افتراضية تسمي فينجلوريا.

وكانت مهامنا هي تحديد وتقييم وتوظيف الفينجلوريين ــ الذين يقوم المدربون بدورهم ــ للحصول منهم على المعلومات الاستخباراتية التي يتوجب علينا إِرسالها للقيادة عبر سلسلة من المراسلات الروتينية التي تستمر من المساء حتى صباح اليوم التالي دون التمكن من النوم.وبسبب خبرتي في التدريس والكتابة

لم يكن هذا العمل شاقًا على مثلما كان الحال مع سالي العاصفة التي لم تكن قادرة على تكوين جملة واحدة صحيحة لغويًا لتنقذ حياتها، واضطررت أنا وإيثان في نهاية المطاف للقيام بأغلب أعمالها لتتمكن المسكينة من الحصول على عدد من ساعات النوم.وكان كل الطلاب في هذه الأثناء معرضين لنقد المدربين، وواجهنا كلنا حقيقة تعرضنا للطرد في أي لحظة بناء على قرار " كتيبة الإعدام " بعدم الصلاحية، وأطلقنا مسمي كتيبة الإعدام على الاجتماع الأسبوعي لمدربي المزرعة حيث كانوا يدرسون أداء كل طالب بتمعن وإذا وجد خلل في أداء أحد الطلاب فإنه يمكن أن يطرد من القاعدة في غضون أربعة وعشرين ساعة من تصويت أغلبية الأعضاء على عدم صلاحيته ليصبح فجأة عاطل بلا مأوي.و يتم توزيع أعمال التدريب على عدد من المدربين من أجل عدالة القرارات، وكان الاسم الحركي للتدريب الأول هو " الحفلة " حيث كان يفترض بنا المشاركة في العيد القومي لفينجلوريا وأن نحدد هدفنا الأول ونتواصل معه أو معها، ونرتب لقاءات تالية على الغداء أو العشاء، وضمن السيناريو الكامل للخطة وجبة واحدة مجانية ــ على الأقل ــ لكل مدرب يوميًا.ولم يتم إخبارنا بأسماء أهدافنا بل أعطينا بعض المعلومات المتعلقة بهم فأحيانًا ما يكون الهدف " متخصص في

الهندسة النووية " أو " دبلوماسي بسفارة دولة أروجانيكا "، فقد كانت هناك دول أخري لها سفارات بدولة فينجلوريا ودبلوماسييها أيضًا يصنفون كأهداف محتملة، ونتمكن من تحديد أهدافنا بعد إجراء الحوارات مع أكبر عدد من المدربين في حفلات الكوكتيل.ووصلت الحفلة وأنا أرتدي بذلتي الزرقاء ومعي عدد من بطاقات العمل الوهمية، ومهمتى هي تحديد " الصحفي الفينجلوري المشهور "، وأدرت عيني بقاعة الحفل دون أن أعرف من أين أو كيف أبدأ، وتذكرت لعبة " اعرف من أنت " التي كنا نلعبها في مرحلة الطفولة، حيث كان أحدنا يلتفت ويقلد صوت حيوان ما كالخنزير أو الخروف أو الدجاجة حتى يعرف الشخص الوحيد الذي يقلد نفس الصوت فيتمكن في هذه اللحظة من العودة للتحدث الطبيعي. وكنت في هذه اللحظة أشبه بمن يقلد الخنزير بحثًا عن مثيله وتجولت في الحجرة ثم ذهبت لركن الشراب.وكان مسموح للمتدرب بتناول الخمور بشرط عدم الوصول لدرجة السكر، وقيل لنا من قبل: إننا تحت الملاحظة الدقيقة، وإنه من غير اللائق البقاء عند ركن الشراب والاستمرار في طلب الخمور.

ووقفت بركن الشراب أقلب كأس الفودكا الموضوع به قطع فراولة صغيرة وأنا أمسح الحجرة بعيني. وأخيرًا توجهت نحو

أوفليا التي كانت تقف بجوار مائدة مشهيات، وقالت: هذا الأسلوب مستفز، كل ما نحن فيه هو مجرد حماقة، ولا أرغب في مقابلة هؤلاء ولا حتى الحديث إلي أي منهم.
واتفقت مع أوفليا في مشاعرها على الرغم من أني كنت مكتئبة من المشهيات المستفزة المتناثرة حولنا والمكونة من البسكويت والجبن وأعواد الكرفس المر، وقطع الدجاج الباردة والمغطاة بالدهون، ووقفت أتواسي مع أوفليا لدقائق حتى انضم إلينا إيثان بعد أن فشل في تحديد هدفه، وقال: لم أجد سفير ماليفولنسيا اللعين، هل رآه أحدكما أو تحدث إليه ؟
وكان إيثان ــ خلافًا لي وأوفليا ــ يرغب بشدة في أن يحوز على رضا المدربين ويقلق بشدة من احتمالية طرده من المزرعة، وكان يتم تقييمنا بعد كل تمرين ونحصل على عدد من الدرجات التي تعتمد على مستوي أدائنا، وكان إيثان يحتفظ بقوائم مطولة بالدرجات التي حصل عليها كل طالب.
قالت أوفليا: لم أتحدث بعد مع أي شخص، وبصراحة ؛ لا أنوي الحديث مع اي أحد.
قلت: سآخذ شراب آخر، أيرغب أي منكم في تناول شراب ؟وزاد عدم اكتراثنا من حماسة إيثان فودعنا بابتسامة مصطنعة وذهب يتجول في الحجرة محاولًا إنجاز مهمته.وبعد قرابة

النصف ساعة كنت قد تحدثت مع أكثر من نصف المدربين، واكتشفت في النهاية أن هدفي يقف بأحد الأركان مع جين سوك التي كانت تتحدث معه بسرعة وبحماسة.
وكان الرجل أشبه فعلًا ما يكون بالصحفي اللامع بشبهه القريب من سانت كلوز [1]، فاستجمعت قواي وسرت بالقرب من جين سوك التي استمرت في الحديث معه ولم تتوقف لتلاحظني، وكانت مجموعات التدريب الصغيرة قد اتفقت فيما بينها على مساعدة كل فرد للآخرين في إيجاد أهدافهم ؛ إلا أني لاحظت أن جين سوك لم تفكر إطلاقًا في أن تسدي لي أي جميل، بل إنها أيضًا غيرت من وضعها لتحجب عني هدفي، ووقفت أتسمع لأطراف حديثهم على نحو مثير للشفقة.
وأخيرًا أقحمت ذراعي بين جين سوك وهدفي المحتمل وقدمت نفسي بشخصيتي الجديدة قائلة: مرحبًا، أنا ليدي مورتون.ونظرت جين ليدي الممتدة وكأنها لم تري في حياتها من قبل مثل هذه الجرأة.
وعندما رد على سانت كلوز قائلًا: " وأنا باري بننجتون "، انصرفت جين في هدوء.

---

[1] سانتا كلوز هو شخصية وهمية شهيرة في الثقافة الغربية لقديس يحضر الهدايا للأطفال في أعياد رأس السنة ، وهو النظير لبابا نويل في الثقافة العربية. (المعرب)

وكشفت لي بعض المزحات التي تبادلناها في البداية أن باري بننجتون هو الصحفي المشهور، ونجحت في الحصول على اتفاق باللقاء مرة ثانية في اليوم التالي على الغداء عندما أوشكت الحفلة على الانتهاء وانصرف زملائي الواحد تلو الآخر. وحدد باري ــ بمحض الصدفة ــ اللقاء التالي في الوقت ذاته الذي كنت قررته في عقلي سلفًا (الثانية عشر ظهرًا).

وانتهت المهمة فعدت إلي حجرة التدريب حيث يفترض أن نظل لبقية الليل نكتب تقارير عن كل ما دار في الحفلة، ولم يكن تقييمنا يتم طبقًا لأدائنا فحسب ؛ بل أيضًا على مدى قدرتنا على نقل تفاصيل الحدث بدقة.

وكنت حريصة على عدم تزيين الألفة التي حدثت بيني وبين باري ؛ لأنه الشخص الذي سيقرأ تقريري ويقيمه، ولكل مدرب شهرته في التساهل أو القسوة، وسمعت أن باري مشهور بالقسوة.وتمت اللقاءات التالية مع أهدافنا خارج المعسكر في أي مكان قريب من وليامسبرج، وكان يتعين على الطالب أن يقود سيارته عند خروجه للقاء الهدف ما بين ساعة أو اثنتين للتأكد من أنه غير مراقب، وفي حالة ما إذا اكتشف إنه مراقب فيجب عليه إجهاض المهمة بعدم الذهاب إلي الاجتماع.

وسبق هذا فترة تدريب قضيناها في التجول أربعة أسابيع بمريلاند وجنوب فرجينيا لمعرفة كيفية التأكد من عدم المراقبة، وكانت هذه الدورة التدريبية أولية ويفترض أن نلتحق بدورة أخري أكثر تقدمًا فيما بعد، وكان الفشل المتكرر في رصد المتتبعين أحد الأسباب التي تؤدي للطرد من المزرعة ؛ لأن الأمر بمنتهي البساطة ينحصر في أنك إِن لم تكن قادرًا على معرفة ما إِذا كنت تعرف أنك مراقب أم لا فإِن هذا يعني أنك لا تصلح لأن تكون جاسوسا ناجحًا.

وكنت من الأناس الذين يتضايقون بشدة من القيادة لذلك اعتبرت فترة القيادة قبل الذهاب للقاءات فرصة جيدة للتجوال وسماع المذياع واستغللت وقت القيادة في وضع أحمر الشفاة والماسكارا ونتف حواجبي، وعدم التفكير للحظة واحدة قبل وضع إصبعي في أنفي ؛ فلم تكن مثل هذه الأمور مسموح بها في المزرعة لأننا كنا في رعب دائم من أن نشاهد أو نتتبع.

واعتدت أن أحتفظ أثناء قيادة السيارة بورقة وقلم لتدوين الملاحظات حول السيارات التي أشتبه فيها أو في ألواح تسجيلها.اتفقت مع باري على أن نلتقي على الغداء بأحد المطاعم قرب نيوبورت نيوز، وكان من المفترض أن أحصل منه في هذا اللقاء على المزيد من المعلومات لتحديد مدى إِمكانية

تجنيده، وتطلب مني هذا أن أظهر لباري بشخصية ودودة ليوافق على أن يتم بيننا لقاء ثاني، وعلمت بعد ذلك أن الرجل الأجنبي نادرًا ما يرفض فرصة تناول الغداء أو العشاء أو تناول مشروب مع امرأة دبلوماسية أمريكية، ولم يتضح لي هذا إلا بعد العديد من اللقاءات مع باري.

وخرجت من المعسكر قبل موعد اللقاء بحوالي ساعة قضيتها في التجول بوليامسبرج ونيوبورت نيوز وبعد أن تأكدت من أني لست مراقبة توجهت للقاء باري في المطعم الذي اتفقنا عليه، وحياني العاملون في المطعم بحرارة وابتهجوا لاستقبال الزبون الأول ـــ لأن الوقت كان حوالي الحادية عشرة والنصف قبل الظهر ـــ وتقدموا نحوي بقوائم الطعام والتحيات.

فطلبت الجلوس على مائدة منزوية في أحد الأركان البعيدة، وجلست الدقائق العشرين التالية أسترجع في ذهني كافة التفاصيل السياسية والاقتصادية والعسكرية المتعلقة بفنجلوريا والتي من المفترض أن تكون معروفة تمامًا.وكنا قد انغمسنا أثناء فترة التدريب في هذا السيناريو، وسبقنا في هذا المدربون ـــ الذين عوقبوا بإقصائهم عن العمليات الميدانية والإلقاء بهم في المزرعة ـــ فكانوا على إلمام بكافة التفاصيل المتعلقة بهذا السيناريو الوهمي أكثر من إلمامهم بتفاصيل وأحداث الحياة

الواقعية، لدرجة أني تشككت في أنهم بدءوا يقتنعون بأنها حقيقية، وربما يقضون الليالي الطوال ساهرين من شدة القلق من الإمكانيات النووية لدولة ملفولنسيا المعادية، واستمتع المدربون بمضايقتنا بأن يطلبوا منا معرفة اسم موظف مجهول بسفارة جمهورية أنفيرميا، أو تفاصيل معاهدة وقعت بين أروجانيكا وفنجلوريا منذ عدة سنوات.

وبالإضافة للمعلومات التي استقيناها من الملفات الثلاثة الضخمة التي تصف كل ما يتعلق بفنجلوريا توجب علينا متابعة الأخبار اليومية المتعلقة بها من خلال شرائط الفيديو التي تصل إلينا يوميا، والهدف من متابعة هذه الأخبار هو التأكيد على وجوب الوصول للمعلومات من خلال المصادر العلنية بالإضافة للمعلومات المسجلة بالملفات، وكان من المفترض أن لدينا القدرة على توجيه أسئلة محددة للهدف المحتمل لتحديد مدى اتصاله بالمعلومات الحيوية في الدولة أو استعداده للإفصاح عنها، وإذا كان الهدف المحتمل يكرر ما تتناقله وسائل الإعلام فإن هذا يعني عدم اطلاعه على أي أسرار خطيرة، أما إذا أخبرنا بشيء سمعناه في اليوم التالي بوسائل الإعلام فإن هذا يمكن أن يستخدم كدليل يقدم للقيادة على أنه وصول إلي أحد الأصول القيمة المحتملة.وكان من المفترض أن شخصية ليدي مورتون التي

أوديها تحمل صفة ضبابية هي " مساعد خاص للشيء ون الفنجلورية " مما يسمح لي بالتعمق في الشيء ون الفنجلورية بقدر من الحرية.وبعد أن اطلعت على قائمة الطعام طلبت حساء بازلاء لأنه لا يحتاج لمضغ أو يجبرني على التحدث وفمي ملئ بالطعام.ودخل باري المطعم في نفس اللحظة التي دخلت فيها ربة منزل ومعها طفلين أحدهما يبكي بصوت عال والآخر يتذمر من عدم وجود زبدة فول سوداني وهلام، وعندما قاد النادل باري للمائدة التي أجلس عليها أحسست للمرة الأولى — ولم تكن الأخيرة بكل تأكيد ـ بالألم الذي يعتصر العميلة الميدانية الشابة عندما يتحتم عليها لقاء رجل يكبرها في العمر بكثير.وزاد من مأساوية الموقف أن باري كان أضخم من أن يكفيه الحيز الموجود بين مقعده والمائدة.

فقلت وأنا أقوم لأسحب المائدة بقوة: سأحركها تجاهي قليلًا.وسحبت المائدة بأقصي قوتي لكنها كانت لسوء الحظ مثبته بالأرض.وبدا على باري أنه اغتم أكثر مني فقال: حسنًا، لا تشغلي بالك، سأجلس هكذا.

ثم أقلم نفسه قدر المستطاع ليتمكن من الجلوس.

تحدثنا في الساعتين التاليتين حول ماضي باري كصحفي صاعد، ولم نتوقف عن الحديث إلا عندما قدم لنا الطعام أو أتي

النادل ليقدم لنا المياه. وتحدث معي باري عن سخطه على الحكومة لأن بنت نسيبه الذي يعمل عميدًا بالجيش تعاني من مرض خطير.وعدت بعد انتهاء اللقاء إلي حجرة مجموعة التدريب لأكتب تقريرًا للقيادة عن إمكانية اختراق القوات المسلحة الفنجلورية عن طريق نسيب باري الذي يعمل عميدا بالجيش من خلال نقطة ضعفه الكبيرة (ابنته الشابة المريضة).
قابلت باري في الأسابيع التالية مرتين أسبوعيًا على الأقل لتناول الغداء أو العشاء، وأحيانًا ما كنا ننحني على المائدة لنتحدث في همس، أو نختلس النظر حولنا لنتأكد من أن لا أحد يستمع لحوارنا، وربما جعلني هذا أشعر أني إنسانة شريرة تبحث عن متاعب الأخرى ن، لكن التبرير المنطقي الذي سقته لنفسي هو أني أرغب في أن أكون مسموعة.وأحسست بأني مغفلة لتحدثي بحماس وعاطفة جياشة مع شخص من دولة افتراضية.
وبمرور الوقت أخبرني باري بالمزيد عن نسيبه ــ حسب السيناريو المعد سلفًا ــ وأوضح لي مدى يأسه من علاج ابنته ودائمًا ما كان يردد عبارة " لو أن لدينا المال ! ! "، وكان دوري أن أحاول التفكير معه في الطرق التي يمكن بها للولايات المتحدة أن تقدم يد العون في هذا الشأن، وتطورت العلاقة بيننا بصورة زادت تأكدي من احتمالية قيام باري بتقديم معلومات

سرية للولايات المتحدة مقابل الحصول على المال.
وتطلب هذا مني إغراء باري بالذهاب معي إلي حجرتي بالمعسكر الذي كان المكان الوحيد الملائم لتجنيده، ولم تكن عملية التجنيد برمتها أشبه بالمغازلة ؛ بل كنت أنا الجريئة وكان هو المستحي الذي يرفض إغراءاتي.وعلى الرغم من أن الأمر برمته كان تمثيلا إلا أني بدأت أشمئز من لقاءاتي بباري، وأرسلت برقية للقيادة أقول فيها: " الهدف تحركه الرغبة في تقديم يد العون لبنت أخته المريضة، وإذا تم تجنيده فإنه يمكن التحكم فيه من خلال المساعدة الطبية التي ستقدم للفتاة "،
وأحسست بالذهول والذنب في كل مرة أكتب فيها للقيادة.واعتدت أن أتواسي مع أوفليا أثناء تناولنا الغداء من الاشمئزاز الذي نعانيه من هذا الوضع، وكان إيثان على العكس من ذلك مستمتعًا بهذه اللعبة مثل بقية المتدربين، واعتاد أثناء تنزهنا بالدراجات أن يؤكد لي إيمانه بأن الشعب الفنجلوري مضطهد ويعاني من المشاكل وأنه في حاجة ماسة لمساعدتنا، وأنني لا ينبغي أن أشعر بأي أسف على ماليفولينسيين الذين عرفنا من خلال التقارير أنهم حفنة من المعتدين والمضللين.

* * * * * *

وأثناء عودتي بالسيارة إلي المزرعة ذات يوم بعد تناول العشاء مع باري بمطعم ياقوتة الثلاثاء تملكني شعور غريب من الوحدة لأن انطلاقاتي الوحيدة في عالم الحرية لم تتعد المواعدات الغرامية مع رجل بدين عمره ضعف عمري يتكوم على مقعد في أحد المطاعم العديدة التي نتقابل فيها، وكنت أقضي مع باري ساعات طويلة نتبادل فيها الحديث عن أشخاص ومواقف ليس لها أي وجود، وأحسست أني لست في برنامج تدريبي وإنما في حلم مضجر لا نهاية له، وبينما سيارتي تقطع طريقها في أحد الشوارع الخالية تحت أضواء أعمدة الإنارة المتراصة على طول الطريق وصلت إلي قناعة بأني لست عاثرة الحظ فحسب بل ومثيرة للشفقة أيضًا.

وفكرت في أن أعود لمجموعة التدريب الصغيرة حيث إيثان والأخرى ن منهمكين في مراسلاتهم إلا أن التفكير في هذا زاد من قلقي، وفكرت في الاتصال بإيما أو إميلي، لكني تذكرت أن الفتاتان ربما كانا يستعدان للتنزه في المدى نة مما سيزيدني كآبة، وأخيرًا قررت الاتصال بساشو ؛ حتى ولو لمجرد سماع صوته.وكنت على يقين من أن ساشو سيذكرني بالشخص الذي اهتم بي بصورة إنسانية بحته بعد أن أصبح هذا النمط غريبا جدًا على حياتي الجديدة، وأملت أن يمثل هذا مصدرًا للأمل في

أن يحدث لي شيء كهذا مرة أخري ؛ وأتأكد من أني لم أفقد الحياة الحقيقية والحب الحقيقي بصورة نهائية.
ولم أكن معتادة على إجراء المكالمات الهاتفية من المعسكر ليقيني من أنها مراقبة وشكي في أن الحجرات نفسها أيضًا مراقبة، لذلك توقفت قرب أحد المتاجر على الطريق وتوجهت للهاتف، وكانت قد مرت شهور على المرة الأخيرة التي اتصلت فيها بساشو لذا أخطأت في رقم الهاتف عدة مرات حتى تمكنت من تذكر الرقم الصحيح الذي رد عليه صوت أجنبي ثم أعطاني ساشو فقلت له: أنا.
فرد ساشو بصوت بدا منه أنه نائم وغير مدرك تمامًا:أنت من ؟
قلت: أنا، ليندسي، كيف حالك ؟
فقال: بخير، أين أنت ؟
قلت: لا أعرف.. . أقصد.. . أنا في فرجينيا، لا أزال بفرجينيا.
فقال: أوه.
وأتبع هذا صمت طويل، فأدرت بصري في المنطقة المحيطة بكشك الهاتف حيث متجر صغير في مكان نائي عليه لافتة مكتوب عليها " متجر ميشيل "، وتذكرت تلك الليالي التي قضيتها مع ساشو نائمين على الصخور، وظلمة السماء المائلة للزرقة، وجو الليل المنعش، والإحساس بالهواء على الجلد

العاري من جسدي، وتذكرت الوقوف على قمم الشلالات الرائعة وساشو ــ الذي لا أذكر ملامح وجهه تمامًا الآن ــ ينظر لي ويخبرني بأنه يرغب في أن يتزوجني يومًا ما، وكان ساشو يفكر في الانتقال لنيوزيلاندا ليحصل على تأشيرة ويتعلم شيئًا، بينما أشتغل أنا بالتدريس أو الكتابة، ونعود في الصيف أو في أعياد الكريسماس إلي بلغاريا نتنزه في البحيرات السبع بجبال ريلا، ونزور قرية جدته في السهول الوسطي ونتسلق الجبال المحيطة بسواحل البحر الميت.

وتشبثت بالهاتف بشدة وأنا أشعر بالوحدة والكآبة الشديدة، وقلت: ظننت فقط أن بإمكاني أن أتصل بك.

قال: ألا زلت بوظيفتك ؟

قلت: ما الذي تعنيه ؟ نعم، أنا أعمل.

قال بضحكة بدت مفتعلة: أليست مهنة هامة جدًا ؟

قلت: ليست كذلك، ما الذي تفعله أنت ؟

قال: لا شيء سوي المعتاد ؛ العمل والدراسة وتسلق الجبال.

قلت: الدراسة ؟

ولم يكن ساشو أكمل دراسته بالجامعة الفنية بصوفيا لاهتمامه الزائد بتسلق الجبال، فقال: أدرس علوم الحاسب بجامعة بركلي، وأحب دراستي بها لكن لم يعد عندي المزيد من الوقت للتسلق.

فتمتمت: عظيم جدًا يا ساشو، أنا فخورة بك.
وتحدثنا لدقائق تالية، وأخبرني أنه حصل على إقامة شرعية بعد أن أصبح طالبا مقيدا بإحدي الجامعات الأمريكية، وأنه تعرف على فتاة كورية بفصل اللغة الإنجليزية وأنهم يعيشان الآن معًا بسان فرانسيسكو، وقال: يمكنك أن تقولي: إنها عائلتي هنا.
وأحسست أني يمكنني أن أتخيله ــ لو أنني أردت ــ في صورة أخذها مصور ألماني وبجانبها عبارة " الصخر والجليد ".
وعندما أعدت وضع سماعة الهاتف أحسست بأني ارتحت كثيرًا لأن ساشو يتحسن، ولم يعد هناك داعي لأشعر بالندم، وفي نفس الوقت ذعرت لأن ساشو كان في الحقيقة يتقدم في حياته أفضل مني.وتعجبت من عدم تمكني من الرد على أسئلته البسيطة مثل " أين أنت ؟ " وفكرت ما الذي كان ينبغي على قوله ؟ وما الذي فعلته أو أنجزته في الأشهر الماضية ؟
وتغلب على الحزن فألقيت بنظري على موقف السيارات وكأني أبحث عن مكان أذهب إليه كمرفأ أستريح فيه من عناء أفكاري، ولمحت سيارة أعتقد أني أعرفها في أحد أركان الموقف وسائقها ومن بجواره ينظرون لي مباشرة.
فلعنت هذا الحظ العاثر في سري وسجلت في عقلي نوع السيارة وسنة إنتاجها ثم توجهت إلي سيارتي وركبتها في هدوء

وخرجت بها من الموقف ثم دونت أرقام لوحة السيارة، وطرد عقلي كل الأفكار المتعلقة بساشو وركزت تفكيري فيما سيحويه تقرير المراقبة.

* * * * *

امتُدحت في اليوم التالي على تمكني من اكتشاف المراقبة، وعنفت أيضًا لجذبي الانتباه بتوقفي لإجراء مكالمة، وقال لي بول: كان ينبغي أن تعرفي أنك مراقبة قبل إجراء المكالمة. وقال آدم: كان ينبغي عليك ألا تقومي بعمل أي مكالمات على الإطلاق.وغادرت الاجتماع غاضبة ومتضايقة بشدة وأنا أقول لنفسي: " من آدم هذا ليخبرني أني لا يمكنني الاتصال بصديقي السابق ؟ "، وأشعروني كما ولو أن مواعدة أجنبي نوع من الخيانة، وتذكرت في حزن المرات العديدة التي أخبرنا فيها مدربونا وزملاؤنا الرجال بقصص نزواتهم ؛ كأندية التعري التي اعتادوا التردد عليها بأوروبا الشرقية أو العاهرات التايلانديات اللاتي استمتعن بهن فقط من أجل التأكد من أن المرأة الشرقية الجميلة هي حقًا جميلة !
ومن كثرة اعتيادي على سماع هذه القصص عن الضباط الميدانيين والمتدربين الرجال لم أتحمل سماع المزيد وبدا لي

وكأنهم لا يهتمون إِلا بهذه الأمور، وتضايقت بشدة من معايير الوكالة المزدوجة بصورة غير معقولة.
وجافاني النوم تلك الليلة، وأحسست بغيرة شديدة من ساشو الذي تسير حياته على نحو سلس بعد أن أعدته إِلي سان فرانسيسكو محطم الفؤاد مفلس وعلى وشك التعرض للترحيل من البلاد ؛ بينما كان أمامي في هذا الوقت طريقًا معبدًا ينتظرني، والآن بدا لي هذا الطريق وكأنه تحول لنفق طويل مظلم في نهايته ضوء بدأت أتشكك بشدة في صحة وجوده.

* * * * *

لم تتم عملية تجنيد باري أثناء لقائي به في حجرتي بصورة جيدة.

وصاح باري: ما الذي تعنينه برغبتك في أن أعمل لحساب الحكومة الأمريكية ؟وقفز من على السرير الذي قدته للجلوس عليه ــ حيث لم يكن هناك مكان إلا لكرسي واحد ــ وأزاح المائدة الصغيرة التي وضعت عليها بعض الجبن والكعك والبسكويت، ولم تبد منه أي من مظاهر اللياقة، ورفض تناول الطعام بسبب ما قال: إنه عصبية شديدة بسبب ما طلبته منه فقلت له: إِنك لن تعمل فقط لصالحنا ؟

فاحمر وجهه بشدة وقطب جبينه وقال: أي نوع من الرجال تظنينني ؟ هذه إِهانة، هل أنت عميلة بوكالة الاستخبارات المركزية ؟قلت: أنا بالفعل أعمل في إِحدي المهام الاستخباراتية، وهذا تحديدًا هو السبب الذي ينبغي أن يدعوك للثقة في، وأن تشاركني أمورك كتلك التي شاركتني فيها من قبل.. . أعني مثل إِخبارك لي أن نسيبك ينوي تنفيذ انقلاب ؛ فأنا الشخص الذي يمكن أن تنقل من خلاله هذه المعلومات بصوره آمنة إِلي واشنطن دون أن يعرف أحد مصدر المعلومة، ويمكنك أن تساعد صناع القرار بواشنطن على التخطيط لنظام حكم جديد بفنجلوريا يلعب فيه نسيبك دورا مهما، وواشنطن ــ مثلك تمامًا

ـــ ترغب بمنتهي الأمانة في تحقيق مصلحة فنجلوريا.فزمجر باري قائلًا: سألتك سؤالا محدد: هل أنت عميلة بوكالة الاستخبارات المركزية أم لا ؟
قلت: أنا ــ كما أخبرتك ــ مخولة من قبل حكومة الولايات المتحدة بإِدارة الشيء ون الاستخباراتية، وأنا مدربة على نقل المعلومات الحساسة ؛ أي المعلومات التي تحمل صفة " سري للغاية " كتلك التي أخبرتني بها.وكنت أحاول أن أضغط على باري بالطريقة التي تدربنا عليها بأن نخبره بأنه قد اشترك بالفعل في عملية تجسس وأنه خان بلاده، لينتقل دوري بعد ذلك لتحويله من نقل المعلومات دون مقابل إِلي نقلها بمقابل.
ولم يبد أي تأثير لقوة إقناعي فقفز باري قائمًا وسحب سترته هامًا بالخروج وهو يقول: هذه إِهانة.
وسمعنا فجأة صوت صياح بالردهة تلاه صوت آدم العالي ثم صوت سالي العاصفة وهي تقول: لا أعرف شيئًا أيها الضابط عما تتحدث عنه، أنا هنا وحدي.
فدفعت باري تجاه باب دورة المياه وقلت له: اختبئ بدورة المياه بسرعة، هناك حملة أمنية.
وأخفيت أطباق الجبن والكعك بالدولاب وألقيت بأغطية السرير والوسائد على الأرض استعدادًا لأسوأ سيناريو وهو أن تجد

الشرطة باري يدخن بدورة المياه وأبرر وجوده بأننا كنا مجتمعين لشأن خاص، وكانت هذه هي القصة المتفق عليها في حالة سقوط ضابط ميداني (امرأة) مع أحد الأصول (رجل).
لكن لحسن الحظ لم يكن هذا هو اليوم الذي يلقي على القبض فيه ؛ فبعد دقائق سمعت آدم ومن معه وهم ينصرفون.
ولم أتمكن من أن أمنع نفسي من الضحك عندما سحبت ستارة حوض الاستحمام لأجد باري واقفًا خلفها، ولحسن الحظ كان غضب باري قد ذهب أو حل محله الخوف.
وقال باري وهو يخرج إِحدي قدميه الضخمتى ن من حوض السباحة: أعتقد أنك محقة، لقد خضت في هذا الموضوع أكثر مما كنت أظن.
قلت: لا تفكر يا سيدي في الأمر على هذا النحو، وانظر إِليه على أنه مساعدة تقدمها لبلادك.. . ولابنتك.
ولم أصدق مدى انحطاطي وأنا أقوم بهذا الدور، لكن سرعان ما تم تجنيد باري ووافق على إمدادي بمعلومات سرية مقابل أربعمائة دولار فينجلوري شهريًا، ووقعنا عقدا سريا ودبرنا خطة اتصال دون استخدام الهاتف نهائيًا وتصافحنا وفتحت زجاجة شمبانيا للاحتفال بنخب علاقتنا الجديدة.
وبهذا أكملت مهمة " الحفلة "، وأخبرني باري بعد ذلك في

جلسات التقييم أني أديت دوري بإتقان شديد أثناء كل جزء من الخطة، وكان هذا مفاجأة لي لأني ظننت أن أدائي أثناء اجتماع التجنيد كان في غاية السوء ؛ إلا أن باري قال لي أني مجندة بالفطرة.

ثم أربكني باري بسؤال لم أسمعه من قبل أو أسمع أن أحد عملاء الوكالة سبق أن طرحه ؛ فقد سألني عن مشاعري لحظة التجنيد وقال وهو ينظر لي على نحو غريب: هل كنت مسرورة وأنت تجندينني ؟ أشعرت بمتعة إنهاء المهمة ؟

وكان هذا هو اللقاء الأول لنا خارج الأدوار التي كنا نلعبها، فقلت: حقيقة لم أشعر بالسعادة، بل شعرت بالرعب، وبشعور سيئ تجاه تلاعبي بك، وكنت حزينة على ابنتك المريضة.

فضحك باري وقال: لا تقلقي، فليس لدي بنت.

فحمدت الله وأحسست بالهدوء وتراخي كتفاي اللذان اعتادا على أن يظلا مرتفعين طوال الوقت.

وأسر لي باري بعد ذلك أنه بدأ حياته بالمخابرات كضابط ميداني، لكنه اكتشف أن هذه المهنة مرهقة بشدة وأنها لا ترضي رغباته كما كان يظن، وقال: لم أجد وقتًا أقضيه مع زوجتي فقررت الانتقال لقسم التقارير.

فتعجبت بشدة لأني لم أسمع من قبل عن ضابط ميداني ينتقل

لقسم التقارير حيث كان ضباط التقارير ينظر إليهم داخل إدارة العمليات على أنهم مواطنون من الدرجة الثانية.

فقلت مندهشة: حقًا ؟

فقال باري: نعم، كان هذا هو القرار الصائب الذي ينبغي على اتخاذه، وقد يكون العمل في قسم التقارير غير فتان أو بعيد عن التخطيط الذهني العالي إلا أني لا أزال أؤدي دوري، وأنا من بين القليل من الضباط المحتفظين بزوجاتهم، وأعني بهذا الزوجة الأولى .ثم سحب باري المفكرة الزرقاء الصغيرة التي دون بها تقييمي وقال: على كل حال، لقد أعطيتك درجات عالية جدًا بصورة استثنائية، ولا داعي للقلق من كتيبة الإعدام في هذه الجولة.وصافحني وأنا أخرج من مكتبه وقال لي: ينتظرك مستقبل واعد أيتها الشابة بغض النظر عن ما يمكن أن تقومي به.وجعلتني صراحة باري أفكر في كل ما مررت به فلم أجد — حقًا — أي متعة أثناء تجنيد أجنبي، وفي نفس الوقت يتعين على أن أجند الأجانب لأصبح ضابطا ميدانيا ناجحا ؛ بل إن كل مهمتى في الوكالة هي التجنيد، وبعد أن واجهتني هذه الحقيقة المقززة، بدأت أفكر في بديل آخر وهو أن الأفضل لي بلا جدال أن أصبح ضابط تقارير.ولم يكن من الغريب أن النساء في إدارة العمليات ينهمكن في العمل وسط أكوام التقارير، ولم تكن هذه

الوظيفة تتطلب النزول للشارع وقضاء ساعات الليل الطويلة بالخارج، إلا أنها كانت تعد أقل مجالات العمل طموحًا بالوكالة، وسيتوجب على كضابط تقارير أن أتنازل عن بعض الإثارة، لكني سأستمتع ببعض الجوانب من بساطة الحياة العادية، وسأظل أيضًا أخدم بلادي.وطلبت في اليوم التالي أن ألتقي ببول على انفراد وأخبرته نيتي الانتقال إلي قسم التقارير فانزعج بشدة واتسعت عيناه من الدهشة وكأني قلت أني أنوي الاستقالة لأنتقل للعمل بالسيرك.وقال بول: أنت لا ترغبين في عمل التقارير وستسأمين لأن مجالك الوظيفي لن يتقدم في أي اتجاه، وعمل التقارير هو لمن لا يقدرون على فعل المهام الكبري.

قلت: لا أشعر بالارتياح تجاه عملية التجنيد ككل.

فنظر لي بحذر وقال: ماذا تقصدين ؟

قلت: أعني فكرة استغلال احتى اجات الأخرى ن والتلاعب بهم لإجبارهم على فعل ما لا يمكنني فعله أبدًا، فهذا ليس أنا.

فردد بول على مسامعي التبريرات المعتادة وقال: كل من يجند يرغب في التجنيد، ونحن نقدم لهؤلاء الأشخاص معروفًا بإعطائهم فرصة للمساهمة في تغيير مصائر بلادهم فليس كل الناس يستمتعون بالحريات التي نستمتع بها هنا في الولايات المتحدة. ألست تعرفين ذلك ؟

قلت: انظر يا بول، أنا أعرف تمامًا لماذا نفعل هذا، لكن كل ما في الأمر أني لست الشخص المناسب.
فدارت عيناه في دهشة ونظر لي نظرة استجداء، ثم قال: ما الذي ظننت أنك ستقومين به عندما أتيت للعمل بوكالة الاستخبارات المركزية ؟
فأحسست بأن هذا سؤال جيد، وعدت بذاكرتي إلي أفكاري الرومانسية القديمة.
قلت: أظن أني تخيلت نفسي سأقوم باقتحام السراديب المجهولة وتسلق الجدران وأنا أرتدي زيًّا أسود، وكنت أعتقد أني سأسرق أسرار الدول الأخرى ، وليس أحد الأجانب عاثري الحظ الذي ربما يقبض عليه أو يقتل لو أني فشلت في عملي !
قلت كل هذا وأنا أدرك تمامًا مدى سذاجة ما أقوله، ومدى سذاجتي في الماضي عندما كنت أفكر بهذه الطريقة.
قال بول: أنت من تسرقين الأسرار، ولا تحتاجين إلا إلي الشخص المناسب الذي يخبرك بهذه الأسرار. صدقيني يا ليندسي ؛ بمجرد أن تنزلي الميدان سترين كل شيء يتغير فور تحقيق نصرك الأول.
ولم أجد أدنى حماسة أو تأثير لهذا التعبير الذي يكرره المدربون والمتدربون على حد سواء حول تعلق نجاح أو فشل أي ضابط

ميداني بعدد النجاحات التي يحرزها.
واستمر حوارنا في اللف والدوران حتى أيقن كل منا أنه لا يحرز أي تقدم في إقناع الطرف الآخر بوجهة نظره.
واستدعيت في اليوم التالي لمكتب آدم الذي قال بانفعال: سمعت أنك تريدين الانتقال لقسم التقارير.
قلت: نعم، أظن ذلك.
ولم أكن أشعر أبدًا بالارتياح لآدم.
وقال: سيكون هذا قرارا في غاية السوء ؛ هذا قرار سيئ جدًا لنا، وكذلك لك.
ولم يشغل آدم نفسه بمبرراتي التي أخبره بها بول، وأوضح لي أني لو تركت مجال العمل الميداني فربما أترك المخابرات كليةً، ولم يبد منه أي تعاطف تجاه مخاوفي، وقال: بمنتهى الصراحة ؛ كان ينبغي عليك أن تفكري في هذه الأمور قبل الالتحاق بالوكالة.
ولم أتمكن من مجادلة هذا المنطق، واستمر بول وآدم طوال الأسابيع التالية يلعبان معي خطة الطيب والشرير حيث كان بول يحاول إقناعي أن عمل الضابط الميداني ليس بالسوء الذي أظنه، وآدم يذكرني أني ليس أمامي أي خيار، وفي النهاية تراجعت عن موقفي، ووافقت على الاستمرار في تدريباتي كضابط

ميداني مع تأكيد بول لي بأني يمكنني التراجع في أي وقت ــ حتى اللحظة الأخيرة ــ للانتقال للعمل بقسم التقارير.

وهدأت حدة مخاوفي في الأسابيع التالية عندما انتقلنا من التدريب على " التجنيد " للتدريب على مهارات الجاسوسية التي بدأت بدورة متقدمة في اكتشاف المراقبة بمدينة قريبة.

وأثناء أسبوعي التدريب توجب علينا وضع خطط يومية لجولات بطرق مختلفة بالمدينة على الأقدام أو باستخدام المواصلات العامة أو بالسيارة، وبمجرد وضع الخطة يتعين علينا البدء في السير في الطريق المحدد القيام بعدة " محطات توقف " في المتاجر، وإذا اكتشفنا المراقبة فيجب علينا أن نجمع أكبر قدر من التفاصيل المتعلقة بالأشخاص أو المركبات التي تتعقبنا مع الحفاظ على هدوئنا وثباتنا ولا نحاول الهروب من المتعقبين بل نتظاهر بعدم ملاحظتهم واستمرارنا في مهام عملنا اليومية.

ويتم تقييمنا ــ في المقام الأول ــ على أساس مدى قدرتنا على تحديد المتعقبين، وإذا فشل المتدرب في ملاحظة المتعقبين أو كتب تقريرا عن تعقب وهمي ــ يطلق عليه " رؤية الأشباح " ــ فإن المتدرب يرسب في الدورة كلها لأن هذا دلالة على عدم الإلمام بأهم المهارات الأساسية للضابط الميداني، وأوضح لنا آدم أن من سيفشل في اجتياز اختبارات كشف التعقب سيطرد

من التدريب، لأن الضابط الميداني الذي يفشل في اكتشاف التعقب ربما يتسبب في كشف عميله المحلي والتسبب في إلقاء القبض عليه وربما إعدامه أيضًا طبق القوانين المطبقة بأغلب البلدان.ولهذا السبب فقط حاولت قدر المستطاع تجاوز هذا التدريب بنجاح، وأمطرنا المدربون بوابل من القصص عن ضباط ميدانيين أصابهم الخمول أثناء عملهم بالدول الهادئة فلم يهتموا بملاحظة ما إذا كانوا يتتبعون أم لا، وتسبب هذا في تلوث سجلهم الوظيفي بتصنيفهم على أنهم " عملاء تم القبض عليهم ".ومزدحمة من كلا الجانبين، وخرائط لطرق نائية ومنعزلة، وتعلمنا كيف نصف متعقبينا بدقة وأنواع سياراتهم وأرقام لوحاتها وأشكال المتعقبين، وكانت السيارات هي نقطة ضعفي، لكني تميزت فيما يتعلق بجزئية المظهر العام، ومعرفة أسماء العلامات التجارية والمحال التي تبيعها وما إذا كانت القبعات والحقائب والأحذية من إنتاج هذا العام أم العام الماضي. وكان برنامج التدريب في غاية القسوة لدرجة أننا لم نكن نعرف أين ولا متى سنتتبع، وتطلب هذا منا أن نبقى متيقظين دائمًا، ومثل هذا التدريب عذابًا للفتيات اللاتي لم يكن شغوفين بالقيادة، وتضايقت بشدة من القيادة وخصوصًا القيادة الليلية، وتسبب هذا في أني تهت عدة مرات أثناء التدريبات الليلية.

واعتدنا أثناء القيادة على تدوين الملاحظات حول المتعقبين على ركبتنا دون أن يلاحظ أحد ذلك، وتعجبت من عدم وقوع حوادث بسبب هذا باستثناء حادثة واحدة وقعت لأحد المتدربين السابقين من نيويورك.وكان من أهم أهداف هذا التدريب ؛ التعود على القيادة السلسة قدر المستطاع دون إِثارة الانتباه ؛ وذلك بعدم القيادة ببطء شديد، أو بسرعة شديدة، أو كسر إِشارات المرور، أو الانعطاف المفاجئ.وقال لنا أحد المدربين: الهدف هو أن تهدهدوا مراقبيكم حتى يناموا، وتجعلوهم يملون ملل قاتل. وستعرفون قيمة هذه المهارة عندما تذهبوا في مهامكم خارج الولايات المتحدة حيث سيقنع أداؤكم أي مسؤولين أمنيين يتعقبونكم بأنكم مجرد دبلوماسيين أمريكيين عاديين ولستم جواسيس تابعين لوكالة الاستخبارات المركزية.

وعانينا من الوحدة الشديدة طوال فترة التدريب على اكتشاف التتبع، فقد كنا نظل منفردين فترات طويلة باستثناء وقت اجتماعنا مع المدربين الذين عين واحد منهم لكل طالب منا، ودارت شائعات حول مدربي تتحدث عن أن العديد من جواسيسه تم تعقبهم وإِعدام أغلبهم، ولذلك لم أنزعج لإِحساسه الدائم بالضيق والاضطراب، ولم أندهش عندما كان يحضر الاجتماعات ورائحة الفودكا تفوح من فمه.

وكان هذا أقصى ما سمحت لي به الوكالة من الاتصال البشري بالأخرين، واعتدنا فيما سبق أن ننزل بعدد من الفنادق الموجودة بالمدينة وحولها، إلا أننا كان يتعين علينا عدم الاتصال ببعضنا منذ بدأنا السفر مستخدمين شخصيات مستعارة. لكن الوحدة والرغبة في الثورة على هذا الوضع كانت تتغلب علينا من آن لآخر، فاعتدت أن أجتمع مع أوفليا وأليس ومارك مساءً بحمامات البخار في الفنادق وكأن هذا اللقاء حدث صدفة، وكان هذا أفضل من لا شيء .وإذا كان هناك شيء واحد اتفقت عليه أنا وكافة زملائي ؛ فهو الرغبة في التصرف بانحراف مثل كافة مدربينا، فعلى سبيل المثال اشتهر أحد مديري إدارة العمليات بأنه زير نساء، ولم تكن هذه الصفة مشكلة في حد ذاتها، بل المشكلة أنه كان يرتكب مخالفات داخل مقرات الوكالة أشبه بتلك المعروفة عن بل كلينتون، ودارت الإشاعات كالنيران في الهشيم عن القبض عليه أكثر من مرة وهو في هذا الوضع.
وتعرفت في أثناء هذه التدريبات على كريس الذي قابلته للمرة الأولى في أحد الحانات وهو يتحرك بخفة ورشاقة خلف طاولة المشروبات ليقدم الخمور المختلفة للزبائن فأحسست بأنه ممتلئ بالحيوية، وتعلقت بكريس فترددت على هذه الحانة شبه يومي، واكتشفت بعد ذلك أن كريس وباقي طاقم العمل بالحانة راودهم

إِحساس خاطئ بأني ناقدة للمطعم فقدموا لي خدمة راقية، وسهل هذا لي ترتيب لقائي الأول مع كريس.
قابلت كريس أحد أيام الأحد ــ يوم العطلة الوحيد بالتدريب ــ على الإِفطار في أحد المطاعم فسألني: ماذا تعملين ؟
قلت: أعمل بالحكومة الفيدرالية.
قلت هذا وأنا مشمئزة من الكذب وأود لو أن بإِمكاني أن أخبره بالحقيقة، فسألني: وما الذي تفعلينه ؟
فقلت وأنا أتظاهر بالنظر إِلي طبقي وأحاول تجاهل نظرات كريس المملوءة بالشغف: حسناً، أنا أتدرب للعمل بالسلك الدبلوماسي، ذلك النوع من العمل الذي تسمع عنه خارج البلاد.
وانبهر كريس بشدة عندما سمع هذا لأنه لم يكن سافر إِلي أبعد من كلية أوليميس التي درس بها، وزاد انبهاره بشدة عندما علم أني درست بهارفارد وعشت فترة ببلغاريا التي لم يكن سمع اسمها من قبل.
وتسكعنا بعد الإِفطار بشوارع وسط المدينة ثم تجولنا بحديقة الحيوان وفي نهاية اليوم قال لي كريس: لم أقابل من قبل أحدًا مثلك، متى يمكنني أن أراك ثانية ؟
ولم أتمكن من النوم تلك الليلة من شدة الكرب الذي أصابني من هذا السؤال، ثم بدأت أخطط وأتآمر، وقد حذرنا من قبل من

مخالفة قاعدة:

" ممنوع استخدام السيارات الحكومية للأغراض الشخصية "

وتسببت هذه القاعدة في تحويل حياتنا إلي جحيم، فلو أننا أردنا ـــ على سبيل المثال ـــ الذهاب في إحدى عطلات الأسبوع إلي شاطئ فرجينيا الذي لا يبعد عنا إلا ساعة واحدة فإنه يتوجب علينا أن نقود السيارة لثلاث ساعات حتى نصل لواشنطن العاصمة حيث نبدل السيارة الحكومية بالسيارة الخاصة ثم نسافر لأربعة ساعات حتى نصل لشاطئ فرجينيا، ونكرر هذه الرحلة السخيفة عند العودة في اليوم التالي، واعتاد آدم أن يطرق مسامعنا دائمًا بقوله: " السيارات الحكومية لا تستخدم إلا للعمليات فقط ".

ولم يأخذ أحد منا هذا التحذير على محمل الجد، وكنا نخطط للرحلات في الحدائق والمنتزهات العامة وشاطئ فرجينيا، وبطبيعة الحال كان لا بد من معاقبة أحدنا ليكون عبرة للآخرين.

وقرر شاب عاثر الحظ أن يقود سيارته للبيت في عطلة نهاية الأسبوع، وأن يتوقف في الطريق لشراء هدية لصديقته ـــ المهجورة بلا شك ـــ ولسوء حظ هذا الشاب أن قابلته إيتا الشريرة التي كانت تعمل بإدارة الموارد البشرية وتتلصص على

أنشطة وحدة التدريب السرية، وعندما سألته إيتا وهي تنظر للهدية التي بيده: ما الذي تفعله هنا ؟
أجابها الشاب بكل أمانه: أنا في طريقي لقضاء عطلة نهاية الأسبوع بالبيت، وتوقفت لشراء هدية لصديقتي.
وبعد يومين أرسلت إيتا أوراق طلب استبعاده من البرنامج لمخالفته للتعليمات.
وكانت إيتا مشهورة بقساوة القلب، وأذكر أني عندما كنت أحاول المحافظة على علاقتي بساشو مع عدم مخالفة تعليمات الوكالة ذهبت لإيتا أطلب منها النصيحة فقالت: لماذا لا تتركين هذا الموضوع برمته.
وقالت لي وهي ترافقني إلي الباب: الأوروبيون الشرقيون لا يمكن الثقة فيهم.
وأحسست أنها ذاتها أحد آثار الحرب الباردة.
وبعد أن علمنا نبأ الحظ العاثر الذي وقع فيه هذا الشاب بدأنا نأخذ التعليمات مأخذ الجد، وقال لنا إيثان وهو يمزح: لو أنكم عانيتم من نزيف داخلي حاد وخرج الدم من أفواهكم فمن الأفضل أن تذهبوا للمستشفى بأحد سيارات الأجرة فربما تكون إيتا تتلصص على موقف سيارات المستشفى.
وكان ينبغي علينا أن نلتزم بالتعليمات في كل شيء حتى في

الأمور الشخصية مثل الذهاب للمغسلة أو الاتصال بالمنزل من كشك هاتف عمومي.
وأحسست بعد لقائي بكريس أني أقع في الحب فلم أكن واعدت أحدًا منذ انفصالي عن ساشو، وكنت في أشد الحاجة لصديق فقد كان العديد من زملائي متزوجين ؛ وعلى الرغم من هجرهم لزوجاتهم وأطفالهم لفترات طويلة إلا أنهم كانوا يعودون لأسرهم بعد ظهيرة يوم الجمعة عندما يخف ضغط العمل.
وقبل أن أتعرف على كريس لم يكن عندي من أذهب إليه فقد كتبت لي صديقاتي يخبرنني أني لم أعد محل ثقتهم، وفي المرات القليلة التي ذهبت فيها لواشنطن العاصمة كنت أتعلق بأمي التي كانت في غاية القلق على صحتي النفسية وقالت لي أكثر من مرة: لا أرتاح للتغيير الذي يحدثه فيك هذا المكان، فأنت تبدين وكأنك تنفصلين تمامًا عن بقية العالم.
وأحببت الذهاب إلي كريس الذي كان يعيش حياة بوهيمية ويعد لي الوجبات اللذيذة ويدخن الماريجوانا ــ التي لم أتعاطاها ــ وانحصر دوري في التسلل لأفنية جيرانه وسرقة الزهور منها.
واعتدت أن أجلس مع كريس بشرفة منزله وأتحدث معه مطولًا عن جمال اللقاءات التي تتم بالصدفة مثل اللقاء الذي جمع بيننا.
واعتدت مع مرور الوقت الاعتماد على كريس بوصفه حلقة

الوصل الوحيدة التي تربطني بالعالم الخارجي بصورة غير طبيعية، ولست في حاجة لإيضاح مدى تأثير هذا على علاقتنا بجانب فشلي في الإجابة على العديد من أسئلته مثل:
" لماذا يتوجب على الانصراف في منتصف الليل ؟ "
" أين أذهب ؟ "
" لماذا ليس لدي رقم هاتف يمكنه الاتصال به ؟ "
" لماذا أحضر كل مرة بسيارة مختلفة ؟ "
وكان عندي بعض الإجابات على سلوكياتي الغريبة، لكن الاستمرار في الكذب كان مزعجا، وبدأت أفقد الخط الفاصل بين الحقيقة والكذب، وبمرور الوقت أصبح التواصل معي صعب، وأصبحت في رأي كريس غير جديرة بالثقة.
وأملت أن يهتم بي كريس أكثر بعد عدم تمكنه من تعقب عدم مصداقيتي، فلم يكن بإمكان أحد أن يتهمني بأني سهلة المنال، لكن بمرور الوقت أحس كريس بأني محيرة أكثر مني مغرية.
وذهبت لكريس ذات ليلة في وقت متأخر دون أن يتوقع حضوري، وأثناء جلوسنا على الأريكة نستمع لويلكو ونحتسي الخمر قال لي كريس: أريد أن أكون أمينًا معك، أعرف أنك مغرمة بي لكنني لست متأكد من إمكانية استمرار هذا الوضع.
قلت: ما الذي تعنيه، بالطبع ستستمر علاقتنا وتنجح.

وكنت قد فكرت في أن أصحب كريس معي ـ بطريقة ما ـــ في جولاتي خارج البلاد.
فقال كريس وهو يشعر بيأسي الواضح: لا يمكن يا لندسي، فقد تعرفت على واحدة تعيش هنا وتعمل معي في المطعم.. ..
وبدأ كريس يضربني بكلامه، وصدمت من تفكير كريس في الـــ " واحدة " فهي بالطبع إنسانة تعيش حياة عادية، وتساءلت: من أنا ؟ وأدركت أني إنسانة تروح وتجيء وتكذب باستمرار وبصورة غريزية، فلست إلا إنسانة مهمتها في الحياة أن تستغل الآخرين، ولست ــ بمنتهى الوضوح ـ إنسانة يمكن الوثوق بها، وأدركت أكثر من كريس أني لا أرغب في الحياة مع إنسان على شاكلتي.
فقلت وأنا أهم بالوقوف: حسناً.
وبعد دقائق كنت أقود سيارتي متجهة إلي وليامسبرج وعيناي مغرورقتان بالدموع.
وبعد أيام اتصلت بكريس وطلبت مقابلته مرة ثانية على أمل أن أنقذ علاقتنا، واعترفت له في هذا اللقاء بأحد المطاعم ــ بعد أن جلست أمام طبق السمك الياباني الذي لم ألمسه ــ أني أعمل بوكالة الاستخبارات المركزية وقلت: هذا هو السبب في مجيئي وذهابي بلا سابق إنذار، وسبب امتلاكي عشرة سيارات مختلفة

وعدم امتلاكي لرقم هاتف معين.

واسترا ح كريس وبدا عليه التأثر وعادت علاقتنا لسابق عهدها واعتدنا التجول في أيام العطلات الأسبوعية واللعب مع كلبه وسط أوراق الأشجار التي تتساقط في الخريف ومشاركته كوب الجعة الأخير في أيام الآحاد قبل حلول الظلام وعودتي للمزرعة.وفي نهاية المطاف تسببت ظروف عملي في أن تتحول إلي مصدر ضغط شديد عليه، ولم تخفف الأوقات السعيدة التي كنا نقضيها معًا من هذا الضغط، فكان كريس يرغب في التعرف على الأصدقاء الذين يمكنهم التحدث عن طبيعة أعمالهم وأن يتناولوا الماريجوانا معًا ولا تتجول أعينهم في كافة الأنحاء بحثًا عن المتعقبين، وأعتقد أن كريس نظر لقصة وكالة الاستخبارات المركزية ككل على أنها وصمة عار وبدأ يقلق من أن أكون خطيرة أو مضللة، وربما الأمرين معًا.

وانسحب من حياتي فجأة بأن صار يخبرني في كل مرة أتصل به أنه مشغول جدًا، فبدأت أعتاد على الذهاب أثناء العطلات إلي واشنطن العاصمة وأنا أشعر بالندم، والاشتياق الشديد لسماع لكنة كريس الجنوبية الرقيقة فقد كان صوته بالنسبة لي أشبه بالخمر، وتوجهت شمالًا إلي أمي المصدر البديل للراحة.

* * * *

الفصل السادس

سرت مع أليس بشوارع وليامسبرج متنكرين كزوجين سائحين ونحن نلعق أكواز البوظة وهو يرتدي قميصا مبهرجا بألوان متعددة وسروال جولف فضفاض وخط من البوظة متعلق بشاربه الرفيع، وأنا إلي جواره حامل في شهري الثامن وأرتدي ثوبًا فضفاضًا بالإضافة إلي الوسادة المربوطة على بطني والشعر الأحمر المستعار والنظارات الكبيرة التي يعود طرازها إلي فترة السبعينات، وتوقفت أمام واجهة عرض أحد المتاجر لألمح انعكاسي في الزجاج فبدا لي مظهري أشبه بمهرجة بدينة بدلًا من امرأة حامل.

وأمدنا بأدوات التنكر قسم التنكر بالوكالة الذي قدم بعض مسؤوليه اليوم إلي المزرعة.

وقدمت لنا امرأة نفسها على أنها " متخصصة تغيير الهوية " وأخرجت لنا بمنتهى الفخر شيئًا بدا أشبه بقناع عيد القديسين الذي يمكن لأي أحد شراءه من متجر لعب الأطفال بعشرين دولارا، وقالت: هذه الأقنعة مصنوعة يدويًا، ويتكلف صناعة القناع الواحد الآلاف من الدولارات بالإضافة إلي شهور طويلة للانتهاء من عمله.وتناول زملاؤنا الأقنعة الغالية أثناء فترة

الراحة بأيدي رقيقة وعناية بالغة بينما سخرت أوفليا ــ التي كانت تعمل من قبل بمتجر أدوات تنكر ــ من هذا الموقف، وأخبرتني بأن الوكالة تجمع نفايات أدوات التجميل لتقدمها لنا في هذا التدريب.

وبعد فترة الراحة نقلنا علب الماكياج إلي خزائن ملابسنا حيث توجب علينا قضاء بقية اليوم في التمرن على الأدوار التنكرية التي كلفنا بها، ولا زلت أتساءل عمن أعطاهم فكرة تنكري في صورة امرأة حامل.

وبعد أن انتهينا من تنكرنا كانت أوفليا تضع شعرًا غريبًا جعلها أشبه بريك جيمس، وإيثان يرتدي لحية كبيرة التفت حول وجهه الأحمر الجميل وهو يرتدي سترة سوداء وقبعة كبيرة سوداء ويبدو أشبه بأحد أتباع الديانة المينونية.

وعندما قابلت عينا إيثان عيناي انفجرنا في الضحك، فلم أكن أتخيل أن أتقاضى المال مقابل مثل هذه المتعة.

* * * * *

انغمست في الأعمال اليومية الروتينية بالمزرعة على أمل أن أنسى إِحساس القلق والعزلة الذي ملأ عالمي، ولا أنكر أنه مرت علي لحظات صفاء أثناء الجري بالغابات والسباحة في الصباح الباكر بحمام سباحة المعسكر وأثناء تنزهي ليلًا بالدراجة مع إيثان، لكن سرعان ما كان يتبدد هذا الصفاء لتحل محله مشاعر الحزن والحنين إِلي الماضي الذي سلبته المزرعة مني، وكنت على يقين من أن كل الضباط الميدانيين العظام على مدار تاريخ الوكالة بدءوا حياتهم من هنا ؛ وتساءلت في نفسي عما إِذا كنت سأصير مثلهم بعد أعوام.ووجدت القليل من المدربين ملهمين وودودين، وكان أكثرهم تأثيرًا مجند أسطوري يدعى بل عُين معلمًا لي، واختلف بل عن الآخرين ببعده عن الثرثرة بلا داع والرغبات الجنسية المشينة، وزاد من سروري معارضة بل لأسلوب آدم علانية، ومنذ أن صار تعيين بل بالمزرعة أشبه بالإِحالة للاستيداع صار بل يقول ما يخطر على باله دون وضع أي اعتبار لمن يعترض عليه أو يتهمه، ومن سخرية القدر أن بل الذي اشتهر بتحقيقه رقما قياسيا من النجاحات في التجنيد كان المدرب الوحيد الذي أخذ مخاوفي الأخلاقية فيما يتعلق بالتجنيد على محمل الجد ووافقني الرأي في ضرورة الانتقال إِلي قسم التقارير.وقال لي بل عندما اعترفت له بحقيقة مشاعري

تجاه عملية التجنيد: كنت أشعر كل مرة أجند فيها عميلًا بنشوة عارمة، لكني أتفهم تمامًا عدم تمكنك من القيام بهذا الدور.وكان بل من ذاك الطراز القديم من الرجال الذي يرى أن المرأة لا تصلح لأن تكون ضابطا ميدانيا بأي حال من الأحوال.
وقال لي بل أكثر من مرة: لا أرضى هذا لابنتي، ولا يمكنني تذكر عدد المرات التي اضطررت فيها أن أرتدي ملابسي في منتصف الليل لأنقذ ضابطا ميدانيا امرأة من بين براثن أحد العرب الشهوانيين. وأذكر امرأة شابة اتصلت بي ذات مرة في الساعة الثانية صباحًا وهي تستجدي بهستيرية، وعندما وصلت إليها كان أحد الشيوخ يطاردها بحجرتها في الفندق.
ولمحت لبل بمخاوفي في البداية لكني بمرور الوقت تحدثت إليه صراحةً، ودائمًا ما كان يستمع لي بتعاطف ويمدني بالنصائح المقنعة، وبغض النظر عن حبه لهذه المهنة، فإنه كان متفهمًا عدم ملاءمتي لها، وكان يرى أن الوكالة تمثل لي عائقا على الرغم من ولائه لها.
وقال لي ذات مرة: " لا تفقدي نفسك في هذا المكان يا لندسي فلا شيء يستحق ذلك، فالأفضل فينا يُنسي بسرعة حتى داخل القيادة نفسها "، وذكرني بأن أشهر ضباط الوكالة هم الفشلة والخونة.

ولا تزال كلمات بل التي قالها لي في أحد اجتماعاتنا الفردية الأخيرة ترن في أذني حتى اليوم ؛ حيث قال لي:" بعد انتهاء عملك بالوكالة كوني على حذر وأنت تخرجين ولا تدعي الباب الدوار يضرب ظهرك. "

* * * * * *

انطلقت أنا وإيثان في الطريق 64 متجهين لشاطئ فرجينيا في انتهاك شديد لقاعدة " ممنوع استخدام السيارات الحكومية للأغراض الشخصية " لأن الشاطئ كان يقع في مواجهة منطقة تدريبنا الحالية، وفكرت في أني لو أمسكت سأفكر في أي كذبة أخرج بها من هذا المأزق على الرغم من أني سأكون وقتها في مشكلة كبيرة، وسألت إيثان الذي اعتبرته بشكل ما شريكي في الجريمة: ما الذي يجبرني على فعل هذا خصوصًا بعد أن قطعت شوطا كبيرا في برنامج التدريب ؟

قال: أنت تريدين أن تختبري القدر بأن تنتظري طردك من البرنامج، فليس عندك القدرة على أن تقرري بنفسك الخروج من البرنامج.

قلت: حسنًا، وماذا عنك ؟

قال:أريدأن أختبر ما تعلمناه،وأريدأن أتأكدمن عدم القبض علينا.

وكنت في هذه اللحظة أقضي مع إيثان عطلة ــ بعد شهور من

التدريب ــ لتصفية ذهننا تمامًا لــ " الرحلة البعيدة " حيث سنعمل على تطبيق كافة الخبرات التي تعلمناها في كل ما يختص بأساليب الجاسوسية باستخدام هويات مزيفة في مدينة ما، وقسم الفصل إلي مجموعتين إحداهما ستذهب إلي سان فرانسيسكو والأخرى إلي فلادلفيا، وأحسست بخيبة الأمل عندما تقرر أن أكون ضمن المجموعة الذاهبة لفلادلفيا التي بدت لي أقل إغراءًا من سان فرانسيسكو، واختار أغلب الطلاب السفر بالطائرة ليجربوا السفر جوًا تحت اسم مستعار ولأن تذكرة الطائرة كانت محجوزة في درجة رجال الأعمال، بينما اخترت أنا الذهاب بالقطار الذي يستغرق خمس ساعات، وقررت ذلك لأعطي نفسي فرصة للقاء كريس للمرة الأخيرة ؛ فمن السهل قيام الوكالة بتعقب تذكرة الطيران خلافًا للقطار.

وتقرر أن يذهب الطلاب في عطلة نهاية الأسبوع لزيارة أسرهم، وقررت أنا وإيثان أن نذهب للشاطئ فخرجنا من القاعدة وقدنا السيارة وكأننا في طريقنا لواشنطن العاصمة، وبمجرد أن تأكدنا من أننا لسنا مراقبين انعطفنا فجأة للسير في الاتجاه العكسي متجهين إلي الجنوب، فقلت: هذا استغلال لأحد الفوائد التي تعلمناها في التدريب.

فقال إيثان: حقًا.

وفجأة وقف شعر إيثان من شدة الرعب وقال: هل هذه السيارة التي خلفنا سيارة آدم ؟ !

فغطست قدر الإمكان داخل مقعدي، وضحك إيثان وقال: أتظنين أن هذا التصرف سيجدي ؟ ! لو أن هذا الأحمق رآنا لانتهى أمرنا.ولم يرانا آدم ولا أي من المدربين الآخرين وقضينا يومًا ممتعًا على الشاطئ وغطسنا وسط الأمواج كالدلافين، ثم تمشينا على الشاطئ ونحن نأكل الكعك والبوظة والشمس تغيب وراء الكثبان.ولم أتذكر المرة الأخيرة التي أحسست فيها بالحرية أو السعادة الغامرة، وأحسست في هذه اللحظة بمدى الإجهاد الذي صرت عليه، وربما كنت من أشد أفراد الفصل إحباطًا وأقضي ساعات الليل الطويلة متيقظة مثل العديد من زملائي، لكن الميزة السرية التي ساعدتني على الصمود هي قدرتي على الكتابة فكنت أنهي كافة مراسلاتي الافتراضية وأسلمها دون أن أفكر حتى في مجرد مراجعتها، بينما كان الآخرون أمثال سالي العاصفة يقضون قرابة الساعة يعانون الكرب في كتابة جملة واحدة.وكان أغلب المتدربين في الماضي يبدون وكأنهم لم يناموا لليال طوال، لأنهم في الحقيقة كانوا لا ينامون فعلًا، لكن بعد أن أنهينا اختبار التدريب العسكري والتجنيد وانتقلنا لتدريب اكتشاف التعقب زاد وزن الجميع لأننا لم نكن نفعل شيئًا سوى الجلوس

على مقاعد سياراتنا والانتقال بالسيارة طوال اليوم من مكان لآخر، ونأكل الوجبات السريعة والوجبات الدسمة ونشرب الخمور، ثم نقضي بقية الوقت جالسين على مقعد دوار.
واعتدت أن أضحك مع إيثان على هذا الوضع وأقول له: إن مؤخراتنا ستصبح قريبًا كبيرة جدًا بسبب استمرار جلوسنا على هذه المقاعد، وسيشير إِلينا موظفو الوكالة عند عودتنا إِليهم بعد انتهاء التدريب ويقولون: " هذه المجموعة ذات المؤخرات الضخمة هي نخبة متدربي الوكالة على التجسس ! "
وفي نهاية يومي أنا وإيثان على الشاطئ كان قد امتلأ شعرنا بالرمال وجسدنا بحروق الشمس، لكننا لم نبال بهذا، وانطلقنا شمالًا مرورًا بالمزرعة، وأنزلني إيثان عند نزل قرب محطة القطار لآخذ طريقي في اليوم التالي شمالًا إِلي فيلي.
وقاومت نفسي طوال الليل لأمتنع عن الاتصال بكريس، وفكرت فيما يمكن أن أقوله له، أأتصل به وأقول له: " آلو، أنا أليس.. . أقصد ليندسي "، وفكرت في أن ظهوري المفاجئ بنزل ببلدته تحت اسم مستعار، لن يؤدي إِلا إِلي تأكيد شكوكه حول كوني حمقاء أو متقفية أثر أو هاربة من السجن أو شرطية.
وفكرت في الذهاب إِلي الحانة التي يعمل بها، لكني فكرت مرة أخرى في مدى جدوى هذا التصرف ؟

وذكرت نفسي بأني على وشك الانتهاء من برنامج التدريب وسأغادر البلاد خلال عام ؛ فلا جدوى من إعادة إحياء علاقة ماتت موتًا بطيئًا مؤلمًا.وقضيت الليلة أتناول دومينوز بيتزا وأشاهد أفلاما إباحية، وأصررت على دفع ثمن الفيلم نقدًا حتى لا يُعرف من بطاقة الائتمان التي أحملها أني شاهدت أفلاما إباحية، وقضيت الليلة وأنا آسي على نفسي.

ولم يكن بإمكاني أن أعرف نفسي باسم لندسي في الهاتف لذلك لم أتمكن من الحديث هاتفيًا مع أي أحد، وفكرت في الاتصال بأمي لأنها ستعرفني من صوتي، لكني عدلت عن هذه الفكرة لأن هذا سيربط حجرة أليس ابليجيت برقم هاتف منزل أمي وسيدل هذا على عدم اتقاني مهارات الجاسوسية، وسيتسبب هذا الاتصال في العديد من المشاكل لو أنه انكشف، وتحول السفر باسم مستعار إلي تجربة مملة ومليئة بالوحدة أكثر من كونها خبرة جديدة ممتعة.واشتريت في اليوم التالي تذكرة للقطار المتجه إلي فيلي، ولم أقترب من واشنطن العاصمة، وشاهدت أثناء سير القطار معالم أمريكا الجميلة فأحسست ببعض الفخر وقلت لنفسي " أنا في طريقي لخدمة بلدي "، وكنت موقنة تمامًا من أن هذه البلد التي أحبها فعلًا من أعماق قلبي هي أفضل بلاد العالم، ولن يعلم أحد أبدًا ما الذي أنا في طريقي للقيام به، لكني

سأقوم بلعب أدوار غاية في الأهمية من وراء الكواليس.
وتم إخبارنا أننا سنكون بفيلي مراقبين مثل أي مكان آخر، لكننا في هذه المرة لن نراقب من قبل متعقبين عاديين كما كان الحال بوليامسبرج ؛ بل سيقوم بالمراقبة عملاء من مكتب التحقيقات الفيدرالية أكثر دقة وبراعة في أساليب التعقب.
وبمجرد وصولي للفندق بفيلي تركت حقائبي بمكتب الاستقبال وانطلقت للمطعم الراقي الذي يفترض أن أقابل فيه السفير الماليفولنسي بدولة فنجلوريا وتم الترتيب لهذا اللقاء منذ أسابيع بعد أن أقنعت السفير بلقائي في هذه المدينة البعيدة من أجل " ترسيخ ووضع أطر لطبيعة علاقتنا " كما أخبرته، وكان يعلم أني أخطط لتجنيده للعمل لصالح وكالة الاستخبارات المركزية.
وقام بدور السفير أحد المدربين العجائز الذي كان يناسبه العمل المسرحي أكثر من العمل كضابط ميداني، فقد أخذ دوره على محمل الجد بصورة غريبة.وارتديت بذلة سوداء واقتربت من مطعم الوجبات البحرية الذي درست موقعه وأعطيت عنوانه للسفير بالمزرعة من قبل، وعندما أخبرت النادل باسمي " أليس ابليجيت "، قال: نعم، أنت من تنتظرين السفير ليروي.وأصبت بالذهول وتساءلت في نفسي عما إذا كان كل سكان فلادلفيا مشتركين في هذا السيناريو ؟ أم أني فقدت الإحساس بالواقع ؟ !

ولم أدر ما إذا كان يتوجب علي قول الحقيقة أم أن هذا اختبار، وفي النهاية قلت: نعم.فمد النادل يده في جيب سترته وأخرج لي ورقة تركها لي السفير يطلب مني فيها مقابلته بعد عشرين دقيقة بمطعم فرنسي في الجانب الآخر من المدينة على بعد عشرين دقيقة بالسيارة، وكان هذا المطعم من تلك المطاعم التي يمكن للرجل أن يصحب إليها المرأة التي ينوي خطبتها.

وبمجرد وصولي لمحت ليروي يرتشف خمرًا حمراء من كأس على مائدته المنزوية في أحد الأركان.

ولعنت هذا التغيير وخطر على بالي أني سأوبخ أثناء التقييم لاقترافي خطأ ما ؛ فلابد وأن ليروي اعترض على مطعم الوجبات البحرية ـ الذي اخترته بعناية وبعد بحث مضني ـ لأنه اعتبره مكانًا مزدحمًا ولا يصلح لطبيعة الاجتماع، واكتشفت بعد ذلك أن كل ما في الأمر أن ليروي أراد أن يستمتع بوجبة أغلى ثمنًا بالإضافة إلي الاستمتاع بطلب الطعام بلغة فرنسية راقية.وتقاسمنا كالمعتاد زجاجة خمر قبل أن تقدم لنا المشهيات ووجبة الطعام الرئيسية التي تلاها البراندي والحلوى، ولو أن دافعي الضرائب يعرفون كيف ينفَق بسخاء على تسمين ضباط وكالة الاستخبارات المركزية المتقاعدين لاحتجوا بشدة.

وتنقلنا أثناء العشاء بين المواضيع المختلفة المتعلقة بفنجلوريا

ونحن مستمتعين بمناقشة أمور الأدب والحياة وبالطعام التالي الذي سنطلبه.وكان السفير ليروي قد أبدى لي في الأسابيع الماضية أكثر من مرة وبصراحة قلقه من عدم زواجي حتى الآن، وقال: أتساءل بشدة عن كيفية تمكنك من مقابلة شخص في مثل عقليتك ؟وعلى الرغم من أني لم أكشف غطائي أبدًا أثناء لقاءاتي مع ليروي، إلا أن الفكرة تكمن في أن الهدف ينبغي أن يعرف على وجه الدقة رغبات الضابط الميداني قبل تجنيده الرسمي، وبطبيعة الحال ينبغي أن لا يعرف الهدف المحتمل من اللقاء الأول أنه ذاهب لمقابلة ضابط بالمخابرات، لكن خلال سلسلة اللقاءات يتعين على الضابط الميداني أن يلقي بعض التلميحات من آن لآخر ليسمح للهدف بملاحظة هذا وليتأكد من رغبة الهدف في استمرار لقاءاته به، حتى بعد أن يتضح منه تدريجيًا تقبله الاشتراك مع الضابط في الجريمة المقدم عليها وميله إلي تحمل المخاطرة.

وقلت وأنا أعبث بلآلئ عقدي وكأنها قطع ثقيلة: أعتقد أن إيجاد زوج ليس هو الأمر الهام في هذه الفترة، وأرجح أني سأجد الشخص المناسب ــ أو سيجدني هو ــ في الوقت المناسب.

فوضع ليروي كأسه وانحنى نحوي وقال: لم تعودي شابه يا آنسة.

فقلت: نعم، لكني لا أفكر في هذه المرحلة إِلا بعملي بالإِضافة إِلي أني مهتمة بمصالح بلدي قدر اهتمامي بمصالح بلدك في هذه الفترة المضطربة يا سيادة السفير.

ورغبت في أن تنتهي هذه الوجبة لأني بدأت أفتن بسحر ليروي وتودده خصوصًا وأنه يتعامل معنا برقة خلاف كافة المدربين الحمقى وكان يعاملني بود عندما كان يفترض به أن يعلمني كيف أصبح جاسوسة.

وأشرت للنادل ليحضر فاتورة الحساب لأننا تعلمنا ألا ندع مدربًا يدفع الحساب أبدًا ؛ لأن هذه هي أقصر الطرق للرسوب بجدارة في التدريب.

قال ليروي: أنت فتاة ماهرة، لكن أولوياتك في هذه اللحظة مشوشة بلا أدنى شك.

وعندما أتى النادل بفاتورة الحساب ارتاح ليروي في مقعده وطلب كونياك.

وتحملت لنصف ساعة تالية ــ كما فعلت عدة مرات من قبل ــ نصيحة ليروي المزعجة بخصوص حياتي العاطفية، وأحسست أنه بالإِضافة إِلي عدم إِحرازي أي تقدم في تجنيد ليروي أثناء هذا اللقاء ؛ فإِن ليروي كان يخاطب ليندسي موران وليس أليس أبليجيت.

وقرب منتصف الليل أحسسنا بالتعب وصارت إنجليزية ليروي المختلطة بالفرنسية أقل تماسكًا، وتركني ليروي أدفع الفاتورة التي تجاوزت المائتي دولار، فناولت النادل كارت الائتمان الخاص بشخصيتي المستعارة وذكرت نفسي ألا أوقع لا إراديًا باسمي الحقيقي كما يفعل أحيانًا بعض الضباط غير المتيقظين.

وبعد عدة دقائق عاد النادل يناولني بطاقة الائتمان بإصبعين ويقول لي بنبرة أقرب إلي السخرية: بطاقتك ملغاة، ويقولون: إنك لم تدفعي فاتورتك.

واحمر وجهي بشدة فلم يسبق وأن رفضت لي من قبل بطاقة ائتمان، وكان يفترض بمكتب الميزانية والتمويل بالوكالة أن يهتم بدفع فواتير شخصيتي المستعارة، ولم أبح بالطبع بهذه الحقيقة لذلك النادل الغاضب.

وعبثت بأصابعي داخل حقيبتي أتحسس الأوراق القليلة فئة العشرة وخمسة دولارات وأنا أقول للنادل: لا بد من أن هناك خطأ ما، أيمكن أن تحاول مرة ثانية ؟

فقال النادل بصوت عال: لقد حاولنا عدة مرات.

فدارت عينا السفير ليروي من شدة الحنق وهو يسحب محفظته، وأحسست بالضيق الشديد لأن هذا سيتسبب في أن أنال درجات متدنية جدًا في أحسن الأحوال.

ووجدت في الصباح التالي ملحوظة متروكة لي عند مكتب الاستقبال مكتوب فيها " سمح السفير لنفسه بتصحيح خطأ الأمس غير المقصود "، ولابد أن ليروي أخبر شخصًا ما بمكتب الميزانية والتمويل بالمأزق الذي تعرضت له لأني عندما حاولت استخدام بطاقة الائتمان مرة أخرى أثناء توقفي بأحد المتاجر للتأكد من عدم المراقبة بشراء طوق كلب ــ لم أكن أمتلكه أصلًا ــ ؛ أحسست بالراحة عندما قبلت بطاقة الائتمان فورًا.

* * * * *

لم تتحصر مهام عملي هذا الأسبوع في تجنيد ليروي ؛ بل تعين علي أيضًا أن أحصل من باري ــ العميل الذي جندته من قبل ــ على أسطوانة كمبيوتر، وتوجب علي استخدام أسلوب قديم في عالم الجاسوسية يسمى " الإسقاط " حيث يتعين علي أن أعطي إشارة بريئة ــ محددة سلفًا ــ للهدف، وينبغي على باري أن يقوم بعملية التسليم خلال أربعة وعشرين ساعة في مكان آخر سبق الاتفاق عليه بأن يضع أسطوانة الكمبيوتر داخل صخرة مزيفة صنعتها بعناية من بعض المواد الصناعية ثم لطختها بالأوساخ وقطع من أوراق الشجر وأعطيته إياها بالإضافة إلي كافة تفاصيل منطقة الإسقاط أثناء مقابلة قصيرة تمت بمصعد كهربائي بعد وصولي فلادلفيا بيومين.

وبمجرد أن ينتهي باري من عملية الإسقاط ينبغي عليه أن يترك لي علامة بأن يسقط قشر برتقال بمكان آخر متفق عليه إشارة إلي أني يمكنني التقاط الصخرة المزيفة، ويلي هذا علامة أخرى ؛ وهي أن أترك ستائر حجرتي في الفندق مفتوحة وأضع في الشرفة منشفة حمراء لتجف دلالة على أني التقطت الصخرة وأن كل شيء على ما يرام. وبالطبع لا يمكن إتمام أي من هذه الخطوات أثناء المراقبة ؛ لذلك أخذت جولات متواصلة لثلاثة أيام بكافة شوارع فلوريدا لأتأكد من عدم تعرضي للمراقبة.

ولمحت ذات يوم امرأة رأيتها منذ حوالي ساعة أمام فندقي، ثم رأيتها بعد ذلك بالجانب الآخر من المدينة والآن تجلس على أحد المقاعد العمومية على الشاطئ تتظاهر بأنها تقرأ جريدة.

وتعقبني في الساعة التالية فريق من عشرة متتبعين بعضهم على الأقدام، وبعضهم في سيارة فان بيضاء لمحتها عدة مرات في أماكن مختلفة، وأدركت أني لن أتمكن اليوم من الوصول لموقع الإشارة فقررت القيام بعملية " الإحراق "، وتعني عملية الإحراق تحديد وجمع أكبر قدر من المعلومات عن كل فرد في فريق التتبع وذلك بسحبهم خلفي حول المدينة.

وكنت على وعي تام من أني يجب ألا أقوم بأي إشارة تدل على معرفتي أني مراقبة، لكني لم أتمكن من منع نفسي من محاولة

استنزاف المراقبين ماليًا، وبينما كنت أقف قرابة الشاطئ حيث المرأة التي تراقبني تجلس على أريكة عامة بالقرب مني ؛ أشرت فجأة لسيارة أجرة اقتربت مني في هذه اللحظة وألقيت بنفسي على المقعد الجلدي وطلبت من السائق أن يأخذني من أطول الطرق إلي الجانب الآخر لفيلي، ولمحت في هذه اللحظة في المرآة الأمامية المرأة التي تتعقبني وهي تقف حائرة تبحث عن سيارة أجرة ورجل آخر يقف قرب كشك هاتف يتحدث في ياقة معطفه حيث يوجد بالطبع جهاز اتصال بباقي الفريق.

وابتهجت بشدة على الرغم من معرفتي أني ينبغي أن لا أهرب من فريق التتبع.

وتوقفت بعد خمسة عشر دقيقة لشراء القهوة، وصدمت عندما رأيت فردين من فريق المراقبة يسيرون في الطريق وكلًا منهم يرتدي ملابس مختلفة تمامًا عن تلك التي كان يرتديها منذ دقائق، ولمحت المرأة التي كانت سوداء الشعر منذ قليل ترتدي قبعة تنس تتدلي من تحتها خصلات شعر أشقر طويل، واختفت شوارب الرجال وبدلت ستراتهم العادية بأخرى رياضية، وتمكنت من التعرف عليهم من خلال أحذيتهم التي علمنا خلال فترة التدريب أنها نادرًا ما تتغير.

وأدركت أن هؤلاء الشباب محترفون فدفعت ثمن القهوة ثم

بحثت عن حافلة لتتقلني خارج المدينة، وأثناء انعطافي بأحد طرق فلادلفيا القديمة بعد الظهيرة أحاط بي ثلاث رجال يرتدون سترات ونظارات سوداء وقالوا لي: توقفي، أنت رهن الاعتقال. وقال أحدهم أنهم ضباط من مكتب التحقيقات الفدرالية، بينما قام الآخر بوضع القيود في يدي وأخرج شارته التي لمحت فيها مصادفة أن موران هو اسم عائلته وبدأ يتلو على حقوقي القانونية.

قلت: بأي تهمة ؟

فقال أحدهم: تجارة المخدرات، ولدينا العديد من الشهود الذين رأوك بالأمس تسقطين شيئًا في سلة مهملات اكتشفنا بعد ذلك أنه ثلاثة كيلو جرامات من الكوكايين.

ولمحت وفد سائحين يابانيين يلتقط صور هذا المشهد، وأحسست أثناء إحكام القيود على معصمي أني أسمع صوت آلاف المصاريع تغلق.

وعلى الرغم من يقيني أن كل هذا خدعة إلا أني ارتجفت من شدة الرعب فلم يسبق لي أن اعتقلت من قبل علاوة على حدوث هذا في مكان عام، وتخيلت بكآبة عشرات الصور التي ستتداولها الأيدي باليابان لتلك المرأة الأمريكية القذرة وهي تغل بالقيود.

وسألني موران محاولًا أن يمسك خطأً لي وقال: ما اسمك ؟

قلت: أليس أبليجيت.

وناولته محفظتي التي تحوي كافة أوراق هويتي المزيفة، وقال لي: ما محل ميلادك يا أليس ؟

واستمر موران لدقائق تالية يسألني العديد من الأسئلة التي تثبت مدى إتقاني معرفة تفاصيل هويتي المزيفة مثل عنواني ورقم هاتفي وأسماء والداي وعناوينهم وتواريخ ميلادهم وأبراجهم.

وبدأ الحشد الذي تجمع لمشاهدتي يزيد، وأعتقد أن موران خشي أن ينجذب هذا الحشد لمعرفة تفاصيل القضية بما أني متعاونة بصورة غير عادية ولم يقدم أي دليل ضدي ؛ فقادني إلي سيارة تقف على الجانب الآخر من الطريق ولا تحمل أي علامة مميزة، وجلست على المقعد الخلفي بين الضابطين الآخرين وجلس موران أمام عجلة القيادة واستمر في توجيه أسئلته ؛ فسألني عن مكان إقامتي والعمل الذي أقوم به في فلادلفيا.

فقلت: أنا مستشارة وأتجول في فلادلفيا لمعرفة مدى إمكانية افتتاح مكتب هنا.

قلت هذا وأنا آمل ألا تُضعف ملابسي الجينز وحذائي الخفيف وحقيبة الظهر التي أحملها من موقفي.

فقال موران ساخرًا: نعم، أهناك أي أرقام هواتف لأشخاص بفلادلفيا يمكننا الاتصال بهم.

ولحسن الحظ أني ذهبت في الأيام الماضية لعدد من المتاجر التي تبيع الأدوات المكتبية لأدعم القصة التي رتبتها من قبل، بل أني أيضًا أعطيت بعض أصحاب هذه المتاجر عددًا من بطاقاتي المزيفة، وأمددت موران بعدد من عناوين وأرقام هواتف الأماكن التي قصدتها فقد كانت كل هذه المعلومات مدونة في مفكرة أحملها في حقيبتي.
وقال موران لأحد الضباط الجالسين بجواري: لماذا لا تبدأ في الاتصال ببعض هذه الأرقام ؟
وبينما بدأ الضابط يجري الاتصال الأول قلقت من احتمالية ألا يتذكرني أحد ممن قابلتهم فهؤلاء الشباب يأخذون الأمر برمته على محمل الجد، وسألت نفسي: هل أنا متأكدة أن هذا ليس حقيقي ؟
ولحسن الحظ أن المالك أو المدير أو ــ على الأقل ــ أحد العمال بالمتاجر التي اتصل بها الضابط قالوا أنهم يذكرون سيدة أعمال تركت بالفعل إِحدى بطاقاتها خلال الساعات الثماني والأربعين الماضية، وقال أحد أصحاب تلك المتاجر: لا يمكنني أن أنسى اسمًا غريبًا مثل أليس أبليجيت.
واتصل الضابط بالفندق الذي أقيم فيه وسأل مكتب الاستقبال عني، وتنبهت للكم الهائل من المعلومات التي قدمها الفندق عني

والتي احتوت على ترتيب المشتروات التي ابتعتها من ثلاجة الفندق، وملاحظة أني كنت أعود للفندق يوميًا منهكة.
وفي نهاية المطاف أدار موران السيارة وانطلق بها في شوارع وسط المدينة المزدحمة دون أن يتفوه أحد بكلمة. وأحسست بحلقي يجف وأنا أقول لنفسي: " هل سيلقون بي حقًا في السجن ؟ ولو أن هذا حدث، هل سيسمحوا لي بإِجراء مكالمة هاتفية ؟ وبمن سأتصل في هذه الحالة ؟
وأخيرًا أوقف موران السيارة قرب ميناء شبه مهجور، وفي هذه اللحظة خطر على بالي إِمكانية أن لا يكون هؤلاء عملاء فدراليين على الإِطلاق، وأنهم ثلاثة مغتصبين وأني على وشك التعرض للاغتصاب الجماعي.
وقال موران: رائع يا فتاتي، سأخبر الوكالة أنك نجحت في الاختبار، وليس بقصتك أي ثغرات.
ونزل أحد الرجال الآخرين من السيارة ليسمح لي بالنزول، ثم أغلق موران نوافذ السيارة وانطلق بها مبتعدًا.
وسرت عدة أمتار على محاذاة الشاطئ أنظر إِلي المياه الصافية الممتدة إِلي الأفق، وأنا أفكر في مدى اقتراب انتهاء التدريب والذهاب خارج البلاد؛ بينما كانت مشاعري تتجدد فيها الحيوية منذ أن بدأت تدريب " الرحلة البعيدة ".

وفكرت في شبه ترنح وقلت لنفسي: " يمكنني القيام بكل تلك الأمور فهي ليست إلا لعبة كبيرة ويبدو أني سأكون بارعة في لعبها، وربما هذا هو ما أردت أن أفعله بحياتي، ويمكن أن أتمكن ــ مع مرور الوقت ــ من التغلب على مشاعر الوحدة، وربما أكون راضية عن نفسي تمامًا ولا أهتم حتى بما لو كنت أشعر بشخصيتي الحقيقية."

واشتريت أثناء سيري قرب الميناء سندويتش سجق وكعكة قطعتها قطعًا صغيرة وأطعمتها للحمام، ووجدت أريكة خالية جلست عليها لأكثر من ساعة وأنا أحدق في البحر، وقلت لنفسي:

" أصبح ساشو نسيًا منسيا، ولم يعد أمر كريس يعنيني في أي شيء ، وسأنطلق بعيدًا ؛ سأنطلق لأبدأ حياة جديدة واعدة ومليئة بالإِثارة. "

* * * * *

تمكن كافة المتدربين من الاتفاق على التجمع في اليوم الأخير من برنامج " الرحلة البعيدة " في أحد البارات في خرق صارخ للقواعد لأننا كنا مغرورين بنجاحنا وقد تشبعنا تمامًا بالعقيدة المحركة لإِدارة العمليات:

" اكذب وغش واسرق، لكن لا تسمح بأن يقبض عليك

وثرثرنا وتبادلنا حكايات إلقاء القبض علينا والتهم التي لفقت لنا من قبل ضباط مكتب التحقيقات الفدرالية، وكان قد قبض علينا جميعًا باستثناء إيثان الذي تمكن من الوصول لنقطة إسقاطه متنكرًا دون أن ينتبه إليه أحد الضباط الفدراليين.

وارتفعت ثقتنا في أنفسنا عند عودتنا إلي المزرعة من أجل تدريب " مرحلة الأزمة " حيث كان معدًا في السيناريو أن حربًا أهلية ستندلع بفنجلوريا، وفي هذا الأسبوع سنتعرض للتتبع المستمر وعوائق الطرق، ومن المفترض أن نبقى واشنطن على إطلاع دائم ومستمر بتطورات الأحداث التي تجري بفنجلوريا، وذلك من خلال تقارير ترسل كل ساعة، وكان الهدف من هذا التدريب زيادة الضغط على المتدربين إلى أقصى درجة وحرمانهم من النوم أكثر من ساعتين أو ثلاث ساعات فقط في الليلة.

وزاد اهتمامي في هذه الفترة بإيثان، وتوقفنا بالطبع عن جولاتنا الليلية بالدراجات، وبدا على إيثان أنه ينهار تحت هذا الضغط وأصبحت عيناه دائمًا حمراء ويلعن ويسب المتعاونين الأغبياء والفنجلوريين الحمقى، وبدا لي وكأنه قد انهمك في عالم المزرعة الافتراضي ونسي العالم الحقيقي تمامًا.

وكان إيثان حانقًا بشدة من عدد الإخفاقات التي سجلت له أثناء

أسابيع التدريب ويسعي جاهدًا للحد منها، وسجلت أنا إخفاقين أحدهما عندما تعرضت لمشكلة عدم صلاحية بطاقة الائتمان والتي لا أري أنها ذنبي، والثانية عندما نسيت إعطاء أحد الروس رقم هاتفي ليتصل بي. ولابد وأن سالي المسكينة أحرزت ــ على الأقل ــ دسته من تلك الأخطاء إلا أن الجميع كان يعلم أنه لا توجد بالمؤسسة كلها شابة في مثل وطنية سالي أو إخلاصها، لذلك كنت متأكدة من أن المدربين سيدعونها تنجح مهما بلغ عدد أخطاءها.

ولم يسمح لأفراد الأسرة ولا للأزواج ولا لأي شخص بحضور حفل تخرجنا من المزرعة، ولم يزعجني هذا بعد أن انقطعت كل علاقاتي بالعالم الخارجي.

وقال لنا جورج تينت رئيس وكالة الاستخبارات المركزية ــ المقبول جماهيريًا في ذلك الوقت مقارنة بسلفه جون دوتش ــ بعض العبارات التشجيعية التي تحثنا على بذل أقصى جهدنا في المرحلة المقبلين عليها، وقلل من حدة فرحتنا بهذه اللحظة أن كتيبة الإعدام أقصت واحدة من فصلنا قبل أربعة وعشرين ساعة من حفل التخرج دون تحذير مسبق ودون أي سبب معلن.وبينما كنا نهم بالاحتفال بالتخرج في حانة المزرعة كانت زميلتنا السابقة تحمل حقائبها في طريقها لبوابة الخروج.

وذهبت لرؤية بل بمكتبه قبل الذهاب للحفلة بناءًا على طلبه.
قال بل: تعرفين أنك أبليت بلاءًا حسنًا، فأنت الثانية على الدفعة بعد جين سوك.
وأحسست أن هذا أمر جيد فلم أكن أرغب على كل حال في أن أكون مثل جين سوك، حتى ولو عني هذا شهرة أقل بالوكالة.
وقال بل: هل أنت سعيدة الآن ؟
قلت: نعم، أنا حقًا سعيدة.
قال: إذًا أعتقد أنه يمكنني أن أنظر إليك على أنك آخر مجنديني الناجحين.
قلت: أين ستذهب ؟
وكنت بدأت أعجب ببل وأنظر إليه على أنه رمز للإنسان المثقف الحساس داخل هذه المؤسسة التي بدأت أعتبرها مكانًا يضم حفنة من الأغبياء أو عصابة من المحتالين.
قال: لقد انتهيت ؛ فوظيفة المدرب لا تلائمني وبدأت أفتقد الشوارع.
ولم يكن بل يفكر في الذهاب خارج البلاد بعد أن بدأت زوجته بعض الأعمال وأراد أن يعطيها فرصة لتختار طبيعة الحياة التي تناسبها بعد كل تلك السنوات.
وقال: اتصلي بي في أي وقت، وأنت تعرفين بالطبع أني ربما

أحتاج لمساعدتك فلم أقم بكتابة طلب التحاق بوظيفة منذ أكثر من خمسة وعشرين عامًا وسأبدأ البحث عن وظيفة للمرة الأولى منذ تخرجي في الكلية، وليست لدي أدنى فكرة عما إذا كان بإمكاني أن أقوم بأي عمل.

وتبسمت، فقد كان بل قادر على فعل أي شيء داخل الوكالة أما بالخارج فليس أمامنا إلا الانتظار لنرى.

وتذكرت حديثه عن المهندسين الكيميائيين بالشرق الأوسط، وعلماء الذرة الهنود، وضباط الجيش الباكستانيين الذين جندهم.

وتساءلت عما إذا كان سيحل على وقت أصبح فيه مثل بل، وتساءلت عما إذا كان سيأتي وقت أجلس فيه على مقعد المدرب أواجه وجوه الضباط الشبان أمثالي الذين يملؤهم الشغف والشك في نفس الوقت.

وأملت أن أفعل معهم ما فعله بل معي، وأن أكون أمينة في نصيحتي، وأن أهتم بما يشغل بال الضباط الشبان، وأضع احتياجاتهم داخل إطار اهتمامات المؤسسة، وأملت أن تكون لي حياة ــ مثل بل ــ يمكنني أن أتوقف لأهتم بها، وأن تكون حياتي مليئة بالعطاء، وغير ملطخة بالندم.

* * * * *

الفصل السابع

بمجرد انتهاء تدريبي بالمزرعة وعودتي إلي الوكالة وجدت اسمي مقيد بقسم وسط إقليم الأوروآسيوي، ولم يكن هذا غريبًا بسبب خلفيتي واهتماماتي، وأخبرني المسؤلون أني سأذهب في أولي مهامي خارج البلاد مع بداية العام الجديد.

وأصبح أمامي عطلة لثلاثة أسابيع فاتصلت بإيما وإميلي استفسر عن إمكانية قيامنا برحلة إلي نيويورك، ولم يكن لدي أي من الفتاتين انشغالات هامة فقد كانا في عطلات فقررنا السفر وناقشنا عددًا من الخيارات مثل ؛ المكسيك والكاريبي وجنوب شرق آسيا، وفي النهاية قررنا العودة إلي بلغاريا حيث سيمكننا أن نعيش على حريتنا في شقة كانت تستخدم كمرسم وآلت ملكيتها إلي إيما من جدتها التي كانت نحاته بلغارية مشهورة، وكنا على يقين من شدة البرد ببلغاريا لكننا رغبنا أن نكون معًا في المكان الذي أحببناه.

وبينما كانت الفتاتان تستعدان في نيويورك للرحلة وتنفضان الغبار عن معدات التزحلق على الجليد وتخزنانها في كراتين سجائر المارلبورو، كنت أكافح في الحصول على موافقة القيادة على سفري خارج البلاد.

وسألني ضابط الأمن المتشكك بطبيعته: لماذا بلغاريا ؟

قلت: لأن الحياة بها غير مكلفة ويمكنني أن أتزحلق على الجليد، وسأذهب مع صديقتاي الأمريكيتين.

وكنت في هذا الوقت على دراية تامة بخوف الوكالة المتأصل من الأجانب وتعلمت كيف أراوغ عند الحديث عن أي معارف بلغاريين أو فيما يتعلق بانبهاري بهذا البلد.

فقال ضابط الأمن وهو يتفحص ملفي: أستقابلين صديقك الحميم الذي يدعي ساشو بودوروف ؟

قلت: تودوروف. لا، فهو يعيش الآن في سان فرانسيسكو.

وأحسست كل مرة أجيب فيها على أحد الأسئلة أن جزءًا من جسدي ينفصل عني وأحسست طوال الاستجواب أني أعيش بين صفحات إحدى روايات جورج أورويل[1].

---

[1] جورج أورويل (25 يونيو 1903 - 21 يناير 1950)كاتب وروائي بريطاني اسمه الحقيقي إريك آرثر بلير (George Orwel). وجورج أورويل هو الاسم المستعار له والذي اشتهر به. ولد في قرية مونتهاري بولاية البنجاب الهندية لأسرة متوسطة الحال.في ديسمبر عام 1929 بدأ إريك في كتابة أول كتبه، وكان عبارة عن تقرير عن تلك الفترات التي عاشها في كل من لندن وباريس بين الفقراء، لكن التقرير لم ير النور إلا عام 1933 وجاء بعنوان (And London Down And Out In Paris)، ونشره باسم مستعار هو جورج أورويل، ونشر كتابه الثاني أيام بورمية (Burmese Days) الذي تناول فيه خبراته في فترة الخدمة الإستعمارية في

وانهي ضابط الأمن اللقاء بأن ناولني رزمة أوراق وطلب مني ملأها، وانهمكت في كتابة المذكرة تلو الأخرى واصفةً تفاصيل رحلتي إلي بلغاريا وأسماء وعناوين وأرقام تليفونات مضيفيني، ولم تكون إيما تعرف عنوان جدتها المتوفية وقالت لي: " أنت تعرفين أن الشقة عند تقاطع شارع جوركو مع شارع بولفارد لفيسكي "، ولم تفهم تمامًا لماذا أسأل عن العنوان فسألتني: " أتنتظرين استقبال بريد أثناء وجودك هناك ؟ " فقررت ألا أسأل إيما ولا إميلي أية أسئلة أخرى حتى لا يتشككا في، فإن لم يعرفا أني أصبحت جاسوسة فعلى الأقل سيصفاني بأني تحولت إلي

بورما.في عام 1935 م كتب رواية ابنة قسيس، وفي عام 1936 م كتب روايته دع الزنبقة تطير (Keep The Aspidistra Flying)، في عام 1937 كتب تقريره الطريق إلي ويجان بيير (The Road to Wigan Pier) انتقد فيه كلا من النظام الطبقي الإنجليزي والاشتراكية الإنجليزية، وفي نهاية عام 1936 توجه أورويل إلي إسبانيا ليعمل مراسلا صحفيا وقد دون أورويل خبراته التي عاشها في الحرب الأسبانية في كتاب أصدره عام 1938 بعنوان تقديرا لكاتالونيا (Homage to Catalonia).في عام 1938 أصيب أورويك بالسل وسافر لقضاء بعض الوقت في المغرب، وهناك ألف روايته الثالثة الخروج إلي المتنفس (Coming up for Air) التي نشرت عام 1939 م.في عام 1941 التحق بالقسم الهندي بهيئة الإذاعة البريطانية، ثم ترك عمله عام 1943 بالإذاعة ليعمل محررا أدبيا بصحيفة تريبون، وبدأ في كتابة روايته المشهورة عالميا مزرعة الحيوانات (Animal Farm)، وفي عام 1946 ألف روايته الأخيرة 1984 التي حولت إلي فيلم سينمائي وتنبأت بالمستقبل وعن عام 1984م.

خرقاء مملة، وتجاهلت هذا الأمر تمامًا وكتبت في التقرير أني أنوي الإقامة بفندق شيراتون، وكان هذا مضحكا جدًا بالنسبة لمن يعرف صوفيا لأن أرخص غرفة هناك تكلف ما لا يقل عن ثلاثمائة دولار في الليلة الواحدة.

* * * * *

أحسست بمجرد عودتي إلي بلغاريا أني استعدت نفسي والإحساس بالحرية ولو لفترة قصيرة، وقضيت فترات النهار مع إميلي نتسلق الجبال ونتزحلق على الجليد بجبل فيتوشا ونحتسي بعد الظهيرة الجعة ونأكل البطاطس المقلية في الأكواخ الموجودة على قمة الجبل، وننزل من الجبل عند حلول الظلام مستخدمين الجندولا ونحن نستمتع برؤية أضواء صوفيا تحتنا، ونرفرف في الحياة بمجرد حلول الظلام فنذهب إلي إيما بالمرسم ونصحبها معنا في نزهاتنا الليلية لحفلات الكوكتيل وصالات الديسكو. وواتتني الفرصة لإعادة الاتصال بعدد من متسلقي الجبال الذين كنت أعرفهم من قبل، وطلب عدد منهم فورًا المساعدة في الحصول على تأشيرة للذهاب للولايات المتحدة، بينما استنكر أغلبهم قولي أني دبلوماسية.وقرب نهاية رحلتنا ببلغاريا قمت برحلة لوحدي إلي بلوفديف المدينة الساحرة الموجودة وسط بلغاريا حيث تعيش أم ساشو، وسبق لي أن زرت بلوفديف عدة

مرات مع ساشو لذلك كنت أعرف كيف أذهب بالقطار وأنتقل بالحافلة لأصل إلي الشقة الصغيرة التي تقع على حافة المدينة.
وكانت أم ساشو تعيش هناك لوحدها بعد أن ذهب ساشو للولايات المتحدة، وذهب ابنها الأصغر كامن إلي انجلترا ليجمع محصول الفراولة ليوفر قدرًا من المال يمكنه من دخول كلية الطب، بينما لا يزال الأب يمارس مهنة الطب بليبيا.
وجلست أمام أم ساشو أشاهدها وهي تقلب ببطء صفحات ألبوم الصور الذي أحضرته لها، وحطم مظهرها فؤادي، وأحسست أن عيناي ستدمع.
وقالت: " لقد فقد الكثير من وزنه "، ثم نظرت لي في قلق وسألتني: " ألا يأكل جيدًا ؟ "
قلت: لا أعرف، أنت تعرفين أني أعيش الآن بواشنطن العاصمة وكالفورنيا بعيدة جدًا.
فأومأت برأسها وقالت: آه، أهي أبعد من أن تصل إليها السيارة ؟وكان أغلب البلغاريين الذين لا تتعدى مساحة بلدتهم حجم مدينة فيرمونت لا يدركون مدى ضخامة مساحة أمريكا، فقلت لها: نعم، هي أبعد من أن تصل إليها السيارة.ثم وضعت ألبوم الصور بجانبها وصبت لي كوب شاي آخر وقدمت لي أحد الأطعمة المحلية.

وكان من الواضح أن ساشو لم ينقل إليها نبأ انتهاء علاقتنا، فقررت أن أترك الأمر يمشي على هذا المنوال فلم تكن لتتفهم أو تتسامح مع موقفي لو أنها علمت أني فضلت مجال وظيفتي على ابنها، ولم يكن ليسرها أن تعلم أن له الآن صديقة كورية فلم تكن لتنظر إليها إلا على أنها مهاجرة مكافحة ليست أفضل منه في شيء ، وأظن أن أسرة ساشو كلها كانت تنظر لي باعتباري رمزا للمنقذ المعجزة ـــ الفتاة الأمريكية الناجحة ـــ التي تنقذ ابنهم الضال الذي لا يهتم بشيء سوى تسلق الجبال. وكان ساشو مشهور ببلغاريا بأنه الفائز في أي مسابقة قومية.ونمت هذه الليلة على السرير الذي كان ساشو ينام عليه، وسمعت صوت أم ساشو بغرفة المعيشة وهي تسحب الأريكة التي كانت سريرها هي ووالد ساشو والآن أصبحت سريرها وحدها، وتألمت بشدة من أجلها، وتعجبت من صمودها في هذه الوحدة القاتلة ؟وأحسست في اليوم التالي وكأن أم ساشو كانت تنتظر زيارتي ؛ فقد أعدت لي إفطارًا مميزًا وتسببت في أن تطول إقامتي وأفقد قطار الصباح، وأظن أنها خمنت ـــ بإحساس الأم ـــ وأنا أنصرف أن ابنها لم يعد معي، فقالت لي وهي تغلق سحاب سترتي وتعطيني كيس طعام: لقد كنت لطيفة مع ساشو، ولن ينساك أبدًا.

وسرت في شوارع أوروبا الشرقية الكئيبة أنظر إلي مداخن المصانع التي تناطح السماء الزرقاء، ولم أكن متأكدة من أن ساشو لم ينسني، فربما نسيني بالفعل، وأمه ستنساني مع الوقت، وكذلك كل الأجانب الذين قابلتهم والذين سأقابلهم والذين سأخترق حياتهم من الآن فصاعدًا تحت مزاعم وادعاءات كاذبة ودوافع خفية.

* * * * *

ركبت أنا وإيما وإميلي مع تيمير سيارته رباعية الدفع السريعة التي انطلقت بنا جنوبًا نحو جبال ريلا ذات القمم المغطاة بالجليد. وتيمير هذا مغني حفلات بلغاري يلقب بـــ " سيناترا البلقان[1] " ويتمتع بثروة معقولة وشهرة نسبية وبعض الروابط الأسرية ولا ينقصه إلا الزوجة فهو عازب يقترب من منتصف

---

[1] فرانك ألبرت سيناترا: Francis Albert Sinatra، مطرب أمريكي من أشهر مطربي القرن العشرين عاش في الفترة 12 ديسمبر 1915 - 14 مايو 1998 م) وهو من جذور إيطالية، بدأت شهرته في اواخر ثلاثينيات القرن الماضي مع فرقة البيغ باند الشهيرة في ذلك الوقت The Dorsey Brothers ،وفي اوائل الاربعينيات بدات شهرته تزداد أكثر و أكثر حتي انفصاله من توم دورسي،وقد حصل علي عدة جوائز اوسكار و غرامي،و كانت لاس فيغاس هي أشهر مدينة احتضنت مشواره الفني.

العمر ويضع عينه على إيما التي وصفها بلا خجل قائلًا عنها: " فتاة أمريكية دماءها بلغارية، وهي أفضل من يرافقني ".
ووعدنا تيمير أن يأخذنا إِلي قلعته بالمرتفعات، وأنا متأكدة تمامًا أنه رتب فعاليات هذا اليوم مسبقًا على أمل أن يؤثر على إيما، وتوقفنا بأحد المطاعم الريفية البسيطة على الطريق فوقف كل العاملين بها بمجرد أن رأونا نزلنا من السيارة وهتفوا بأصوات عالية " تيمير، تيمير " وكأنهم يحيون الملك بعد عودته من المنفي، فصافحهم تيمير كلهم وربت على ظهورهم ثم نظر لثلاثتنا، وقال: اسمحوا لي أن أقدم لكم الفتيات الأمريكيات ! " فحيانا العاملون بشدة، ثم دخلنا الحانة التي وُضع في مدفأتها خشب بدا من رائحته أنه مقطوع للتو، وفرشت موائدها بأقمشة كتانية بيضاء جديدة، وقدم لنا العاملون المقاعد وملئوا لنا الأكواب بالماء والخمر.
وشكلت أنا والفتاتان وتيمير رباعي سخيف بطعامنا المتنوع الذي تكون من شربة الكرشة وسلطة من الجبن والفلفل ولحوم البط والغزلان، وبالطبع الإبريق تلو الآخر من النبيذ البلغاري الأحمر.
وبعد ساعات خرجنا من الحانة للأرض المغطاة بالجليد وتكومنا ثانية بسيارة تيمير الذي لم يعد إِلي الطريق العام خلافًا لكل

توقعاتنا بل اتجه نحو النهر ثم اخترق الغابة عبر طريق ضيق وحطمت السيارة في طريقها فروع الأشجار وأطارت حولها الثلوج وأخشاب الصنوبر الصغيرة.

وصعدنا الجبل فلاحظت القوة الغير عادية لسيارة تيمير رباعية الدفع وفكرت أن أطلب سيارة شبيهة بها عندما أذهب في مهامي خارج الولايات المتحدة.

وبعد أن وصلنا إلي القمة الجليدية رأينا سور القلعة فنزلنا من السيارة وأقدامنا تغوص في الجليد حتى الكاحل واقتربنا من جسر يمر على خندق يصل للقلعة الموجودة على الجانب الآخر من الخندق فظهر لنا كلب رعي ألماني بشع المنظر نبح علينا بشدة وكشر عن أنيابه فألقى له تيمير بقطعة لحم هدأت الكلب فترة كافية لعبورنا الجسر.

وبمجرد أن عبرنا الجسر أخرج تيمير من جيبه مفتاحا حديديا ضخما لفتح باب القلعة وقال: مرحبًا بكم في قلعتي.وعبرنا البوابة فوجدنا أنفسنا أمام قلعة حقيقية ذات أبراج مثل القلاع التي نقرأ عنا في الحكايات، وبعد حوالي ساعة أخذنا تيمير في جولة داخل القلعة وشرح لنا الأعمال الرائعة بالقلعة والمباني الماسونية وركز بصورة أساسية على حجرتين إحداهما حجرة نوم رئيسية تليق بملك وملكة، وقال: " أنتظر اللحظة التي تدخل

فيها امرأة متميزة حياتي "، وسجن سري رطب، فقلت لإميلي في اللحظة التي كان فيها تيمير يساعد إيما على الخروج: " هذا هو المكان الذي سيضع فيه من ينافسه على طلب زوجته. "
فهمست لي إميلي: أو الصديقات المزعجات اللاتي يفسدن اللقاء الغرامي الأول.
وانبهرت أنا وإميلي بالقلعة لذلك تظاهرنا بعدم ملاحظة الملامح الغريبة التي كست وجه إيما طوال المساء.
وبدأت إميلي تفكر في المقطوعات الموسيقية التي ستجلبها من أمستردام لعزفها في الحفلة التي ستقام بالقلعة وتستمر طوال الليل.
وقالت إميلي: هذا بعد أن تتم خطوبتهما طبعًا.
وغمزت إميلي لي فحدجتها إيما بنظرة قاتلة.
وفكرت في هذه الأثناء عما يمكن أن أستنبطه من امتلاك سيناترا البلقان لتحفة معمارية كهذه ؟ وفكرت أثناء تجولنا في طرقات القلعة عما سأكتبه للقيادة ؛ أأكتب في التقرير عن تيمير أنه مجرد مهني أم أنه أحد الأفراد الذين يمكن الاتصال بهم ؟ وكنت أرى فيه مجندا محتملا ؛ وفكرت في تبرير هذا بإلقاء الضوء على اتصالاته المحتملة بالجريمة المنظمة، وربما يكون وسيطًا في صفقات السلاح التي تتم بالشرق الأوسط، لكن ما هي

نقاط ضعف هذا الرجل ؟ فهذه المعلومة ستحتاجها القيادة.
فخطرت على بالي أنانيته ورغبته في أن ينال إيما كنقاط ضعف يمكن استخدامها. ثم قلت لنفسي: أيمكن أن أستخدم علاقتي بإيما كجسر لإنجاح عملية تجنيد ؟ هل وصلت إِلي هذه الدرجة من الانحطاط والانتهازية ؟ !

وقاطع أفكاري صوت تيمير وهو يقول: والآن هيا نأخذ صورة.فتجمعنا تحت نافذة وأمسكنا بأيدي بعضنا وابتسمنا والتقط لنا تيمير الصورة، وأخذنا صور أخرى بجوار أشجار الصنوبر التي غطى الجليد قممها ؛ وسأبقى محتفظة بهذه الصورة في محفظتي لسنوات وسأظل أتناولها وأتأمل فيها حتى تتآكل حوافها ويتغير بياض الثلج الذي بها من بصمات أصابعي وأنا أنظر إِلي إيما وأبتسم، وأنظر إِلي وجه إميلي المورد وإِلي نفسي وأنا مشغولة البال شبه مسرورة ومحصورة بين الحرية الرائعة والواقع الذي يقيدني بالمهام السرية.

* * * * * *

أقمت أنا وإيما وإميلي حفلة رأس السنة بالشقة التي كانت من قبل مرسم جدتها، وحضر الحفل أكثر من ستين ضيف وضمت الحفلة متسلقي الجبال رثي الهيئة وسيناترا بلغاريا بحاشيته الأقرب شبهًا برجال العصابات وعددًا من الفنانين المغمورين

المعجبين بجدة إيما المشهورة، واحتشد بالمطبخ الضيق عدد من نجوم السينما البلغارية الذين تعرفت عليهم إيما وإميلي بالإضافة إلي عدد من سكان الضواحي.

وقبل انتصاف الليل بساعة أسرع الجميع للنزول إلي الشوارع المغطاة بالثلج ليصلوا إلي القصر الوطني للثقافة الذي كان مبني تذكاري ضخم من مخلفات فترة الشيوعية تم تجهيزه للاحتفال بليالي رأس السنة عن طريق تزويده بأضواء ملونة وساعة رقمية ضخمة تشير للدقائق والثواني المتبقية على بدء الألفية الجديدة.

وكانت ليلة رأس السنة لا تزال في بلغاريا أهم من عيد الكريسماس الذي كان يحظر الاحتفال به في الفترة الشيوعية حيث كانت تحظر كافة الاحتفالات الدينية.

وقضينا الدقائق التي تسبق منتصف الليلة واقفين بين الآلاف في برد شديد ينخر في عظامنا ونحن نرتشف قطرات من زجاجات الشمبانيا التي أخذناها معنا لنشرب نخب العام الجديد. وكما هو معتاد بدول البلقان تعطلت الساعة الرقمية ــ التي كانت تعد العد التنازلي إيذانًا ببدء العام الجديد ــ قبل منتصف الليل بثواني قليلة، والتفت الجميع إلي بعضهم يتساءلون في حيرة عما إذا كان العام الجديد قد بدأ أم لا، وتركت هذه السخافة خلف ظهري

وأحسست أن الكآبة التي اكتسبتها أثناء فترة العمل بالوكالة سيطرت على حياتي وشعرت أني بالديار.وأثناء تحليقي بالطائرة عائدة إلي واشنطن بعد عدة أيام حاولت تهدئ مخاوفي فقد كنت على يقين من أني لن أسافر مرة أخرى إلي دولة أجنبية دون أن أصحب معي جدول أعمال سري للغاية.

* * * *

بمجرد أن رجعت إلي واشنطن علمت من القيادة أنه تقرر عملي بسكوبجي عاصمة مقدونيا لفترة زمنية غير محددة، وتفرق كافة زملائي على باقي بلدان العالم وسخروا مني لنفيي ببلد بعيدة لا يستطيعون حتى أن ينطقوا اسمها.

وبما أني أتحدث بعضًا من اللغة البلغارية القريبة من اللغة المقدونية قررت الوكالة أن أدرس اللغة

(الصربية ــ الكرواتية) التي ستفيدني كثيرًا أثناء عملي بأي من الجمهوريات اليوغسلافية السابقة، وتلقيت دروس اللغة على يد امرأة صربية لاجئة شبه مخبولة تدعى بوجانا.

وثقبت بوجانا لسانها وصبغت شعرها باللون البرتقالي احتجاجًا على قيام حلف الناتو بقصف بلجراد، واعتادت أن تقضي المساء تقلب في مواقع شبكة الإنترنت بحثًا عن رجل يتبنى طفلها، وتقضي النهار تعيد على مسامع الطلاب باللغة الصربية عبارات

مروعة مثل:

" اغتصبت كل النساء "

" اغتصبت بعض النساء لكن قتل كل الرجال "

" قصفت بعض المنازل لكن قتل العديد من الرجال "

" لم تحرق أي من مخازن الحبوب لكن اغتصبت كافة النساء

"وكان معي بالفصل ضابطين ميدانيين تم تعيينهم بمناطق أخرى من البلقان، وتنمر كلاهما على بوجانا بتبجح وقطعوا لها لسانها بأن ظل أحدهم يتباهى دائمًا بجده الذي كان يعمل بالجستابو في عهد هتلر وقضى نحبه بصورة مأساوية في معسكر التعذيب الروسي، وأحضر هذا الطالب ــ الذي كان يعلم تمامًا أن أحد والداي يهودي ــ معه ذات يوم صورة لجده الذي يتحدث عنه وهو يرتدي الزي النازي الرسمي،ورفضت أن أنظر إلي الصورة وكظمت غيظي بينما انطلقت بوجانا في جنون تطلق صيحات الأسى على الشاب الوسيم الموجود في الصورة وحذاءه الأسود الرائع.

* * * * *

حاولت أن أستعيد أثناء قيامي بتلقي دروس اللغة بعضًا من بساطة الحياة العادية في واشنطن بالالتحاق بأحد فرق السباحة الاستجمامية.واعتدت أن أسبح في ممر السباق الضيق لعدة

أسابيع مع عدد من الأشخاص الأصحاء في السبعينات من العمر، ونادتني ذات يوم امرأة من الممر المجاور لي ودعتني للانضمام إلي مجموعة ستجتمع بالنادي العام هذه الليلة.
ولأني كنت دائمًا شخصية اجتماعية تطلعت إلي هذه الفرصة لمعرفة أشخاص أصغر سنًا بالفريق، لكني كنت أيضًا عصبية بصورة غير طبيعية لأكثر من عام، وتركزت علاقاتي الاجتماعية في إطار الوكالة فقط، ولم أري إيما ولا إميلي إلا في المناسبات على الرغم من أنهم امتنعوا عن توجيه أية أسئلة لي عن طبيعة عملي.وقررت أن أصحب معي زميلي جارد الذي كان غريب الأطوار بلا جدال فقد كان يرتدي دائمًا ملابس غير متناسقة ويحاول أن يندمج مع النادلات في مناقشات فلسفية، ويخرج حفنة من الحلوى التي يحتفظ بها في حقيبة ظهر يحملها معه طوال الوقت، وقررت أنه مهما كان سلوكي غريبًا فإنه لن يلفت الانتباه إطلاقًا إذا ما قورن بإسلوب جارد.
وصلنا مكان الاجتماع ومد جارد يده في حقيبته ليخرج بعضًا من الحلوى وبدأ يقدمها لمن حوله، ولمحت بين الوجوه التي كان بعضها مألوفًا وبعضها غريبا رجلًا يقف وسط مجموعة من السباحين وظهره لي وهو ينظر لرفقائه ويشرب الجعة، وانجذبت لهذا الرجل الذي علمت بعد ذلك أن اسمه جيمس وأنه

أسرع سباح بفريقنا، وأنه يعمل مصورًا حرًا، ولم أراه في الأسابيع القليلة الماضية لأنه كان في رحلة صيد في إحدى الغابات الأوغندية.وكان هذا المساء عاديًا باستثناء لقائي بجيمس الذي كان يقف بالقرب مني يستمع لرفقائه، وظللت أشرب الجعة كوبًا بعد آخر حتى تعبت وارتميت على أريكة جارد، وفكرت كثيرًا في لقائي بجيمس هذا الذي أثارني بشدة.وصل جيمس في اليوم التالي إِلي حمام السباحة ونزل إِلي ممر سباحة كبار السن ولاحظت ابتسامته الودودة، والبساطة التي حيا بها الآخرين، والثقة الفطرية التي تبعني بها في الممر السريع فهيأت نفسي لتقبل الهزيمة.

وأنهت لنا بوجانا ــ ذات يوم ــ دروس اللغة الصربية مبكرًا فانطلقت للسباحة بعض الوقت قبل وقتنا المحدد.

وكان حمام السباحة ليس به أحد باستثناء رجل آسيوي قابع في الجزء الضحل من الحوض يمارس بعض الفنون الرياضية، وبمجرد أن أنزلت قدماي في الماء وبدأت أغطس لمحت جيمس يخرج من غرفة ملابس الرجال فتسارعت دقات قلبي، ولم يسبق أن تحدثت مع جيمس إِلا كلمات قليلة، والآن نحن هنا عرايا ووحيدين باستثناء رفقة ذاك الأسيوي.وسار جيمس نحوي وسألني عن حالي، وكنت في هذه اللحظة أرتدي غطاء رأس

السباحة، وكنت متأكدة من أني أبدو سخيفة بمظهر شعري المتدلي من الجانبين.
وقلت: " لقد أتيت اليوم مبكرًا ". قلت هذا وكأنه ليس واضح بمنتهى الجلاء.
فابتسم جيمس الذي لمس بالتأكيد لهفتي وقال: نعم، وأنا أيضًا.
قلت: أنت مصور، أليس كذلك ؟
فغمغم في صمت، وقلت: هذا رائع.
وأحسست بالسخافة مع مرور كل ثانية إضافية، وأحسست أنه يرغب في بدء السباحةلكنه يود أن يكون مهذبًا فقال لي: وأنت ؟
قلت: أنا أعمل في الحكومة، وسأذهب إلي مهامي خارج البلاد قريبًا.
فقال بابتسامة متكلفة: دبلوماسية ؟
قلت: " نعم "، وسررت لأنه لديه فكرة على الأقل عما أعنيه.قال وهو يرفع يداه أعلى رأسه: تعرفت من قبل على دبلوماسية، قالت لي: إنها مسؤولة سياسية أو شيء من هذا القبيل عندما قابلتها وأنا أمر بكوستاريكا التي يعمل بها ابن عمي.
وأحسست بالغيرة تأكلني من تلك المرأة التي لم أكن حتى أعرفها، وقلت: حقًا ؟
قال: نعم، لكني أظن أنها كانت تعمل في الواقع لحساب وكالة الاستخبارات المركزية.

قلت: حقًا ؟ !قال: نعم لأنها كانت حذرة بصفة عامة وسريعة الانفعال، وفي النهاية لم نتفق على الخروج أبدًا لأنها رفضت استخدام وسائل النقل العامة.

فقلت من غير تفكير: أنا أحب المواصلات العامة ؛ القطارات، والحافلات، والترولي.. . وكل أنواع المواصلات العامة التي تخطر ببالك.

فنظر لي جيمس وكأني مصابة بمتلازمة توريت [1]، ولم يفعل شيئًا أكثر من أن حملق في.

فقلت: ومن الجميل أني سأبدأ العمل خارج البلاد قريبًا.

وانتهى الحوار وتمنيت أن أضرب قبضتي بأحد الحوائط،

---

[1] متلازمة توريت Tourette syndrome هي عبارة عن خلل عصبي وراثي يظهر منذ الطفولة المبكرة تظهر أعراضه علي شكل حركات عصبية لاإرادية متلازمة يصحبها متلازمات صوتية متكررة. كانت متلازمة توريت تعتبر مرض أو عرض غريب شاذ نادر خاصة أنه يصحبه في العادة ألفاظ بذيئة تخرج بشكل لا إرادي، إلا أن ذلك العرض نادر مع مصابي المرض. الأعراض المتلازمة تشمل سعلة في منتصف الكلام، تقطع في استرسال الحديث، حركة لا إرادية للعين غمز وإغماض أو تكرار حركة لليدين أو حركات للوجه بشكل عام مع أصوات متكررة وتزداد حدة الأعراض أثناء مرور الأطفال بمرحلة المراهقة. تلعب العوامل الجينية والبيئية تلعب دورا في هذا المرض إلا أن الأسباب المباشرة غير معروفة. في أغلب الحالات ليس ضروريا تناول علاج معين لعلاج المتلازمات المختلفة.

وظللت طوال الساعة التالية ــ أثناء قيامي بالقفزة تلو الأخرى ــ أفكر في الأمور الصحيحة التي كان ينبغي أن أتحدث فيها.
واندهشت من مقدار العصبية التي سيطرت علي بسبب حواري مع جيمس ؛ فلم أكن من قبل فتاة عصبية، وظللت أراقب جيمس طوال الأسابيع التالية من جانب عيني ولاحظت أنه يعامل الجميع بلطف بدءًا من الشباب السريع بممره السباحي إِلي العجائز بممري وانتهاءًا بالعمال الذين يهتمون بحوض السباحة، وأثر هذا في كثيرًا وجعلني أفكر في أنه حتمًا شخص دافئ المشاعر، وأردت أن أتعرف عليه، وأعتقد أني أردت أكثر من ذلك أن يرغب هو في أن يتعرف علي.
وكما تسير الحياة، شاءت الأقدار أن أكتشف أن لجيمس صديقة حميمة في غاية الروعة والجمال قابلتها ذات يوم في أحد المناسبات الاجتماعية التي جمعت السباحين، وقررت في هذه اللحظة أن أنسى احتمالية نشوء علاقة بيني وبين جيمس، واستمررت في إِعداد نفسي للذهاب إِلي مهمتي خارج البلاد.
ولا أذكر شيئًا حدث طوال الأشهر التالية باستثناء دروس اللغة الصربية والسباحة وأني كنت مشغولة جدًا عن ملاحظة نظرات جيمس التي كان يختلسها وابتساماته لي أو حتى له للجلوس بالقرب مني، ورغبته في السباحة بممر السباحة البطيء الذي

كنت أسبح فيه، ولا رغبته المفاجئة في تصوير حيوان الألباكا عندما ذكرت ذات مرة أن أبي تقاعد واهتم بإحدى حظائر الألباكا بغرب فرجينيا.

وأظن أني تجاهلت كل هذه التلميحات بمحض إرادتي للحفاظ على قلبي من أن يتلقي صدمة أخرى، ودفعني الكبر إلي الهروب من جيمس في كل مرة يحاول أن يفتح فيها حوارًا معي لأني أحسست بطريقة ما أن من الخطورة أن تلتقي عيناي بعيناه، وعندما كان يحدث هذا كنت أسرع بإبعاد نظري عنه فورًا.

وكنت سعيدة بأن لدي سبب لمغادرة الولايات المتحدة والذهاب لمقدونيا التي بدا اسمها على الأقل رومانسي، وظننت أن الوقت والمسافة سيحرراني من أحلامي الأنثوية ويجعلاني أسلك في الحياة طرق مختلفة عن جيمس.وهبت عاصفة حارة في اليوم السابق لسفري إلي مقدونيا، وأوشكت إدارة النادي على إغلاق أبواب حمام السباحة بسبب تغير الموسم المناخي، وأقام فريق السباحة الحفلة السنوية بمناسبة انتهاء الموسم وقدمت المأكولات والخمور.

وقرب نهاية الحفلة طلب مني جيمس أن آخذه في سيارتي إلي منزله لأنه أتى بالدراجة التي كان يتمرن عليها، ولابد أننا جلسنا

هذه الليلة في شاحنتي لثلاث أو أربع ساعات أمام منزله، وتحدثنا في كل الأشياء التي تمنيت لو أني تحدثت عنها في وقت مبكر لو أنني لم أتصرف بحماقة في كل مرة اقترب فيها مني، وأحسست بقلبي يخفق فهذا شخص أحب أن أرتبط به، ثم غص حلقي فهذا شخص لن أراه ثانية.

وفي نهاية الليل نزلنا من الشاحنة وسرنا وسط الطريق كالبلهاء والدراجة بيننا، وقال لي: أتمنى لك حظا موفقا بمقدونيا.

قلت: نعم، وأتمنى لك حظا موفقا هنا.

ثم هز كتفيه وقال: مقدونيا ؟

قلت بفتور: سأرحب بزيارتك لي هناك.

ونظر جيمس لي مرة أخرى وأحسست بالعرق يتصبب من جبيني فسألني عما إِذا كان بإِمكانه أن يقبلني قبلة وداع.

قلت: بالطبع.فقبلني قبلة سريعة مليئة بالعواطف وتسارعت دقات قلبي.نمت وحيدة على فراشي بفندق المطار قبل أن أستقل الطائرة التي ستنطلق في تمام السادسة صباحًا، ولعنت نفسي لعدم قيامي بتوصيل جيمس لمنزله طوال الشهور الماضية، واسترجعت في ذاكرتي بعض النظرات التي كان يختلسها لي، والقبلة الغير متوقعة، وقررت أن أنطلق دون أن أقع مرة أخرى في قصة غرامية جديدة لها بداية خادعة.

الفصل الثامن

جلست يوم الجمعة في سيارتي بأحد مواقف السيارات بمقدونيا وبجواري رجل يكبرني سنًا ونوافذ السيارة مغلقة ومياه الأمطار تنهال من حولنا كالسيول العارمة بصورة تحجب الرؤية تمامًا، ولهذا أضأت مصابيح السيارة التي تسبب لي الضيق دائمًا.

وكان الرجل الذي يجلس بجواري صربي تفوح منه رائحة السجائر ويبدو على مظهره الإنهاك بسبب المعاناة لسنوات طويلة من الإحباط والانغماس في شرب الخمور، وجعلته ملامح وجهه الذي تناثر عليه النمش ومعطف المطر الذي يرتديه أشبه بنبتة بطاطس وجدتها مهملة في قاع خزانة الأطعمة.

وكنت قد أركبته معي من أمام باب خلفي لأحد المجمعات التجارية على بعد ميل بعد أن قضيت ساعتين أتجول بالسيارة كما اعتدت أن أفعل أثناء فترة التدريب للتأكد من عدم تعرضي للمراقبة، وكانوا يحذروننا أثناء التدريب ويقولون: " يجب أن تتأكدوا بنسبة مائة في المائة أنكم غير متتبعين، وإلا أجهضوا المهمة "، وتأكدت الآن بعد أن قضيت شهورًا أمارس أعمال الجاسوسية أنه لا يمكن التأكد من هذا بنسبة مائة في المائة، ولا تزال عيناي تتجولان طوال الوقت بحثًا عن المتعقبين المحتملين

؛ حتى إني اعتدت أن أبقي عيني متيقظة دائمًا أثناء قيامي بقضاء مشاويري اليومية أو الخروج لمجرد التنزه، لكن في ليلة كتلك الليلة التي أنا بها صارت حواسي كلها في أعلى درجة من التيقظ والانتباه، وأحسست أني أقرب لحيوان مفترس مني للضحية، وكنت حقًا في رعب دائم من احتمالية القبض علي.

وكان لدينا بالطبع القصة المختلقة التي تغطي لقاءاتنا فأنا وهذا الرجل متحابين، ولو أن أحدًا سأل ما الذي نفعله فإِن الإجابة الطبيعية هي " أمر خاص "، وسبق أن أعطيت هذه التعليمات لهذا الرجل في المرة الأولى التي قابلته فيها منذ بضعة أيام فهز الرجل رأسه في خجل وكأننا بالفعل نقوم بأمر خاص، وكان من المفترض أنه يعرف القواعد المتبعة وأنه أيضًا ـــ طبقًا لكلامه ـــ ضابط استخبارات بما يعرف في يوغسلافيا بالشرطة السرية ؛ لذا لم يعترض عندما طلبت منه منذ ثلاث ليال سابقة أن يقابلني عند الباب الخلفي لأحد المجمعات التجارية، ولم يتعجب من الطريقة التي رآني أقود بها السيارة وأنعطف بها يسارًا المرة تلو الأخرى لاكتشاف أي متعقبين حتى وجدت في النهاية موقف سيارات خالي بجوار أحد المباني السكنية ذات الطراز السوفيتي.ومن المحتمل أن الرجل كان يشك أني أضع شعرًا مستعارًا، وعلى الرغم من أني رغبت

بشدة في حك فروة رأسي التي اعرورقت بشدة إلا أني لم أفعل ذلك خوفًا من أن يتحرك الشعر المستعار ؛ فلو أنه يعرف تمامًا أني أرتدي شعرًا مستعارًا فينبغي على أن أظل مستمرة في تأدية دوري، ولهذا كان جزء مني دائمًا يتساءل عما إذا كانت هذه الحياة التي أنا بها حقيقة وليست حلمًا.

والتقطت مفكرة وقلم وخطر على بالي المفاجأة التي ستعتري الأشخاص العاديين لو أنهم عرفوا مدى بساطة الأدوات التي يستخدمها الجاسوس، والتفت إلي الرجل وقلت له باللغة الصربية: ألديك معلومات عن المكان الذي يتواجد به رادوفان كارادزك ؟

* * * * *

كان قد تم عزل الديكتاتور الصربي سلوبودان ميلوسوفيتش[1]، لكن وكالة الاستخبارات المركزية كانت تسعى جاهدة للقبض

---

[1] سلوبودان ميلوسيفيتش (1941-2006) كان رئيس صربيا ويوغوسلافيا من الفترة بين 1989 و 1997أتهم بارتكاب جرائم حرب ضد المسلمين في أقليم كوسوفا والبوسنة وكرواتيا و من أشهر جرائمه مذبحة سربرينيتشا عام 1995 بالبوسنة والتي راح ضحيتها 8000 مسلمومثل منذ عام 2001 أمام المحكمة الدولية لجرائم الحرب في لاهايفي 11 مارس 2006 عثر عليه ميتا في مركز الاعتقال الذي كان محتجزا به في لاهاي.

على عدد من الأشخاص الآخرين الذين ارتكبوا جرائم حرب مثل رادوفان كارادزك القائد الصربي الذي شارك في المذابح الجماعية أثناء حملة التطهير العرقي لالآف المسلمين، وخطر على تفكيري المتواضع أني يمكنني بمساعدة هذا الرجل الزري الهيئة أن أقدم وحش العصر الحديث للعدالة.وكان قد مضى على بقائي خارج الولايات المتحدة ستة أشهر أنتظر اصطياد مثل تلك السمكة، وأن أفعل شيئًا ـ أي شيء ـ يجعلني أشعر أن وظيفتي تستحق هذا العناء. وكنت أندهش بشدة من حث القيادة ورؤسائي لي باستمرار على تحقيق إنجازات في أوقات قصيرة دون إلقاء أي اعتبار للعقوبة الحقيقية للتجسس ونظرتهم للأمور على أنها أشبه بالأعمال الكتابية.واعتاد الرجل الجالس بجواري أن يكتب ـ بمحض إرادته ـ معلومات ويرسلها لضابط مخابرات بمكان ما من العالم ووافق أن يقابلني هنا في سكوبجي ؛ وأحسست أنه يمثل لي فرصة حقيقية لفعل شيء جيد.وقال الرجل الجالس بجواري: نعم، عندي معلومات عن هذا الرجل. وأدخل الرجل يده في جيب معطفة ليخرج ما توقعت أن يكون رسمًا للمكان الذي يختبئ فيه كارادزك وربما معه عدد آخر من مجرمي الحرب، إلا أنه أخرج علبة سجائر يوغسلافية شعبية فأخرجت له من جيبي علبة سجائر أمريكية فاخرة أخذها بمنتهى

الرضا وأشعل منها سيجارة واحتفظ ببقيتها ليدخنها في وقت آخر.

وقلت: أنت تعرف تمامًا مدى اهتمامنا بمعرفة مكان السيد كارادزك، وسنجازيك بسخاء على أي معلومات تقدمها لنا يمكن أن تقود للقبض عليه.

قلت هذا وأنا أفكر في الأوراق الستة من فئة المائة دولار التي أحملها في جيبي لتسليمها له في نهاية اللقاء، وكانت الدولارات الستمائة مبلغ زهيد بالنسة للوكالة لكن الهدف من هذا المبلغ هو أننا مهتمين بالعمل وأن هناك المزيد من حيث أتت هذه الدولارات وإِذا كان بإِمكان هذا الرجل أن يقودنا فعلًا إِلي كارادزك فسيجني مئات الالآف من الدولارات، وربما نساعده هو وأسرته على الانتقال للحياة بالولايات المتحدة التي أظن أنها كانت غايته القصوى.

فتنحنح الرجل ثم قال: سأخبرك الآن.. ..

وركزت في هذه اللحظة وأنا أجلس على حافة مقعدي فيما سيقوله الرجل ناسية تمامًا أن كلمة " الآن " في الثقافة البلقانية تعني " ما لن يحدث أبدًا ".

واكتشفت أن ما أراد الرجل أن يخبرني به ليس له علاقة بمكان اختفاء أكبر مجرم حرب تبحث عنه وكالة الاستخبارات

المركزية ؛ بل تاريخ يوغسلافيا الحديث من وجهة نظره ابتداءًا من الميلاد المجيد وفترة النهضة الصناعية والوفاة المأساوية لتيتو(1) والصعود المأساوي لسلوبودان ميلوسوفيتش إلي السلطة

---

[1] يوسب بروز تيتو (1892-1980) كان رئيس جمهورية يوغوسلافيا

هو من أبرز قادة الحركة الشيوعية في العالم، و رئيس جمهورية يوغوسلافيا السابق، إبان الحكم الشيوعي، كان من المروجيين و أول مؤسسي حركة دول عدم الإنحياز. ولد في كرواتيا في 1892/5/7 لأب كرواتي و أم سلوفينييا، عاش في بداية حياته مع جده والد أمه و ترك المدرسة في عام 1905 لبدأ في العمل، شارك أول مرة في احتفال عيد العمال العالمي عام 1910، جند في الجيش عام 1913، و تم اعتقاله بتهمة الدعاية ضد الحرب، ثم أرسل للحرب ضد روسيا عام 1915و قد أسر من قبل الروس و هو مصاب أثناء المعركة. أثناء أسره بقي أكثر من سنة في المشفى و بعد خروجه من المشفى أرسل إلي معسكر عمل في جبال الأورال، اختاره السجناء زعيما لهم، و بعد ان تم اقتحام السجن من قبل بعض العمال، فخرج و انضم إلي مجموعة من البلاشفة الروس، أعتقل مرة ثانية لكنه هرب مرة ثانية، و في عام 1917 تزوج من بيلاجيجا بيلاسوف، و في عام 1918 انضم للحرس الأحمر و انتسب للحزب الشيوعي الروسيفي عام 1934 أنتخب عضو في المكتب السياسي للحزب الشيوعي اليوغسلافي. في عام 1935 كان ممثل الحزب الشيوعي اليوغسلافي في الكومنترون و بقي لمدة عام في الإتحاد السوفيتي عام 1936 كلفه الكومنترون بالعودة لتطهير صفوف الحزب الشيوعي اليوغسلافيبعد اندلاع الحرب العالمية الثانية أسس تيتو مجلس التحرير الوطني و كان من مهامه التصدي للفاشية، و في يونيو من عام 1943 قام تيتو بتشكيل حكومة مؤقته، و بدأت أعمال المقاومة ضد دول المحور و كان تيتو زعيم المقاومة الشيوعية حاولت ألمانيا اغتياله ثلاث مرات عبر إنزالات جوية كلها باءت بالفشل، و في عام 1945 وقع اتفاقية مع الاتحاد السوفيتي تسمح لهم بإدخال قواتهم إلي يوغسلافيا في إطار التحالف ضد دول المحور، و في عام 1945 أصبح رئيس للوزراء و أعلن دستور جديد و بدأ ببناء الجيش اليوغسلافي الذي أصبح من أكثر الجيوش الأوروبية قوة.

والخراب الذي جلبه هو وأعوانه على الأمة التي كانت من قبل عظيمة، وحكى لي كل هذه الأمور بالتفصيل الممل حتى وصل إلي الفترة المعاصرة للحياة الصربية فتحدث عن التضخم النقدي المستمر والفقر المدقع والانحطاط العام وانتشار الأمراض، ونفد صبري وأحسست بالضيق الشديد والاختناق لكن لأنه ربما يكون هناك ضوء في نهاية النفق المظلم لثرثرة هذا الرجل جلست أستمع لساعات لدرجة أني اضطررت أن آخذ راحة مرتين بإعادة ركن السيارة بمكان مختلف على أمل أن يحث تغيير المكان الرجل على الدخول في صلب الموضوع.وطوال هذا الوقت كنت أعيد دفة الحديث إلي كارادزك فأسأله: " كيف تعرفه ؟ " فشرح الرجل شرحًا مطولًا فهمت من خلاله أنه يعرفه عن طريق أسرة هي جارة لأحد أقارب زملائه القدامى، وبعد فترة انتهي المطاف بأن أخبرني أنه لم ير كارادزك شخصيًا على الإطلاق.

فسألته: أيعرفك كارادزك ؟

فهز كتفيه وعبث بسيجارة لم يشعلها بعد وقال: محتمل نعم.. . ومحتمل لا.ووجدت نفسي أقول له فجأة دون تفكير: انظر ياسيدي، ألديك أي فكرة عن المكان الذي يتواجد به كارادزك الآن ؟

فابتسم وغطي إحدى يديه بالأخرى وهو يشعل سيجارته التالية وقال: سأخبرك الآن.. .

وصارت رأسي تألمني بشدة كالمجنونة بينما انطلق الرجل يبحر في حقبة تاريخية أخرى، ولولا موعد هذا الرجل لكنت الليلة في طريقي إلي بلغاريا للقاء صديقتاي إيما وإميلي اللتان تقيمان لحسن الحظ ببلغاريا في هذه الفترة فإيما تعمل بأحد الأفلام الأمريكية قليلة التكلفة التي تنتج هناك بينما إميلي تدرس الإنجليزية بجامعة صوفيا في برنامج منحة تابع لمؤسسة فولبرايت، وكانت المسافة من سكوبجي لصوفيا تستغرق ثلاث ساعات بالسيارة، واعتدت أن أقابل الفتاتان قدر المستطاع أثناء تجسسي على دول البلقان بسبب احتياجي الشديد للراحة المؤقتة التي أستمدها منهم.وتعودت في كل مرة أدخل فيها شقة إميلي الصغيرة أن ألقي بحقائبي وأرتمي في حضنها وفي انتظاري على مائدة القهوة زجاجة نبيذ أحمر وطبق جبن بلغاري وزيتون يوناني، وتصب لي إميلي النبيذ بينما أرتمي على الأريكة وأخلع حذائي وأثني قدمي تحتي، واعتادوا أن يسألوني عن ما أنوي فعله وكانت تلك الأسئلة هي التي تعكر صفو ذهني وأحياناً ما كان الهروب من هذه الأسئلة يستغرق مني عدة ساعات، لكن بمجرد أن أستمع لقصص المغامرات الطائشة التي تقومان بها

أعود لأسمع صوت الضحكات البريئة تخرج من أعماق شخصيتي السابقة، وأحيانًا ما كان يتسبب العمل في عدم التمكن من القيام بمثل هذه الزيارات في العطلات الأسبوعية.
وأعجبت في البداية بهذا الصربي الذي يجلس إِلي جواري في السيارة بعد أن أتى بمحض إِرادته متطوعًا بالمعلومات، وموافقته على السفر من بلجراد لمقابلتي بسكوبجي، ورفضه أن يأخذ مني أي نقود في المرة الأولى التي تقابلنا فيها، لكني بدأت أتشكك فيه.وصار من الواضح أن معلومات هذا الرجل عن مكان كارادزك لا تزيد عن معلومات جدتي العجوز ذات الخمس وتسعين عامًا التي تجلس على مقعد متحرك بنيو جيرسي، وأصبح من الواضح تمامًا أن الرجل سمع كلامًا انتشر عن رصد وكالة الاستخبارات المركزية مبلغا كبيرا من المال مقابل الحصول على المعلومات فأتى هذا الرجل ليقبض بعضًا منه، وكرهت أن أدفع له مالًا مقابل تضييعه لوقتي ففكرت أن من الأفضل والأسهل التخلص منه فنظرت لساعة السيارة الرقمية فوجدتها تقترب من منتصف الليل، وقررت أني لو تمكنت من الذهاب إِلي الفراش بسرعة فربما أستيقظ في اليوم التالي مبكرًا وأتمكن من الذهاب إِلي إيما وإميلي وقضاء بقية العطلة الأسبوعية بصوفيا.

فقلت: أود أن أكون أمينة معك، لقد فحصنا أسماء زملائك التي قدمتها لي في المرة السابقة واكتشفنا أنهم ليس لهم أي وجود، وأنت تعلم أن لدينا سجلات عن كل شخص.قال: سجلاتكم خاطئة.وكنت أشد يقينًا من هذا الشاب فيما يتعلق بعدم دقة ملفات الوكالة لكني لم أبح أبدًا له بهذا.

وقلت: الأمر هو أن زملائي في واشنطن غير مقتنعين بحقيقة هويتك.قال فجأة في هياج شديد: زملاؤك في واشنطن حمقى.

قلت: ربما، لكن حماقتهم لا تصل لدرجة أن يدفعوا نقودا للحصول على معلومات غير دقيقة.

قلت هذا وأنا أدرك تمامًا أن ما أقوله أبعد ما يكون عن الحقيقة، فقد كنت للأسف على يقين من أن الوكالة دائمًا ما تدفع للحصول على معلومات غير دقيقة.

وقلت: " انظر، أنا لا أهتم بمن أنت ولا بما تفعله، وما إِذا كنت تعرف مكان كارادزك أم لا تعرفه، فإِن كنت تعرف مكانه فأنا مستعدة لإِظهار حسن النوايا "، وأخرجت الستمائة دولار، " أما إِذا لم تكن تعرف فسأدفع لك مقابل وقتك الذي قضيته معي ثم يذهب كل منا في طريقه ".

والغريب في الأمر أن الرجل لم يفكر حتى في أن ينظر إِلي المال بل إِنه أدار وجهه إِلي النافذة وكأنه أهين أو أحرج وقال:

لا أريد مالك، كل ما أريده هو أن أقوم بالصواب.
ورثيت لحال هذا الرجل ونظرت لحذائه البالي ووجهه المجعد وأصابعه الأشبه بالنقانق وهي تمسك السيجارة المشتعلة، وفكرت في أنه ربما كان فعلًا يعمل من قبل في الشرطة السرية لكنه الآن مجرد رجل عجوز يكافح ليصل إلي نهاية الطريق، وقلت: أعندك مانع في أن أعيدك بالسيارة ؟قال: سأخبرك بمكان كارادزك في المرة القادمة.. .وعندما أنزلته عند الباب الخلفي للمجمع التجاري سلمته ثلاثمائة دولار وجعلته يوقع على إيصال استلام باسم مستعار طبقًا للقواعد المتبعة لأن هذه الأموال التي تجري بين أيدي العاملين بالوكالة كالماء هي أموال حكومية في نهاية المطاف ولابد أن يتم حسابها، وطبق الرجل الورقات الثلاث طبقة واحدة ثم وضعهم في جيب معطفه، وقال لي: " سأتصل بك عندما أكتشف المزيد "، لكن كلانا كان يعلم تمامًا أنه لن يتصل أبدًا.ولم أنظر للرجل بعد أن أنزلته من السيارة وهو ينصرف تحت جنح الظلام لأني كنت متأكدة تمامًا من أنه أنهى المهمة التي خرج من أجلها فصارت خطواته أوسع ووجهه أكثر إشراقًا وهو راض عن نفسه،وأدركت أنه سينفق هذه الأموال على الكحول وشراء السجائر، وتعلمت أحد الأشياء الجديدة من الجاسوسية وهي ؛ أني لن أعرف دائمًا إلا القليل.ولم

يبد رئيسي أي اهتمام بالوقت ولا بالمال المهدور وقال لي لاحقًا كعادته عند كل موقف كهذا: هذه خبرة جيدة لك.ولم يكن هذا القدر من المال سوى قطرة في بحرمصروفات الوكالة، وبررت لنفسي هذا التصرف على أنه نوع من الإِحسان لهذا الرجل المسكين بعد أن قصفنا بلدته منذ عام.*****

عندما وصلت سكوبجي للمرة الأولى منذ شهور ماضية وجدتها مكانًا حارًا متربًا وغير مشجع للبقاء بصورة عامة وكان المقدونيون دائمًا غاضبين على خلاف بلغاريا حيث الناس ودودين ومرحين.وكان وسط سكوبجي مكان مليء بالضوضاء ومرعب على الرغم من صغر مساحته واعتدت أن أضم يدي إِلي صدري عندما أسير فيه وسط عيون باعة المحال والباعة الجائلين التي تلتهمني، ومرتادي المقاهي الذين يصيحون غضبًا في وجه بعض لأتفه الأسباب، وكان السير وسط المدينة بالسيارة يعني سماع دوي أبواق السيارات باستمرار وتبادل اللعنات والسباب السلافي.ويكره المقدونيين الألبان الذين تقع دولتهم غرب مقدونيا أكثر من كراهيتهم للألبان المسلمين بمقدونيا نفسها، واعتادوا أن يتحدثوا عن ألبانيا على أنها دولة المجرمين والبرابرة والكلاب المسلمين.

وقالت جارتي العجوز البغيضة التي اعتادت الشكوى من انهيار

حياتها بعد انهيار يوغسلافيا: إنهم يتكاثرون كحيوانات المزارع، هؤلاء الألبان يستولون على بلدنا ويحولونها إلي شيء أشبه بمدن العصابات.
ولا يختلف كره المقدونيين للألبان عن مقدار كرههم لليونانيين بسبب أن اليونانيين رفضوا الاعتراف بجمهورية مقدونيا فور انهيار يوغسلافيا لأن جزءًا صغيرًا من شمال اليونان يحمل نفس الاسم واضطرت لذلك مقدونيا أن تسمي نفسها باسم غير رنان هو " جمهورية مقدونيا اليوغسلافية السابقة " ويعارض أغلب المقدونيين هذه التسمية.
وقال لي ذات يوم أحد السائقين: لو أنك من " جمهورية أمريكا المستعمرة بريطانيًا سابقًا " فكيف ستكون مشاعرك ؟ !ولم يكن ينافس الألبان ولا اليونانيين في هذه الكراهية الشديدة إلا البلغاريين الذين كان المقدونيون ينظرون إليهم بامتهان شديد ووصفتهم جارتي قائلة: " الرجال قطاع طرق، والنساء عاهرات "، ويرجع سبب كره المقدونيين للبلغارين إلي العداء القديم أثناء الحرب العالمية الثانية، وكما رفض اليونانيون الاعتراف بمقدونيا بسبب اسمها رفض البلغاريون الاعتراف بها بسبب لغتها التي اعتبروها لهجة مشوهه من اللغة البلقانية الصحيحة.
وتعمق هذا الخلاف بين البلدين بسبب هذه النقطة لدرجة أن

الرئيس المقدوني أصر في أحد المؤتمرات التي ضمت رئيس وزراء بلغاريا على وجود مترجم، وكان هذا أشبه بوجود مترجم يترجم الحوار الذي يدور بين جورج بوش وتوني بلير.وتشاءمت من كراهية المقدونيين لكل الدول المحيطة بهم، وزاد من بؤسي أنهم لا ينظرون للأمريكان نظرة أفضل من نظرتهم لجيرانهم وذلك لعدة أسباب منها أن الولايات المتحدة دعمت موقف اليونان فيما يتعلق بمشكلة الاسم، ولأن حلف الناتو كان متفقًا مع بلغاريا فيما يتعلق بمشكلة اللغة مما جرح المقدونيين بشدة، بالإضافة إلي أن الولايات المتحدة أجبرت مقدونيا على استضافة الآلاف من اللاجئين الألبان على أراضيها بعد أزمة كوسوفا ؛ والذين ينظر لهم المقدونيون الآن على أنهم بلاء حل بمجتمعهم.وقذفتني جارتي بتهمة حب الألبان من خلف شجرة المشمش التي تفصل بين فنائي منزلنا وذلك عندما عينت ألبانيًا أب لسبعة أطفال للاعتناء بحديقتي، وقالت بسخرية: " الولايات المتحدة الألبانية ". وانحنت تلتقط الفاكهة المتساقطة من شجرتها والتي كان أغلبها إما نيئ أو صلب جدًا كأنه كرات جولف خضراء أو فاسد ومسوس.وأقل ما يمكن أن توصف به السياسة الخارجية الأمريكية فيما يتعلق بالبلقان هو أنها مشوهة في أحسن الأحوال، وكانت مهامنا بمقدونيا ــ إن جاز تسميتها

مهام – تصب في صالح الأقلية الألبانية المسلمة التي تنظر لأمريكا على أنها مخلصهم من ميلوسيفيتش، وأعتقد أن الإستراتيجية الألبانية الماكرة من تمجيد البطولة الحربية الأمريكية تهدف إلي استدرار تعاطفنا ودعمنا الدائم، ولا يمكنني أن أحصي عدد المرات التي سمعت فيها صياح أحد سائقي التاكسي أو الباعة في المتاجر وهم يحيوني فور رؤيتي ويقولون: " أمريكا وألبانيا أشقاء "، وكنت أحاول أن أتجنب قدر الإمكان المقدونيين حتى لا يعطوني محاضرة عن كيفية إفساد أمريكا لبلدهم. واستمررت على كل حال في منح الألبان بقشيشًا سخيًا بالإضافة إلي تكليفهم بما أحتاج من أعمال، وزاد الود المتبادل بين أمريكا والأقلية المقدونية المسلمة من شكوك المقدونيين.وذهبت ذات يوم لتسلق الجبال مع شابين مقدونيين أحدهما طويل ونحيف اسمه فاسيل، والآخر قصير وبدين اسمه جوشي ذكروني بشخصية لوريل وهاردي لكن بدون الروح المرحة[1]، واستغلا لحظة ضعف كنت أتدلى فيها بالحبل من على أحد الصخور العالية وأحدهم يمسك بالحبل من أسفل

[1] لوريل وهاردي.. ثنائي فريد في تاريخ السينما العالمية وتعد أفلامهما الأكثر شهرة بين تلك التي تضمنت بطلين، مع ذلك لا يعرف إلا القليل عن حياتهما.

والآخر يمسك به من أعلى ووبخوني بسخرية بسبب السياسة الأمريكية الخارجية لمقدونيا وصاح فاسيل وهو يمسك الطرف السفلي من الحبل: رغبتكم في احتلال مقدونيا حقيقة معلومة للجميع.ونبح جوشي وهو يمسك الطرف العلوي للحبل الذي أتدلى منه: هذا بالاستعانة بالألبان المهجنين.فصرخت قائلة وأنا أتشبث بأحد النتوءات الصخرية: أيمكن من فضلكم أن تتحلوا بالهدوء.

فقال جوشي: بل ستتحلى مقدونيا بالسلاح وسنطلق النيران على المحتالين الاستعماريين وأعوانهم في الشوارع كالكلاب.

ولست في حاجة لأن أذكر إن هذه كانت آخر مرة أذهب فيها لتسلق الجبال بمقدونيا.

*****

تمكنت من تكوين بعض الصداقات مع المقدونيين على الرغم من كل ذلك، ومن بين أصدقائي المقدونيين فاسيل وجوشي، وتجنبت العلاقات الحميمة مع المقدونيين قدر الإمكان، وتشككت في كل المحليين الذين قابلتهم، وأنا متأكدة من أنهم بادلوني بحق هذه الشكوك.

واعتدت أن أقوم بعملي في النهار تحت غطائي الوظيفي الزائف " دبلوماسية ممثلة لحكومة الولايات المتحدة "، وأجوب في

المساء المدينة لمقابلة الأشخاص الذين أتصل بهم عند أكشاك الهواتف ومواقف السيارات والملاعب المظلمة والأكواخ المهجورة، وكنت أتساءل عما تظنه عني جارتي التي أعتقد أنها كانت تراني محتالة في أحسن الأحوال، وأحيانًا ما كنت أراها وأنا أنزل من سيارتي في وقت متأخر من الليل وهي تنظر لي من خلف شرفة منزلها كالبومة.

* * * * *

تلقيت بعد عدة شهور مديح وتهليل وشكر على مجهوداتي من قبل الوكالة وحمل أحد هذه المراسلات عنوان " المجد لهادلي " مشيرًا إلي اسمي المستعار، وحملت الرسالة في طياتها ما يلي: " لجهودها العظيمة مع عدد كبير من الأهداف وتفانيها وعدم توانيها في تحمل المخاطر اللازمة لمهامها الاستخباراتية. " وأعتقد أن الخطاب كتب من قبل أحد المتدربين الجدد، فكتبت رسالة أخرى أشكر فيها هذا الإطراء وأملت أن يخبر شخص ما في القيادة المتدرب أنه يبلي بلاءًا حسنًا كما حدث معي من قبل، وأحسست أني أصبحت أخيرًا جاسوسة ناجحة في عيون المسئولين بوكالة الاستخبارات المركزية على الأقل.

* * * * *

قابلت بالإضافة إلي عملائي عملاء الضباط الآخرين الذين تم تحويلهم لي، واكتشفت أن مهمة التحويل صعبة للغاية لأني توجب على الخروج مع أشخاص مرتبطين بمن سبقتني، واشتكى أحد العملاء قائلًا:

" اعتادت الآنسة جونزالز أن تدعني أقود السيارة "

" كانت الآنسة جونزالز تدفع لي مزيدا من النفقات لوقود السيارة بالإضافة إلي بعض النفقات الأخرى "

قلت: أختلف عن الآنسة جونزالز في أسلوبي.

فقال وهو يتنهد في أسي: ينبغي أن تبلغي تحياتي إذًا للآنسة جونزالز، لقد كانت سيدة رائعة.

وباستثناء زياراتي المتقطعة لإيما وإميلي ولم يشغل بالي شيء سوى التجسس، ودائمًا ما كنت أفكر:

" هل يتتبعني أحد ؟ "

" هل يتتبع شخص ما أحد عملائي ؟ "

" ما هذه السيارة السوداء المغطاة المركونة أمام منزلي ؟ "

" هل هاتفي مراقب ؟ "

" أين وضعوا كاميرات التصنت ؟ "

" ما الذي سيحدث لو أني اعتقلت ؟ "

" والأسوأ ؛ ما الذي سيحدث لو اعتقل أحد عملائي ؟ "

واعتدت أن أغير الطرق التي أذهب بها إِلي العمل كل صباح والأوقات التي أخرج فيها لأتمكن من اكتشاف أي تعقب ؛ فأحيانًا ما كنت أخرج قبل طلوع الشمس وأحيانًا بعد الظهر وأحيانًا أعود فجأة بعد الذهاب للعمل للتأكد من أنه لا أحد عند المنزل أو يستعلم عني من جارتي العجوز التي كنت متأكدة تمامًا أنها ستتعاون بكل حرارة مع أي إِجراء يمكن الشرطة المقدونية من إِلقاء القبض علي.

واعتدت أن أجوب المدينة كلها للتأكد من عدم وجود متتبعين، وأحيانًا ما كنت أذهب سيرًا على الأقدام من منزلي أسفل التل إِلي المدينة وأعبر الجسر القديم الذي يربط نهر فاردر بالجانب السلافي والألباني من سكوبجي وأتجول في الشوارع المرصوفة بالحصي والألبان يقفون على أبواب منازلهم يدخنون كالتنانين والنساء تحمل حقائب الخضروات ورءوسهم مغطاة بالحجاب.

وأحيانًا ما كنت أذهب إِلي سوق شاتو الذي ينتشر به الغجر السكوبجيين فكنت أشعر بالراحة أثناء وجودي هناك لسهولة اكتشاف المتعقبين فلم يكن يتبعني بهذا السوق أحد سوى الأطفال المزعجين رثي الهيئة ومتسخي الأقدام العارية الذين يجرون خلفي يتسولون الفكة.

وأحسست مع مرور الوقت أن متعقبي الحقيقي هو معرفتي أني

جاسوسة، وقلت هذا لنفسي عدة مرات وأنا أشتري الأقمشة التي سأصنع منها الستائر أو وأنا أجلس مع نفسي أحتسي القهوة وأتعرض للنظرات الوقحة من الشباب السكوبجيين ؛ لكوني امرأة تجلس وحدها.

وانحصرت علاقاتي الإنسانية مع الآخرين في المعاملات التجارية فقط ؛

" ما سعر رطل الطماطم ؟ "

" هل هذا جلد طبيعي ؟ "

" ما رأيك في التجسس لصالح الولايات المتحدة ؟ "

أما من استولوا على القدر الأكبر من وقتي، وأغويتهم باستمرار فكانوا عملائي.

* * * * * *

أدركت مع مرور الوقت أن الوصول إِلي الاحترافية ليس أمر سهل فالقليل جدًا من بين عملائي الذكور هم من لم يحاولوا أن يقحموا الجنس بعلاقتنا ولو لمرة واحدة، ولا بد وأن الرجال الذين جندتهم تساءلوا في البداية عن حقيقتي، ومنعهم التعصب الإِقليمي من أن يتخيلوا حقيقة دوافعي فقد كانت النساء الأمريكيات في نظرهم أقرب إِلي البغايا منهن للجاسوسات ؛ وسهل هذا من الاتصال بهم وأن أبدأ حديثي بالقول: أنا مفتونة

بمظهرك، أيمكن أن أدعوك لفنجان قهوة والحديث معك، وربما على انفراد ؟
ما الذي يمكن لأجنبي أن يقوله لأمريكية شابة تدعوه للخروج ؟ أيمكن أن يقول " لا " ! وكان من السهل القيام بهذا الدور وعقلي شارد فيما سيحتويه التقرير الذي سأكتبه بعد انتهاء اللقاء، والذي لم يكن سهلًا هو الحفاظ على التوازن بين إِرضاء الرغبات الأنانية للرجل والسماع له بانتباه مع التأكيد على أني لن أفكر في أن أنام معه.
وكان أصعب هدف قمت بتجنيده هو رجل أعمال ألباني شاب أنيق بشوش اسمه أحمد صار مهذبًا بعد تجنيده ودعوتي الدائمة له بالتعقل وإِدراك " طبيعة العلاقة المهنية التي بيننا ".
واهتمت الوكالة في هذا الوقت بالبلقان وخصوصًا بعد التطورات التي حدثت بكوسوفا التي تقع شمال مقدونيا، وبينما كانت القيادة في بلجراد تسعى لإِبقاء كوسوفو جزءا من صربيا، كان سكانها الألبان يطالبون بالحكم الذاتي، واهتم كل من الصرب والألبان بقضية كوسوفو باعتبارها حجر الزاوية لتراثهم القومي، ولكن ليس بمستوى الخلاف القائم فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية.
وزادت في هذه الفترة الهجمات المنظمة من قبل جيش التحرير القومي الذي تشكل من الثوار الألبانيين بكوسوفا وعدد من

العصابات وبدأ جيش التحرير القومي يخترق الحدود الصربية الجنوبية متسللًا إلي مقدونيا الهادئة، وبحلول ربيع 2001 اعتاد جيش التحرير شن غارات دورية على أقسام الشرطة المقدونية ومعسكرات الجيش مدعيًا إسقاط أعداد أكبر من الضحايا، وبالطبع تضايق المقدونيون من الرفض الأمريكي لاتخاذ أي موقف ضد هذه الغارات علاوة على رفض الحكومة الأمريكية تصنيف جيش التحرير القومي على أنه مجموعة إرهابية.
وعانت الشرطة والجيش المقدوني من نقص الأموال والمعدات، وشكى لي ذات يوم أحد ضباط الجيش قائلًا: " عندما سقط تيتو أخذ الصرب كل شيء حتى مفاتيح الأنوار ومقاعد دورات المياه "، واقترن هذا بنقص إمكانياتهم المتأصل، مما ترك مقدونيا غير قادرة على رد العدوان، وأصبحت الدولة الصغيرة التي كانت من قبل رمزًا للسلام تترنح على حافة الحرب الأهلية.
والتقيت بأحمد للمرة الأولى في أحد المؤتمرات العرقية التي عقدت بفندق خافت الإضاءة عتيق الطراز بأحد المناطق النائية، وكان على علاقة وطيدة بعدد من الكوسوفيين والألبان المقدونيين، وبدا لي المجتمعون معه أشبه برجال العصابات، والسياسيين الجدد عاثري الحظ وغير أكفاء ومختالون مثل المقدونيين السلافيين بأمجادهم التي لا مثيل لها.

بدأت لقاءاتي الأولى لتجنيد أحمد بأحد محلات صنع البيتزا المملوكة لألباني، وكان هذا المطعم يصلح كمكان لحشو الأسنان أكثر منه للطعام وبالرغم من أن أحمد كان يدعي كونه مسلمًا ورعًا إلا أنه دائمًا ما كان يطلب الفودكا مع البيتزا ويدخن أثناء تناول الطعام مثل أي شخص آخر بدول البلقان، ويتلقي العشرات من المكالمات على هاتفه الجوال فيخيل إليك وكأن إصبعه موضوع على نبض العالم.

واعتاد أن يقطع لي البيتزا قطعًا صغيرة ويحاول أن يطعمني إياها وكأني طفلة بالرغم من اعتراضي الشديد، كما اعتاد أن يقدم لي السجائر بإلحاح على الرغم من أني لم أكن أدخن، وأحسست أني أشبه بالطفل الخامل بالمدرسة الثانوية الذي يضغط عليه لتناول الماريجوانا، وأحيانًا ما كنت آخذ منه سيجارة أو اثنتين لمجرد أن أجعله مسرورًا وحتى أسمح للحوار أن يتجه في مسار أكثر إفادة لي.

ولم يمنع أحمد زواجه ولا أولاده العديدين من أن يطلب مني الذهاب معه للملاهي الليلية ببلغاريا، ولم أتخيل نفسي في مواجهة إيما وإميلي بصوفيا ومعي ألباني أشبه برجال العصابات.

وعندما كشفت لأحمد غطائي بعد شهور من علاقتنا زاد احترام

أحمد لي، وقال لي ونحن جالسين في سيارته المرسيدس في مدينة قذرة على بعد أميال من وسط العاصمة: أحب وكالة الاستخبارات المركزية.

وبعد أسابيع حذرت أحمد من خطورة لقاءاتنا العلنية، ولم أندهش عندما لم يبد أي اعتراض على اللقاءات السرية وقال: يمكننا أن نستخدم شقة زميلي.

وخاب أمله عندما قلت له: بل ستكفي سيارتك.

وكان قد سبق أن كتبت قبل اجتماعي به رسالة للقيادة أذكر فيها السيناريو المقترح الذي سيسير عليه اللقاء، وجاءني رد الوكالة الذي خاطبني وكأني شخص ثالث مكتوب فيه " شكوك هادلي حول الهدف ليس لها علاقة بالواقع ومن المستبعد أن يبلغ الشرطة المحلية لأنه يعي تمامًا الخطورة المتضمنة في لقاءاته بك ".

وسألت أحمد عندما قابلته: لماذا ترغب في العمل لصالح وكالة الاستخبارات المركزية ؟

وبعد التفكير لجزء من الثانية في جريمة التجسس ؛ هز أحمد كتفيه وقال: تمام، لا توجد مشكلة.

ولم يكونوا قد قالوا لي بالمزرعة أن تجنيد عميل يمكن أن يتم بهذه البساطة.

وحذرت أحمد قائلة: لا يمكنك أن تتحدث مع أي أحد بخصوص هذا الشأن، ولا حتى زوجتك.
فغمز لي قائلًا: أنا لا أخبر زوجتي أبدًا بأي شيء.
ثم ثبت نفسي وأنا أقول له: ولو أن أحد اكتشفنا معًا أو سألك عن علاقتك بي فينبغي أنه تخبره أننا على علاقة خاصة.
فقال أحمد وهو متعاطف مع نفسه: لا توجد مشكلة، ولو تحتم علينا الأمر فسنمارس الجنس.
قلت: لا يا أحمد، لن يكون بيننا في الحقيقة شأن خاص، هذه فقط قصة تمويهية سنستخدمها في حالة القبض علينا.فقال على الفوروقد خاب أمله:ألن نمارس الجنس؟
قلت: لن نمارس الجنس، كل ما هنالك أني سأعطيك النقود وآخذ منك المعلومات، كما اعتدنا من قبل، وكل ما حدث الآن أننا نعيد صياغة إطار علاقتنا ليتم حمايتك والدفع لك أيضًا.
قال: ألن نتشابك الأيدي ؟
قلت: لا يا أحمد هذا عمل، عمل جاد، مفهوم ؟ لأنك لو قبض عليك ستذهب إلى السجن.
قال أحمد وقد انزعج: لن يقبض علينا وسأخبر كل فرد أننا نمارس الجنس.
وخطر على بالي تباهي أحمد وسط أصدقائه وبمطعم البيتزا بأن

لديه خليلة شابة أمريكية فقلت: لا تفعل، ولا تخبر أي أحد بأي شيء .

فقال: حسنًا، لا توجد عندي مشكلة.

وأخرجت في هذه اللحظة لأحمد اتفاق سري ليوقع عليه بالإضافة إلي عشرة أوراق من فئة المائة دولار جرت العادة على دفعها من قبل الوكالة عند توقيع العقود.

* * * * *

تمت عملية تجنيد أحمد بسلاسة وسهولة نسبية وتلقيت على تجنيده كثيرا المديح من القيادة ؛ إلا أن التعامل معه كان في غاية الصعوبة.

وتقابلنا ذات يوم بمطعم اسمه بحيرة أهريد على بعد 160 ميل جنوب العاصمة سكوبجي وأثناء عودتنا قال لي أحمد وهو يقود سيارته بأحد الشوارع المزدحمة: لماذا لا يمكن أن تقوم بيننا علاقة ؟ أنا لا يدفع لي بالقدر الكافي لهذا العمل.

ونظر لي نظرة استجداء فقلت له: أبق عيناك على الطريق، لقد أخبرتك من قبل أن علاقتنا هي علاقة عمل، وعلى كل حال يا أحمد هل أنا مضطرة لأن أذكرك ؟ ! أنت متزوج.

فتأوه وقال: نحن هنا معتادين على الزواج والإبقاء على بعض العلاقات الجنسية خارج نطاق الأسرة.

فكذبت للتخلص من إلحاحه قائلة: على كل حال أنا لي صديق حميم ولست معتادة على أن يكون لي أكثر من واحد.قال: أي صديق ؟

قلت: في أمريكا، إنه أمريكي.

قال بمنتهي الثقة: الأمريكان محبين فشلة، ما مهنته ؟

وخطر على بالي جيمس فقلت بسخافة: إنه مصور.

فقهقه أحمد قائلًا: مصور ! ستموتين من الجوع مع هذا الرجل.ولمحت منطقة رائعة على جانب الطريق حيث أشجار الصنوبرِ وأشعة الشمس البرتقالية تتواري خلفها بسرعة فقلت لأحمد: توقف هناك.

ثم قلت: والآن ماذا عندك ؟

فأخرج من جيب سترته مفكرة صغيرة وجلس يكتب عليها لقرابة ساعة بخط صغير كل شيء قابله منذ لقاءنا الأخير في الشهر الماضي.

وفي نهاية اللقاء ناولت أحمد مرتبه الشهري ؛ أربعمائة دولار ملفوفة بعناية في ورقة جريدة، ثم ناولته إيصال الاستلام ليوقع عليه باسمه المستعار الذي اختاره بنفسه ؛ فوقع بفخر " شرطي ".

* * * * *

لم أقلق من مضايقات أحمد الجنسية قدر قلقي من إلقاء القبض عليه ؛ فلم يكن يهتم كثيرًا بالإجراءات الأمنية التي علمته إياها بمنتهى الدقة.

وقلت له أكثر من مرة: لا تتصل بي هاتفيًا، وسنتقابل في الوقت والمكان المتفق عليه، وإذا لم يظهر واحد منا ننتقل فورًا للخطة ب، مفهوم ؟

فيجيب: " بالطبع "، وعلى ملامحه مظاهر الضيق من اضطراري لإعادة تذكيره.

وأحيانًا ما كان يأتيني اتصال على هاتفي الجوال أثناء قيامي بالتأكد من عدم المراقبة قبل الذهاب للقاء أحمد في اجتماعاتنا المتفق عليها فأنظر في الهاتف لأجد أن المتصل أحمد وأنه يستخدم هاتفه الشخصي بدلًا من استخدام هاتف عمومي كما أخبرته أن يفعل في حالة الضرورة القصوى، فأتردد للحظة ما بين التفكير في الرد أو عدم الرد، وغالبًا ما كنت أترك الهاتف يرن و لكني في بعض الأحيان كان ينتابني القلق من احتمال حدوث شيء هام فأرد قائلة بصوت آمل أن يستنبط من نبرتي فيه مدى سخطي: نعم ؟

فيقول: ليسااااااا ! أنا في طريقي للمكان المتفق عليه، هل كل شيء على ما يرام ؟

فأرد عليه: تمام.

وينتابني الحنق لنطقه اسمي بعد أن نبهت عليه مرارًا وتكرارًا ألا ينطقه في الهاتف ــ على الرغم من أنه اسم مستعار ــ، وأفكر بجدية كيف أعاقبه عندما أقابله.

وأحيانًا كنت أصل لمكان الاجتماع حيث يفترض به أن ينتظرني في أحد الجوانب التي لا تلفت الانتباه فأفاجأ به واقفًا في وسط الطريق يثرثر في الهاتف الجوال، ويلوح لي بحرارة شديدة بمجرد أن يلمحني، وذات مرة أخذ معه باقة ورد لوح لي بها وكأنه ملاح جوي يرشد الطائرة إلي مدرج الهبوط.

* * * * *

تعاملت أيضًا مع عملاء خارج البلاد ؛ أي قمت بمقابلتهم بصفة دورية في أماكن مختلفة من العالم، واعتدت أثناء هذه اللقاءات على السفر تحت اسم مستعار، وتطلب هذا مني القيام ببعض الترتيبات المسبقة والمشاورات اللانهائية مع القيادة ومكاتب الوكالة المختلفة، وتوجب على قبل الذهاب إلي الدولة التي ألتقي فيها بالعميل أن أذهب أولًا إلي إحدى الدول خارج منطقة البلقان للحصول على مستندات هويتي المستعارة من ضابط ميداني آخر.

وأرسلت لي القيادة في المرة الأولى التي قمت فيها بعملية

خارج مقدونيا رسالة تطلب مني فها السفر إلي فيينا للحصول على أوراق الشخصية المستعارة من ضابط ميداني تدعى سيسليا أبنجتون واحتوى نص الرسالة على ما يلي: " سترسل الضابط أبنجتون للضابط هادلي تعليمات تحتوي على كيفية الاتصال ووصف لملامحها لإتمام اللقاء في 24 ديسمبر ".

ولم أندهش للعمل في عيد الكريسماس، لأني كنت أخطط للاحتفال بالكريسماس في مقدونيا بالمنزل وحدي أمام دجاجة مشوية وبطاطس مفرومة، بينما إيما وإميلي ينطلقان في رحلة دعيت إليها لكني لم أتمكن من قبولها، وذلك لأن رئيسي سكوت قال لي بمجرد أن طرحت عليه الفكرة: " لا يمكنني أن أتخلى عن أي من الضباط في ظل الظروف التي تعاني منها مقدونيا حاليًا إلا إذا كان الأمر يتعلق بإجراء عملية بالخارج. "

ولم أصر على موقفي لأني كنت أحب سكوت وكنت شغوفة لإسعاده، ولم أشك له أبدًا من المعاناة التي يسببها لي العمل لعلمي أن معاناتي التي سأتحدث عنها ــ مثل الرغبة في قضاء وقت مع أصدقائي وشعوري بالوحدة ورغبتي في مواعدة أحد الأشخاص ــ ستبدو تافهة في نظر سكوت الذي عمل والداه بالوكالة وكذلك زوجته، وكانت الوكالة بالنسبة إليه هي الشيء الوحيد الذي يعرفه، ومن وجهة نظره فإن فرصة قضاء عطلة

الكريسماس في العمل شرف عظيم.

ولم أتقابل مع العميلة البوسنية ـ التي كانت منزعجة دائمًا ـ منذ أن تم تحويلها لي، وخشي سكوت من أن تشعر المرأة أنها تركت في العراء، ورأى أن شهر ديسمبر وقت مناسب للقائها فلن يثير سفري أو سفر المرأة أية شكوك لو أنه تم في عيد الكريسماس، بالإضافة إلا أن غيابي سيعطي عملائي الآخرين فترة راحة هم في أشد الحاجة إليها، فعلى سبيل المثال ؛ صار أحمد دائم التذمر وغير جدير بالثقة منذ بداية شهر رمضان فبالإضافة إلي الصيام توقف عن التدخين وتعاطي الخمور وبدا في المرة الأخيرة التي قابلته فيها منهك ونحيف، ولم يحاول حتى أن يقوم بأي مضايقات لي.

الأعياد هي الوقت الذي يقضى مع الأهل والأصدقاء لكني لم أفكر فيها بهذه الطريقة فلم تكن أسرتي تكتب لي إلا وكأنها تكتب لإنسانة ميتة، وكانت خطاباتي لهم غامضة وتدعوا للحذر، وباستثناء إيما وإميلي انحصرت صداقاتي في دائرة ضيقة جدًا فكنت استقبل من حين لآخر رسائل إليكترونية داخلية من إيثان الذي استقر بالولايات المتحدة لكنه كان من الواضح أنه يتجول في العالم كله، وأليس التي تخدم بأمريكا اللاتينية، وأوفليا التي أرسلت لعاصمة رائعة بأوروبا الغربية، وحتى جين سوك التي

عينت بالشرق الأوسط، وكانت جين سوك هي الشخص الوحيد مثلي الذي لم تضع خطط للاستمتاع بأعياد شهر ديسمبر، وكتبت لي: " لا يمكنني الانتهاء من كل هذا العمل، ومن الممتع جدًا أن نطبق كل ما تدربنا عليه، ألديك نفس الشعور "
فأجبت بإيجاز: " أكيد ". لأني لم أرغب في أن أعطيها سلاح يمكن أن تستخدمه ضدي، وأحسست أني بمرور الوقت أتحول إلي إنسانة مرعبة وغير جديرة بالثقة وواقعية بصورة جافة.
وفكرت أني سواء سافرت في الكريسماس للعمل أم لا فإن هذه السفرية ربما تمدني ببعض الهدوء وأن أفكر خلالها في حياتي وأين تذهب.

* * * * *

أرسلت لي الضابط سيسليا أبنجتون رسالة تطلب مني فيها مقابلتها في المقعد الأخير بالكاتدرائية الموجودة على حدود مدينة فيينا، وذكرت في رسالتها: " الضابط أبنجتون رشيقة وشقراء وسترتدي نظارة سوداء مرآوية. "
وأرسلت لأبنجتون رسالة أخبرها فيها بأني سأرتدي معطفا صوفيا له ياقة من الفراء الصناعي وقفاز جلد أسود، ولن أرتدي نظارة.
ووصلت للكاتدرائية بعد المعاناة من السير في طرق فيينا التي

تشبه المتاهات والتي غطاها الصقيع، وبمجرد أن فتحت باب الكاتدرائية اكتشفت أن هذا هو الوقت الذي تؤدى فيه الصلاة المسائية، وكان هذا سوء تخطيط من جانب أبنجتون فمثل هذا التصرف كفيل بأن يجعل المتدرب يخسر العديد من النقاط في المزرعة.

ووجدت المقعد الأخير ممتلئ عن آخره بنمساويين يترنمون ولمحت من بينهم امرأة ترتدي نظارة سوداء مرآوية ولا تترنم مع الباقين.

وقلت لنفسي: " أيمكن أن تكون هذه أبنجتون ؟ "، فلم يكن واضح تمامًا جنسها، لكني قلت لنفسي في النهاية أنها ربما تكون امرأة، وبينما كان يفترض أن تكون رشيقة لاحظت أنها قزمة، وشعرها ليس أشقر بل أبيض ناصع البياض مثل شعر الجدات، وقلت لنفسي أنها ربما كانت شقراء منذ خمسين عامًا.

واقتربت منها بحذر وقلت بالإنجليزية: معذرة يا سيدتي أيمكن أن تخبريني متى ستتلى الترانيم الجريجورية ؟

فقالت أبنجتون الرد المتفق عليه بحماقة: لا بد وأنك تقصدين جوقة الخصيان.

والتفتت نحونا إحدى النمساويات اللاتي كن يترنمن في عبوس وأشارت لنا بالصمت، فجلست بجوار الضابط أبنجتون ملتزمة

الصمت فناولتني حقيبة بلاستيكية صغيرة بها أوراق شخصيتي المستعارة، وانتظرت حتى انتهت ترتيلة عيد الميلاد ثم غادرت الكاتدرائية وأنا سعيدة بالتخلص منها.
وبدأت من هذه اللحظة سلسلة سفرياتي تحت اسم إيزابل هارتلت من مدينة لاندر، واخترت لاندر كمحل ميلادي لأني قضيت بضعة أسابيع أتسلق الجبال بالقرب من تلك المدينة الغربية الصغيرة التي كانت ذكرياتي عنها شديدة الوضوح وكأني قضيت طوال حياتي بها، ولا أزال أذكر مظهر الجبال الصخرية المهيبة التي تعلو قممها الألبية واحات الجليد الكريستالية وآلاف الجداول الصغيرة والأنهار الممتلئة بالأسماك والغابات الكثيفة المتشابكة الأشجار، وعندما كنت أشعر بالضياع أو عدم الاتزان كنت أستعيد هذه المناظر وأستمد منها الإحساس بالثقة.
جلست الساعة التالية بحجرتي أشرب نبيذا أبيض وآكل سجق مليء بالدهون وجبن صفراء رقيقة، وأعدت لنفسي تكرار اسمي الجديد وتاريخ ميلادي ورقم تأميني الاجتماعي وأسماء والداي (هارولد وأجنس) وتواريخ ميلادهم والتفاصيل المتعلقة ببرجي (برج الميزان) واختلقت لنفسي وظيفة جديدة (كاتبة أدب رحلات)، وأحسست أني أعيد تشكيل شخصيتي.
ولو أني سئلت فسأجيب أني أعمل على تأليف كتاب بعنوان (

دليل المرأة للسفر وحيدة حول العالم).
وذهبت إلي إحدى الحانات وتجولت بعيني فيها فرأيت ركن الشراب مزدحم بالشباب الفييني الأنيق المبتهج الذين يضحكون بانطلاق وحرية ويتشاركون الشراب وأطباق البطاطس المقلية والرجال قد حلو ربطات العنق وفكوا أزرار ياقة القمصان، والنساء أطلقن العنان لشعرهن.
وسألت نفسي: " ماذا لو أن أحدهم اقترب مني ؟ " فقررت للتو أني لا بد وأن أتمسك بقصتي حتى ولو كان الذي سيقترب مني شاب وسيم أعجبني.
وتذكرت أحد الرسائل الإلكترونية التي أرسلها لي إيثان من قبل يخبرني فيها أنه تعرف على امرأة أثناء سفره تحت اسم مستعار، وحاولت المرأة بعد ذلك أن تتعقبه، وبعد أن اكتشفت صعوبة ذلك وصلت إلي قناعة بأن إيثان أعطاها اسمًا مستعارًا فملأها الغضب، وبطريقة ما قابلته بالولايات المتحدة فتعقبته وشنت عليه حملة لتلطيخ سمعته، واضطر إيثان في نهاية المطاف أن يعترف بالقصة المحرجة كاملة لرئيسه بالوكالة، وكتب إيثان قائلًا: وخلاصة القول أن هذا الأمر انتهى بمأساة لعينة فقد أصبح الآن بملفي الأمني عشر صفحات جديدة. "
وعلى كل حال لم يقترب مني أي شاب، ولم يبد أي منهم أدنى

اهتمام بي، وفي النهاية خرجت إِلي الطريق وحيدة في البرد القارس، ولمحت الميدان الذي توجد به الكاتدرائية مضيء بأضواء بيضاء ومليء بالمبتهجين أكثر من الحانة والموسيقى الكلاسيكية تصدح من مكبرات صوت موضوعه على أعمدة الإِضاءة والناس ملتفة حول مظلات يقف تحتها البائعون الذين يبيعون النقانق المتبلة والنبيذ الساخن.

وبدت لي فيينا مدينة في غاية النصاعة والنقاء على خلاف سكوبجي القذرة ذات أعمدة الإِضاءة المحطمة والخربة دائمًا، وقررت أن أشتري بعضًا من النبيذ الساخن.

وأمسكت بكوبي الساخن بكلتا يداي وأنا أقف بالقرب من مجموعة من الأشخاص في مثل سني، وفجأة لم أعد أشعر بأي شيء سوى أني حرة وغريبة وأقرب إِلي كوني سكرانة ووحيدة، وكلما مررت بعدد أكبر من المبتهجين أحسست بالوحدة أكثر فأكثر، وفي النهاية ركبت مترو الأنفاق إِلي الفندق الكئيب الذي أنزل به وهو فندق ماجستيك الذي نصحت به الضابط أبنجتون واصفة إِياه بأنه مناسب وبعيد عن الطريق وآمن.

وقالت في رسالتها: " ولا يميل العاملون في الفندق إِلي توجيه الأسئلة الكثيرة "، واكتشفت مدى خطأ هذه المعلومات عندما أراد موظف الاستقبال الهندي المرح الذي أخبرني أن اسمه

رابيش ــ ويعني بالهندية سيد الجمال ــ أن يعرف كل شيء عني وعن سفرياتي، وسألني عما إذا كانت لاندر قريبة من تشيري هل بنيو جرسي حيث يسكن الكثير من أقاربه ؟ ولماذا تسافر امرأة شابة حول العالم وحيدة ؟ وما الذي دعاني للمجيء إلي فيينا حيث الناس مملين وأشحاء ؟ وبما أني هنا فلابد وأن أبقى لبضعة أيام إضافية حتى يتسنى لرابيش أن يريني أجمل أماكن فيينا على الإطلاق. وعلى الرغم من كثرة محاولاتي للتملص من رابيش إلا أنه كان دائمًا حولي في كل مكان.

واستيقظت في الخامسة صباحًا لأستقل حافلة متجهة إلي بودابست فوجدته يرتب مكتب الاستقبال ويدقق في جوازات السفر ويدبس الإيصالات، ويرتب مفاتيح الغرف على مشاجبها تمامًا كما كان يفعل الليلة الماضية، ولأني تدربت على التشكك الدائم تساءلت عن سبب اهتمام رابيش الزائد بي، وبينما أنا أبحث بحقيبتي عن محفظتي سألت رابيش ــ من أجل إشعاره بالسرور ــ عما إذا كان يمكنني معرفة اسمه الأخير.

وقلت وأنا أمد يدي لألتقط بطاقته: " لأتصل بك في حالة عودتي مرة أخرى "، فقال: " مرحبًا بك في أي وقت تعودين فيه "، ولوح لي بابتهاج وأنا أخرج من الباب الزجاجي المتسخ.

وفعلت هذا من أجل تفحص بياناته في قواعد بيانات الوكالة التي

بالرغم من أنها قديمة ومليئة بالأخطاء إلا أنها أحيانًا ما تحتوي على معلومات مفيدة، وقلت لنفسي وأنا أضع البطاقة بجيبي: " لا يمكنك أن تكوني حريصة تمامًا طوال الوقت. "

* * * * *

ركبت في طريقي من بودابست إلي براج إلي عيون المياه المعدنية ببفاريا العديد من الطائرات والقطارات والحافلات والسيارات جيئة وذهابًا وأحيانًا كنت أعيد الطريق نفسه أكثر من مرة حتى صار من شبه المستحيل تعقب طريق إيزابيل هارتلت، وقد صممت نصف رحلتي تقريبًا من أجل إخفاء الغرض الحقيقي من الرحلة، وعنى ذلك العديد من مرات التوقف للتسوق ومشاهدة المناظر الخلابة وتناول الوجبات، وأحيانًا ما كان يحاول شخص أن يفتح معي حوارا لكني كنت أتخطاه بسرعة. وعندما وصلت أخيرًا للمنتجع البافاري الرائع لم أستمتع فعلًا بمظاهر الرفاهية المحيطة بي لانعزالي أغلب الوقت بحجرة الفندق مع عميلتي جاسنا التي قضت أغلب الوقت تشكو من استبداد أم زوجها لها، وزوجها الذي لا يصلح لشيء ووقاحة ابنتها بالتبني وحياتها البائسة بصفة عامة، واندهشت من آلاف الدولارات التي استقطعت من أموال دافعي الضرائب من أجل أن أسافر سفريتي تلك التي جبت فيها كل أرض الله الخضراء

لمقابلة هذه المرأة، ولست في حاجة لذكر الرقم الفلكي الذي تتقاضاه هذه المرأة من الوكالة والذي اغتظت تمامًا عندما اكتشفت أنه يفوق راتبي بمراحل كثيرة.

ولفتت جاسنا انتباه الوكالة إليها منذ عدة سنوات عندما ادعت للضابط الميداني الذي جندها ـ ادعاء كاذبا على حسب تخميني ـ أنها كانت زميلة دراسة وصديقة مقربة من الرئيسة البوسنية الصربية ومجرمة الحرب سيئة السمعة بلجانا بلافسك. وكانت بلجانا تختلف عن باقي الديكتاتوريين الصرب والقادة العسكريين بوصف التطهير العرقي علانية على أنه " ظاهرة طبيعية " بالإضافة إلي أنها صورت نفسها وهي تدوس بقدمها على جثة مدني مسلم قتيل لتضع قبلة على وجنة لواء صربي قاتل اسمه أركان.

ولم أصدق أن جاسنا كانت في يوم من الأيام صديقة لبلافسيك، وبدأت أتشكك في مزاعم جاسنا عن اتصالها الدائم بتلك المرأة لأنها لم يكن لديها أي معلومات تقدمها لنا.

وعندما سألتها عن بلافسيك قالت: " أصبحت صديقتي مشغولة جدًا، ولم يعد عندها أي وقت للكلام ".

وبعد حديث جاسنا عن بعض النظريات الغامضة عن مستقبل جمهورية الصرب عادت لترثي عائلتها.

وكان الهدف من هذه اللقاءات التي تتم وجهًا لوجه هو " بناء علاقة " حتى لا تشعر جاسنا أنها تم تجاهلها أثناء الشهور التي لم نرى فيها بعضنا البعض، وعلى الرغم من ذلك كرهت كل دقيقة أقضيها معها، وأظن أن هذا لم يكن يختلف تمامًا عن مشاعرها لرغبتها في أن تجمع مالها وتستمر في طريقها.

واعتدت أن أصرفها كل ليلة في تمام الساعة السابعة، وكانت مسرورة لتمكنها من أن تأكل سندويتشات الطماطم على العشاء وتحتفظ ببقية ثمن الطعام، وخلافًا لأحمد وأغلب العملاء الآخرين لم تحتاج جاسنا للتحذير المستمر من استخدام مرتب الوكالة في القيام بتسوق الكثير من المشتروات التي ستلفت بالتأكيد انتباه زملائها وجيرانها، واتضح أنها بخيلة بصورة غير عادية، ورفضَت بشدة أن أفتتح لها حساب بنكي، وشرحت لها أن المال لن يكون فقط أكثر أمانًا خارج البلاد فحسب بل إِنها أيضًا ستجني من ورائه فوائد بنكية، لكنها فضلت بدلًا من ذلك أن تلف الرزم النقدية جيدًا في ورق معدني وتخزنه في مجمد الثلاجة، وأعتقد أن جزءًا من جاسنا كان لا يصدق جنيها كل هذه الأموال وأنها تخشى أن يأتي يوم تكتشف فيه الوكالة حيلتها.

وبمجرد أن أدع جاسنا تذهب في المساء حتى أجلس محاولة أن

أستنبط أي معلومات قد تكون مفيدة للقيادة من وسط كل الميلودراما التي تملأ حياة جاسنا.

وبعد يومين من هذا الروتين الممل وضعت أمام جاسنا كومة نقود هي راتبها الذي لم تتقاضاه في الشهور التي لم نتقابل فيها. وبعد أن عدت جاسنا النقود مرتين قالت: ماذا عن أجرة السيارة إلِي المطار ؟

فأعطيتها المزيد من الأوراق النقدية، ولم يكن هناك أي داعي لحثها على أي شيء. وعلى كل حال نكرت نفسي بأنها تخاطر بحياتها.

* * * * *

عدت إلِي فيينا لاستعادة وثائق اسمي الحقيقي من الضابط أبنجتون وأنا مستمتعة بالراحة التي سأستمدها من عودتي مرة أخرى لأصبح ليندسي موران بعد العذاب والإِنهاك الذي عانيته من العمل تحت اسم مستعار، ولم أكترث كثيرًا بالرجوع إلِي أوروبا الشرقية.وأثناء عودتي من مطار سكوبجي إلِي منزلي مررت بالشوارع البلقانية الكئيبة والمباني البشعة وأنهار الجليد المسود على جانبي الطريق والأطفال الغجريين ملتفين ببطاطين مسروقة ويشعلون أعواد الثقاب في أكوام القمامة، وعلى الرغم من أن أهل سكوبجي غير مضيافين وغير مبتهجين كأهل فيينا

فإنه يمكنك هنا على الأقل أن تشعر بالوحدة والكآبة مثل غيرك.وكتبت تقارير ذكرت فيها المعلومات القليلة جدًا التي استطعت استنباطها من أحاديث جاسنا المطولة، بالإضافة إلي عدد وافر من المراسلات لوصف كافة تفاصيل رحلتي، ثم قررت الذهاب إلي صوفيا فالفتاتان ـــ إيما وإميلي ـــ ستعودان غدًا من رحلتهما، وقد تركت لي إميلي مفتاح شقتها لأستخدمه إذا ما رغبت في مفاجأتهم في حفلة رأس السنة.

وانطلقت بالسيارة أقطع الأميال الطويلة من الطرق غير المضاءة وذهب عقلي عبر المحيط إلي جيمس حب حياتي الذي لم أراه منذ قبلة الوداع، وأحيانًا ما كنت أرسل له بعض الرسائل الإلكترونية المسلية متخفية بين رسائل مجموعات بريدية أملًا في التأثير عليه.وكتبت له مشاعر الوحدة التي ابتليت بها، ولأني لم يكن مسموح لي أن أكتب أي شيء يتعلق بعملي لم أشكُ له أبدًا من إحساس فقدان الهدف الذي أعاني منه أو أي من الضغوط التي أعيش فيها واعتدت أن أقرأ كل رسالة أكتبها له عدة مرات قبل إرسالها حتى أشعر بالرضا وأنها لن تكون مفهومة لأي أحد باستثناء جيمس ولهذا كنت مرتاحة البال وأشعر بالرضا وأنا أعيش في بيتي الجديد الغريب.

وبعد أن عدت من سفريتي المهنية وجدت رسالة من جيمس

كتب فيها: أنا أحذف رسائل المجموعات بصفة عامة باستثناء رسائلك لأقرأها عندما أكون وحدي فأنا أحب كتابتك. لماذا لا تتوقفين عن فعل ما تقومين به أيًا كان وتدخلي مجال الكتابة.
وأثارني هذا الخطاب بشدة فقرأته المرة تلو الأخرى متفحصة الكلمات للغوص في أعماق معانيها، وخمنت شيئًا واحدًا فقط؛ وهو أن جيمس قرأ ما بين سطور رسائلي وخمن عدم رضائي الكامل عن وظيفتي، وضحكت وأنا أتخيل نفسي أخبر سكوت وباقي المسؤولين بوكالة الاستخبارات المركزية أني أنوي الدخول في مجال الكتابة.
وغبطت جيمس على استمتاعه بحياته على النحو الذي يريده، وكان قد أخبرني قبل ذهابي إِلي مقدونيا أنه عمل لسنوات موزع أدوية ولأنه كره هذه المهنة قرر عندما بلغ الواحدة والثلاثين من عمره ــ نفس عمري في هذا الوقت ــ أن يتوقف فجأة ويسافر في رحلة حول العالم، ودعم نفسه ماليًا بكسب سباق سباحة دولي ثم بدأ يلتقط الصور. وأخبرني في المرة التي جلسنا فيها بشاحنتي قبل السفر: لم تكن عندي أي خبرة في مجال التصوير، لكني اكتشفت أني أحب التصوير، ومن هنا بدأ الأمر.
وألهمني اعتراف جيمس ــ وإِن كان متأخرًا ــ بأني يمكنني أن أفعل شيئا، وبعد قراءة رسالة جيمس للمرة الألف قررت أني

يجب أن أكتب أكثر، أما عن ماذا بالضبط ؟ فلم أكن أعرف، وكذلك أني لا بد وأن أبدأ السباحة مرة أخرى لأنها ستقربني من جيمس.

وسألت جارتي المقدونية عن حمام سباحة عام، فقالت: تقصدين ذاك المكان المليء بالحشرات الطفيلية والأمراض،والذي يستخدمه الغجركدورة مياه عمومية ؟

وعلى الرغم من كراهيتي الشديدة للخضوع لتحذير جارتي إلا أني أجبرت نفسي على الانتظار حتى أصل صوفيا لأبدأ مجالي في السباحة فإن لم تكن حمامات السباحة العامة هناك مترفة فعلى الأقل لها كينونة معروفة.وكنت أفكر في السباحة والكتابة وجيمس عندما ظهرت فجأة أضواء صوفيا أمامي بعد أن التففت حول الهضبة الأخيرة، وبدت لي هذه المدينة مثل باريس وكلما اقتربت من منزل إميلي أحسست باقترابي من الوطن.

* * * * *

الفصل التاسع

قابلت فنسى للمرة الأولى ذات صباح أحد الأيام التى عادت فيها ايما واميلى من حمام السباحة مبكرًا لتنالا قسطًا من الراحة ، ولابد وأن فنسى الذى درست له ببلغاريا منذ سنوات كان يعلم أنى موجودة هنا لأنه كان ينتظر خروجى من حمام سباحة فاسيل لفسكى بولفارد ، ولمحته ــ وأنا أهز شعرى المبتل وعيناى تتأذى من الشمس ــ منحنى يدخن سيجارة بجوار عامود أسمنتى شبه مهدم ويبدو أشبه بنجم سينمائى منه لحارس أمن بصالة قمار بلغارية .

ولم يكن فنسى من ذاك النوع الذى يتوقع أى أحد أن أنجذب إليه ؛ فلم يكن يفعل شيئًا فى أوقات فراغه إلا أن يدخن السجائر ويصنع أكوامًا من الرماد على أى شئ يتواجد بجواره سواء كان كوب أو قطعة زجاج أو أى شئ آخر ، وانزعجت أمى من صداقتى لمثل هذا البلغارى الكسول ، وسألتنى فى أحد خطاباتها " ماذا يفعل والداه؟" ولم تواتنى الجرأة لأخبرها أن أبو فنسى هو نسخة مطابقة له ، ولم أقابل أم فنسى إلا مرة واحدة هى المرة الأولى والأخيرة التى قضيت فيها ليلة بالشقة التى يعيش بها فنسى مع أمه بليلين أحد أقذر أحياء صوفيا على الإطلاق ،

وعندما دخلت من باب المنزل الذى يسكن فيه فنسى اندهشت من شدة كآبة المكان الذى كانت رائحته مثل رائحة القبر وعندما غضبت بشدة منه تخيلته وهو يجلس فى هذا البيت وحيدًا فى يوم أحد ممطر فتحول غضبى فورًا إلى شفقه .
وكانت الحجرة الخلفية هى المخصصة لفنسى ، وليس بها مكان لسرير وإنما بها شئ غريب معد للنوم ، وأضاء القمر الذى تسلل ضوءه من النافذة الحجرة فلمحت فيها كتب الجبر التى أغرقتها المياه وبعض زينات شجرة كريسماس محطمة وربطة من مجلات التايم يعود تاريخ إصدارها لأكثر من خمس عشرة سنه بليت أوراقها من كثرة تصفحها الذى أعتقد أنه تم لالآف المرات.وعندما حل الصباح صرت شبه خائفة من الأضواء والضوضاء وضجيج أمه وهى تصنع القهوة وتخبط الآنية ببعضها ، وأحسست كأن كل ضوضاء الشقة على سريرى ــ إن جاز تسميته سرير ــ ، واقترب منى فنسى وقربنى منه فى تطفل غريب وقال: نامى فترة أطول .
وبدأت الطيور تقترب من زجاج النافذة وكأنها تسعى للقتال ، وأحسست بنوع من العزلة فى هذا المكان المثير للشفقة ، ولمحت على الأرض رواية توم روبنس التى أعطيتها لفنسى منذ أعوام عندما كنت مدرسة لغة إنجليزية ببلغاريا وكان فنسى

شاب جامعى وسيم قبل أن أصبح جاسوسة ويسوء به الحال فيعمل فرد أمن بصالة قمار ، وكانت قصة الكتاب ـ حسب ما أذكر ـ تدور حول قصة حب تحدث داخل علبة سجائر ، وبدت هذه القصة فى هذه اللحظة إلى حد ما مناسبة.

وبعد أن خرج فنسى من الحجرة سحبت أحد قمصانه وارتديتها ووقفت أمام النافذة ، وكان المشهد فى الخارج فى أقصى درجات البؤس التى يمكن تخيلها وكأن الشمس المشرقة تسخر من القبح الذى تحتها حيث لا شئ سوى الأراضى القاحلة والكلاب التى تتجول بحثًا عن طعام والنساء وهن يضربن السجادات ليزلن عنها التراب وكأنهن ينتقمن من معاناتهن بينما كان بعضهن يقفن فى الشرفات ينظرن للطريق كجنود الحراسة بأبراج السجون وهم ينظرون أسفل منهم إلى أفنية السجن المتربة ، ورجل ينظر لى وهو يلقى بعض القمامة على الأرض ، وتخيلته يتساءل قائلاً : أليس لديها بعض السجادات لتنفضها ؟ أو أرز ولحم لتصنع بعض أصابع الملفوف (المحشى) ؟

وعندما عاد فنسى ضحك قائلاً : أتتجسسين ؟

ولم أكن أخبرت فنسى شيئًا عن طبيعة عملى ، لكنه كان يفترض أن كل الأجانب جواسيس ولم يرانى أنا وايما واميلى إلا جزء من شبكة تجسس نسائية كبيرة .

وتمكن من قرآءة شعور الخزى الواضح فى عينى لمراقبتى جيرانه ، فقلت : سأنصرف .
فقال : أعرف .ثم ناولنى منشفة قبل دخولى دورة المياه التى حذرنى من أنها ليست لطيفة .
وبينما نحن بالقرب من الباب صاحت أمه بصوت عالى حاد وهى تخرج من المطبخ ملوحة بورقة نقدية وتأمر فنسى أن يشترى قهوة عندما يخرج ، ولم أشعر أينا شعر بالخزى أكثر ، لكنها عندما علمت أنى دبلوماسية أمريكية رحبت بى بشدة ، وربتت على شعرى واستحسنت جمالى ، وأنبت فنسى على عدم دعوته لى لتناول القهوة ، وحمدت الله أنى لم ألقى بنفسى من الطابق العاشر .وبينما نحن فى طريقنا للخارج أشار فنسى بلا مبالاة لباب جارته وقال : " تعيش هنا عاهرة أحيانًا ما تأتى لتناول القهوة عندنا . " وكانت هذه هى طريقته فى إثارة غيرتى.وسرنا فى طرقات لينين التى تشبه حى اليهود بألمانيا فى عهد هتلر ، وأمسكنى فنسى من زراعى وقادنى تجاه كومة من الحصى لم أكن أتخيل أبدًا لو أنى وحدى أنها محطة الحافلات ، وأسرع كلب أجرب للحاق بنا ، وعندما جلس الكلب المغطى بالدمامل والبثور بجوارنا قال فنسى مازحًا : يبدو أنه مضطر للإسراع إلى المدينة للحاق بموعد هام .

وقبل أن نصل إلى المسرح القومى قبلنى فنسى ، وأعتقد أنه بدا علينا وقتها أننا متحابين ، ووقفنا أمام المسرح ننظر إلى تمثال راقصة باليه قدمها كبيرة بصورة غير عادية .

ولم أتمكن من ابعاد عينى عن هذا التمثال الذى يرمز لامرأة رشيقة تحاول أن تنطلق نحو الحرية بينما قدمها الكبيرة تثبت جسدها الرقيق فى الأرض .

وأعتقد أنى لو لم أكن مضطرة للعودة إلى شقة اميلى لاصطحابها إلى الشيراتون لحضور حفلة هناك لوقفت أحدق فى هذا التمثال لساعات .

وعندما وقفت مع فنسى أمام المبنى الذى توجد به شقة اميلى انحنى نحوى ليقبل جبهتى وقال : أبلغى تحياتى للفريق .

وكان فنسى غيورًا من زميلاتى ومتشككًا فيهم ، وكان هذا الشعور متبادل بينهم بعد أن أصبح فنسى جزء آخر من حياتى لم أتمكن من الإندماج معه تمامًا .

واعتدت منذ لقاءنا الغرامى الأول ــ إن جازت تسميته كذلك ــ أن أقضى معه العطلات الأسبوعية فى الفترة التالية سواء بصوفيا أو سكوبجى ونحن نسير جنبًا إلى جنب متشابكى الأيدى ، ونتشارك فى أطباق البطاطس المقلية والجبنة ونشرب القهوة المركزة التى كان فنسى يضيف إليها ستة ملاعق من الكريمة ،

وأدركت أنى حصلت أخيرًا على صديق حميم ، ولم أبالى بما قاله لى الجميع عن عدم ملاءمته لى ، أما بالنسبة لى فقد كان فنسى يمثل نوع هادئ من الثورة ، بل أنى حتى ملأت الاستمارات والنماذج اللازمة فى الوكالة بخصوص هذا الشأن .
واندهش سكوت بشدة عندما ناولته الاستمارة التى تصف علاقتى بفنسى على أنها حميمة ، وقال: هل هى علاقة حميمة جادة ؟
وأملاً فى ألا أتعرض للمزيد من أسئلة سكوت قلت : " ليس تمامًا " ثم أضفت وكأنى أريد تبرير تصرفى " علاقتى به أشبه بعلاقتى بصديق أعرفه من سنوات طويلة " .
فقال : أتورطت مع البلغاريين ؟
ومنعتنى ابتسامته الودودة من الهجوم عليه ، وقلت فى شبه مزاح : لا تنسى أنه ممنوع علينا مواعدة الروس .
وكان سكوت الذى خدم بموسكو أثناء الحرب الباردة يعتبر أن أى شخص من كتلة أوروبا الشرقة هو تجسيد للشر ، ومنعنا صراحة كضباط ميدانيين من إقامة أى علاقة شخصية مع الروس .ووضع سكوت النماذج والاستمارات التى قدمتها له فى مظروف مكتوب عليه " سرى للغاية " على الرغم من إدراكى التام أن المعلومات التى تتعلق بحياتنا الشخصية ليس لها أى علاقة بهذه الصفة ، وقال : سأرسل هذه الأوراق إلى القيادة ،

ثم ننتظر ردهم.ولم يكن انزعاج سكوت من فنسى فى مثل مستوى انزعاج ايما واميلى اللتان نظرتا إليه باعتباره شخص يسمم حياتى ويدعوا للإكتئاب بالإضافة إلى استيلائه على وقت فراغى وذلك بعد أن قسمت أوقات العطلات الأسبوعية فى صوفيا فصرت أقضى أيام السبت مع فنسى والأحد مع الفتيات ، وكانت رفقته هى ما أحتاج إليه فقد كانت بساطة حياته تتناقض تناقض صارخ مع حياتى التى تزيد كل يوم تعقيدًا ، ووجدت فى صحبته بعض الراحة البسيطة غير المبررة .

* * * * * * * * * * *

ظننت أنه لن يتمكن أحد من إيجادى بقرية سفوج الواقعة فى الشمال الغربى من بلغاريا حيث ذهبت مع فنسى ، واشتهرت هذه المدينة بالشيكولاتة مما زاد من جمال جوها الأسطورى ، وكنت قد تقابلت مع فنسى قبل ذلك بساعة فى محطة قطارات صوفيا التى ازدحمت بكل المآسى البشرية كالآباء المكدودين الذين يحملون الحقائب الثقيلة ، وأطفال الشوارع الذين يشمون الغراء ، والعاهرات المدمنات اللاتى يبحثن عن الزبائن ، ثم ابتعدت عن هذه المناظر الكئيبة بمجرد

أن شق القطار طريقه وسط طريق رائع على جانبه نهر تحفه صخور جيرية .
ووجدت بسفوج نفسها جو من الهدوء ، وارتقى فنسى تلاً على حدود المدينة وتوقف عنده ليشترى خبز وشوكولاته وسمك معلب وبعض المعكرونة والشاى وعلب الجعة وعصائر للصباح بالإضافة إلى أربع بيضات وبعض الجبن ، وأمسك كيس البيض وحاول أن يحدثنى بانجليزية سليمة فقال : سنصنع بعد ذلك إفطار بعضنا .وكانت أخطاؤه فى الحديث بالإنجليزية تعجبنى ، وانبهرت بجمال منظر غروب الشمس والرياح السريعة التى قابلتنا ونحن نكمل صعودنا للتل الذى أضاءت الفيلل القليلة المتناثرة عليه كأضواء الزينة على شجرة الكريسماس ، وكانت فيلا أسرة فنسى هى أعلى فيلا على التل .
وبينما كان فنسى يتحسس جيوبه ليخرج منها المفتاح أزعجنا صوت رنين هاتفى الجوال الذى رن بصوت عالى ومزعج ، وكان الجو ظلام وليس بإمكانى معرفة المتصل لكنى خمنت أن يكون هذا الإتصال هام فأجبت عليه .
أتانى صوت سكوت من الطرف الآخر يقول : أيمكن أن أكلم اليزافيتا ؟وكانت هذه شفرة متفق عليها فى حالات الطوارئ

تعنى أنه يريد مقابلتى فورًا بأحد نواصى الشوارع الخلفية بسكوبجى ، فقلت بصورة تلقائية : الرقم خطأ .
وبمجرد أن أغلقت الخط أدركت حجم المشاكل التى سأعانيها لأنى لم أطلب إذن قبل السفر إلى بلغاريا ، فقد سافرت بدون تصريح من القيادة ودون أن أخبر سكوت على الأقل ، والآن يتوقع أن يرانى خلال ثلاثين دقيقة بينما بينى وبينه مسافة ساعتين بالقطار يليها ثلاث ساعات بالسيارة ، ولست فى حاجة للقول أن بينى وبينه مسافة دولة كاملة .
وقلت لفنسى : أريد هاتف عمومى ، وأريد العودة للديار .
فنظر لى كأنى مجنونة ، وقال : الآن ؟ !
قلت : نعم ، الآن .
قال : لكننا وصلنا للتو ولا توجد قطارات أخرى الليلة .
قلت : وماذا عن الهاتف العمومى ؟
ولابد أن فنسى لمح خيبة الأمل فى عينى فقال وهو يحك رأسه وكأنه إحدى الشخصيات الكرتونية : ربما نجد واحد فى مجمع سفوج التجارى .وأدركت أن هذا الموقف لابد وأن يؤكد شكوك فنسى حول كونى جاسوسة .

وزادت برودة الجو أثناء نزولنا من على التل واشتدت حلكة الظلام وزاد مع كل هذا قلقى ، وأحسست أنى أنهار لوجودى مع فنسى فى هذا المكان المنعزل وأنا فى ورطة كبيرة .
ووصلنا المجمع التجارى الذى لا يمكن لأحد أن يتوقع أنه مجمع تجارى ، واكتشفنا بطبيعة الحال أن الهاتف العمومى الوحيد لا يعمل ، وأعنى بذلك تحديدًا أنه كان هناك فراغ كبير فى كشك الهاتف فى المكان الذى يفترض أن الهاتف مثبت فيه .
ولم يوجه لى فنسى أية أسئلة إضافية بل أخرج علبة سجائره وظل يدخن بينما أنا أتصل بسكوت من هاتفى الجوال ، وكان هذا يمثل انتهاكًا شديدًا للتعليمات لا يقل عن اختفائى المفاجئ من مقدونيا بلا أثر ؛ لأنه يجب ألا يوجد أى شئ يمكن أن يربط بين سكوت ورقم هاتفى الجوال ، لكنى فعلت ذلك فى هذه اللحظة لأنى لم أجد أى حل بديل .
وفى النهاية قلت بصوت أجش : هل اتصلت باليزافيتا ؟
فقال فى اضطراب : نعم ؟
قلت : هى فى بلغاريا الآن .
فقال : حسن ....وأتبع هذا فترة صمت قبل أن يقول : أرجوا أن تطلبى منها أن تعود فى أقرب فرصة لأن الفوضى تضرب مقدونيا وربما تغلق الحدود قريبًا .

وبمجرد أن أغلقت الهاتف تنبهت إلى أن عيناى شاخصتان وأن فنسى ينظر إلى وكأنه ينظر لميته .
قلت وشفتاى ترتجفان : يجب أن أعبر الحدود بأسرع ما يمكن .
فأمسك فنسى بيدى وقال : سآتى معك .
فتراجعت خطوة إلى الوراء وقلت : لا ، كل شئ على ما يرام .
فنظر لى وهو يتفحص ملامح وجهى متشككاً .
قلت : ليس هذا بسببك ، هذا شأن يخصنى . الأمر معقد ولا يمكننى شرحه ، كل ما هناك أنى أريد أن أذهب .
فأمسك فنسى بيدى ثانية وقال : ألا يمكنك الإنتظار للصباح ؟
ولم تكن هناك أى قطارات متجهة لصوفيا فى تلك الليلة فتركت له يدى وعدنا نصعد التل فى صمت وبمجرد أن دخلت البيت غفوت على الأرض أمام المدفأة الخشبية التى أوقدها فنسى .
وعندما حل الصباح كنت غارقة فى العرق ورأسى مصدوع بشدة وحاولت جاهدة أن أتذكر ما إذا كان حديثى مع سكوت حلم أم حقيقة ، وغسلت وجهى بماء فى دلو وتسللت بحذر نحو الباب ، وعندما استيقظ فنسى كنت قد اختفيت .

* * * * *

كان بينى وبين الوصول إلى سكوت حوالى نصف يوم من السفر ، وعلى كل حال لم تغلق الحدود وتمكنت من العودة إلى

مقدونيا فى الوقت الذى قصف فيه الألبان أحد أقسام الشرطة المقدونية وأسقطوا خمسة قتلى على حسب تصريح المصادر الألبانية ، وعندما قابلت سكوت طلب منى أن أتصل بأحمد لإجتماع طارئ ، وقال : الطابق السابع يضغط علي بشدة لمعرفة تفاصيل ما يجرى ، قابلى عميلك واعرفى ما إذا كانت عنده أى معلومات إستخباراتية حول الخطوة التالية لجيش التحرير القومى .

وكان سكوت يتعامل مع القيادة وكأنها حماته ، وكنت على يقين من أن سكوت يعرف تمامًا مثلى أن أحمد ليس له علاقات وطيدة مع الثوار تسمح له بالإطلاع على خطط الهجوم القادمة ، وشككت فى أن أحدًا بالقيادة خمن كونى فى بلغاريا فى هذا الوقت مع صديقى الجديد وطلب استدعائى فقط كنوع من إحكام السيطرة .وكانت مقدونيا كلها فى هذا الوقت على حافة السقوط فى منزلق حرب أهلية كبيرة ، وبحلول الربيع زاد عدد الهجمات وتكالبت المصائب على البلاد حتى أن جيش التحرير القومى نجح فى الإستيلاء على قرية اراسينيفو الواقعة قرب العاصمة المقدونية سكوبجى ، ونمت هذه الليلة على أصوات إطلاق النيران وقصف المدفعية بالمرتفعات التى لا تبعد عنى كثيرًا .

وتلى ذلك ترحيل الحكومة الأمريكية لكل الرعايا الأمريكان الموجودين بمقدونيا باستثناء من أطلق عليهم مسمى " ضروريين لإنجاز المهمة " وعنى بهم ضباط وكالة الإستخبارات المركزية.
وبمرور الأيام أصبح وجودنا فى مقدونيا أكثر خطورة لزيادة النظرة العدوانية لنا من قبل الشعب المقدونى خصوصًا بعد أن رفضت الحكومة الأمريكية التدخل لإيقاف ما اعتبره المقدونيين السلافيين خطة إرهابية للإستيلاء على بلدهم واعتبروها قمة الإهانة ، ورأت القيادة المقدونية أن أمريكا سيطرت على بلادهم منذ أن سمحوا لها بإقامة قاعدة عسكرية داخل أراضيها بالإضافة إلى إجبار الولايات المتحدة لمقدونيا على استضافة الآف اللاجئين الألبان ، حتى أن فاسيل أحد متسلقى الجبال العدائيين قال لى فى أحد اتصالاته الأخيرة : ألستم تقولون أن الأفعال الحسنة لا تذهب بلا عقاب ؟
وهوجمت السفارة الأمريكية بسكوبجى مرتان من قبل الجماهير الغاضبة التى أحرقت سيارات الدبلوماسيين المصفحة وشوهت حوائط السفارة البيضاء الناصعة بالصلبان المعقوفة وبالكتابات التى تصف حلف الناتو بالنازية .
وبعد الهجوم الثانى وصلت فرقة من مشاة البحرية لحماية السفارة ، واعتدت كل يوم أثناء دخولى السفارة إلقاء التحية على

الجندى الذى يقابلنى فيرد علي باقتضاب " صباح الخير ياسيدتى " ، وبمرور الأيام أصبح اتصالى بجنود مشاة البحرية المحيطين بالسفارة هو الإتصال الوحيد بالعالم الخارجى بعد أن توقفت عن التحدث بالإنجليزية فى سكوبجى وقلت زياراتى لأصدقائى المقدونيين بالإضافة إلى أن الجبال المحيطة بسكوبجى سيطرت عليها العصابات الألبانية ، وقال لى جوشى بمرارة عندما تقابلنا بعد أسابيع من المقاطعة : لقد أفسدوا بلدنا ، وهذا تم بمساعدة أمثالك .ولم أعرف أبدًا كيف أرد على مزاعمهم خصوصًا وأنا أشعر أن مزاعمهم حقيقية ، وتعاطفت مع الثوار الألبان لا إراديًا لكنى كنت مدركة أن الألبان بارعين فى تملقنا واستدرار عطفنا والتلاعب بنا بحسن معاملتهم ؛ بينما المقدونيين يستغلون كل فرصة مواتية للهجوم علينا ، وبهذا كان الألبان ينوموننا مغناطيسيًا حتى نقف بجوارهم فى مواجهة السلافيين .

وحتم علي واجبى الدفاع عن السياسة الأمريكية ولذلك امتنعت عن الإتصال بالسلافيين ، وضايق هذا سكوت كثيرًا لأن القيادة كانت تضغط عليه بشدة للحصول على معلومات أكثر من كلا الجانبين

* * * * * *

لحسن الحظ أنى ارتديت ملابس جعلتنى أقرب شبهًا بالنساء المحليات بالإضافة إلى إغلاق فمى أغلب الوقت مما مكننى من الإندماج فى المجتمع ، وعلى الرغم من ذلك لم تنسى جارتى العدوانية أبدًا من أين أتيت ، وبحلول الصيف كانت قد امتنعت تمامًا عن الحديث معى .

وعدت للمنزل فى أحد الأيام بعد أن مر على ولادة القطة التى ربيتها أسبوعين لأكتشف أن القطة الأم ميتة وأولادها مبعثرين فى فناء المنزل أموات ، وأمسكت فى منتهى الأسى القطة الصغيرة الوحيدة التى لم تكن ماتت بعد وهى تتشبث بالحياة ، وانهارت دموعى من شدة الحزن ثم وضعت القطة الأم وقططها الصغار فى حقيبة لألقى بها .

وعندما أخبرت سكوت فى اليوم التالى بما حدث قال لى : لقد سُمموا ، ولاقت كلابنا مصيرًا مماثلاً .

وتأكدت من هذا عندما اكتشف الألبانى الذى يعتنى بحديقتى سم فئران بالقرب من طبق طعام القطة الأم ، وقدم لى بنوع من الفخر دليل الإدانة وهو حزين لحزنى ، ولم ألمح بعينه إلا نظرة حذر ألقى بها تجاه منزل جارتى .

* * * * *

أصبح التهديد المستمر باقتراب اندلاع أعمال العنف بمقدونيا فى غاية الرتابة على الرغم من الإستمرار اليومى للقصف وتفجير الشاحنات بالألغام الأرضية وإطلاق النيران بصورة عشوائية فى التلال المحيطة واستخدام العديد من القرى القريبة من الحدود كدروع لجيش التحرير القومى.

ولم يكن التجوال بسكوبجى ممتع بالنسبة لى ، وبزيادة تمسكى بالعزلة افتقدت ضوضاء المدينة المزعجة وعدوانية سكانها ، واكتشفت أنه على الرغم من أن أغلب سكان سكوبجى التزموا بالإقامة فى منازلهم ، ظل عدد من الأشخاص الذين لا يفعلون شيئًا — مثلى — يخرجون للشوارع .

وبتدهور الحالة الأمنية بمقدونيا توجب علي أن أكون أكثر حذرًا فى التأكد من عدم تتبعى ، لأن كل الشوارع — بما فيها الشوارع الكبرى — صارت محاطة بأكياس الرمال التى يقف خلفها الجنود المقدونيون ، وتجول الجنود المراهقون بالمدينة يلوحون فى عدم اكتراث ببنادقهم طراز AK-47 ، وكان من المستحيل التفكير فى قيادة السيارة خارج محيط العاصمة لتأكدى التام من التعرض للتوقف ؛ فلو لم يتم إيقافى من قبل الشرطة أو الجيش المقدونى فسيكون من قبل نقاط التفتيش العشوائية التى

أقامتها قوات جيش التحرير القومى بجنودها الأكثر احترافية وأقسى مظهرًا . وشاهدت مع اميلى عندما زارتنى بسكوبجى أحد التقارير الإخبارية التى نقلت عرضًا لإحدى كتائب العصابات الألبانية وهى تتحرك بخطوات عسكرية منظمة جدًا بإحدى المدن المقدونية المهجورة ، وحدقت اميلى فى الجنود الشباب بملامحهم القاسية وعيونهم الزرقاء الباردة وقالت : يا الهى إنهم أقوياء ، ما الذى يمكن أن يحدث ؟ !

وبالفعل استسلمت القوات المقدونية فى خزى واضح بملابسها المهلهله لقوات جيش التحرير القومى الأقوياء المنظمين .

* * * * *

كنت أظن أثناء التدريبات بالمزرعة أن التدريب على مواقع الإشارة مضيعة للوقت ، وأتذكر المرة التى كنت أتجول فيها بوليامسبرج لساعتين بحثًا عن مكان لأضع فيه صخرة مزيفة فى إطار أسلوب الإتصال مع العملاء عن طريق علامات الطباشير أو الطوب الملقى على الأرض أو بذور الزهور المبعثرة ، وبدت لى كل هذه الأساليب قديمة لا تمت للحاضر بصلة ولا تصلح إلا للضباط الذين كانوا يقومون بعملهم فى موسكو أو بكين حيث المخابرات هناك عدوانية ولا تعرف الرحمة لدرجة أنه من الخطورة ترتيب إجتماعات مع العملاء

وجهًا لوجه وشكوت أثناء التدريب لايثان قائلة: " لن نستخدم هذا الهراء أبدًا فى الحياة الواقعية " . لكن سكوت طلب فى اجتماعه الدورى بالضباط الميدانيين أن يتصل كل منا بأحد عملائه باستخدام أسلوب " موقع الإشارة " وحذرنا من استخدام الهواتف النقالة .وكانت إشارتى عبارة عن علامة بالفحم على سور بئر بالقرب من موقف السيارات الموجود بجوار المطعم المطل على المرتفعات فى بنتليمون الواقعة بالجانب الغربى من جبل فوندو قرب أحد الأديرة ، ويستنبط العميل من هذه العلامة رغبتى فى عقد اجتماع خلال 24 ساعة ، ويقوم العميل بالمرور بمنطقة العلامة كل يوم أحد وقت الغروب وكأنه ذاهب للدير ، وإذا رأى العلامة فإن هذا يعنى أنه يجب عليه مقابلتى فى اليوم التالى فى الساعة الخامسة صباحًا بمكاننا المتفق عليه .

وقررت أن أذهب لموقع الإشارة باستخدام الدراجة وكأنى أتجول بصورة عادية يوم الأحد ، وصحبت معى قطعة الفحم التى سأضع بها العلامة وظللت أتجول لحوالى الساعتين فى المدينة شبه المهجورة بعد أن أقيمت بالأمس جنازة لبعض القتلى من الجنود المقدونيين وبدت سكوبجى فى هذه اللحظة أكثر كآبة وخالية من السكان أكثر من المعتاد .

وبعد أن تأكدت بصورة شبه يقينية من أننى لست مراقبة بدأت فى شق طريقى تجاه بنتليمون ، ولمحت فجأة طائرة مقاتله مقدونية ــ اندهشت لمعرفة أن بمقدونيا عدد من هذه الطائرات المقاتلة ــ تخترق الجو فوق رأسى فأحسست باقتراب الخطر وانحرفت تجاه بعض الشجيرات وسقطت تحت دراجتى ، ثم كافحت للوقوف على قدمى مرة ثانية وعدت لقيادة الدراجة حتى وصلت لنقطة التفتيش الموجودة أمام فندق بانوراما فوجدت الطاقم الأمنى المعتاد يجلس أمام مائدة ويتناول الطعام ويشرب القهوة فلوحوا لى بلا اكتراث .

وتألمت قدمى بشدة من القيادة فى الطريق المتعرج ، لكن بمرور الوقت أصبح الهواء منعش والجو هادئ وتأكدت من أنى لست مراقبة ، وبمجرد اقترابى من وسط فوندو التى تبعد أميالاً عن المدينة الكئيبة لمحت ثلاث جنود يقفون فى منتصف الطريق وهم يرتدون الزى العسكرى المموه ويحملون شدة عسكرية ثقيلة ، وكان مظهرهم يوحى لمن لا يعرفهم أنهم عصابات متمردة ، لكن بالنسبة لى لم يكونوا أكثر من بعض الرعاع الذين يتألف الجيش المقدونى منهم باستثناء أن هؤلاء الشباب بدا عليهم الإستعداد لإطلاق النيران ، وكان أحدهم طويل ونحيف وهزيل ، والثانى لا يزيد عمره بأى حال من الأحوال عن السابعة عشر

، والثالث ــ أبشعهم مظهرًا ــ قصير وذقنه غير محلوقة وله كرش كبير وعلى رأسه ربطة مموهة تحمل صورة تشى جيفارا ، وباقترابى منهم لمحت علم مقدونياعلى جانب سترة الطويل وعلى عصابة رأس القصير .
وخمنت ــ من خلال المظهر العدوانى لهؤلاء الجنود الثلاثة والغير معتاد من القوات المقدونية ــ أنهم ثوار تابعون لجيش التحرير المقدونى قتلوا ثلاثة من جنود الجيش المقدونى وتنكروا فى زيهم ، ولعدم تأكدى من هوية الرجال قررت العبور بجوارهم دون أن أنطق بكلمة واحدة ، وعندما مررت بالقرب منهم قال الشاب الصغير شيئًا لم أفهمه وانخرط الآخرون فى الضحك .ووصلت بعد حوالى نصف ساعة إلى موقف سيارات بنتليمون فتوقفت بجوار البئر لأشرب جرعة ماء وأسقطت فى منتهى الحذر قطعة الفحم من جيبى ورسمت بها علامة على سور البئر ، ثم التفت قاصدة طريق العودة .
وكنت قد نسيت تمامًا الجنود الثلاث الذين قابلتهم فى طريقى ، لكنى عندما عدت أدراجى لمحنى القصير أقترب فتسللت المجموعة للإختباء خلف الأغصان الموجودة على جانب الطريق . وأحسست أن هؤلاء الشباب عازمون على قتلى فزادت ضربات قلبى وأسرعت قدماى فى التبديل وجسدى يهتز

بعنف واقتربت من الشجيرات فقلت : " معذرة " ، لكنى لم أسمع منها إلا صوت حفيف الأشجار وسمعت صوت زناد سلاح يتحرك فنزعت عنى كل ملامح التحضر وقلت " .... " وكانت هذه العبارة من السباب المقدونى المعتاد سماعه لكنها لا تحمل معناها اللفظى بل تدل على الألفة بين الأصدقاء ، وقلت: " بحق الجحيم ما الذى تفعلونه أيها الشباب ؟ "
واندهشت وأحسست بالراحة أيضًا عندما خرج الثلاثة من خلف الشجيرات فى صمت يتقدمهم الشاب القصير قبيح المظهر وهم فى غاية الخزى من شعورهم أنهم كانوا على وشك إطلاق النيران على فتاة تقود دراجتها واعتذروا كلهم لى ، لكن تأنيب ضميرهم أجج غضبى فأشرت فى انفعال لقميصى الذى يحمل صورة ميمى ماوس لأوضح لهم مدى سخافتهم وقلت : " أيبدوا مظهرى أشبه بجنود جيش التحرير القومى؟ "
فقال الصغير قبيح المنظر : ألنت واحدة منا ؟
فقلت وأنا أعلم أنى سأدخل نفسى فى مأزق : لا ، أنا أمريكية .
قال : إذًا فأبواك مقدونيان ؟
قلت : لا ، والداى أمريكيان .
فتقدم منى الطويل النحيل الذى كان يقف بالخلف ومد لى يده وقال بالإنجليزية : أنا تونى .

ولمحت فى أذنه قرط فأحسست براحة مفاجأة لأن هذا القرط الفضى الصغير دلالة على أن هؤلاء الشباب ليسوا أكثر من أطفال متخبطين .

فقلت وأنا متأكدة من أن كلامى معهم سيكون آخر اتصال إنسانى فى هذه العطلة الأسبوعية : سررت بالتعرف عليك ياتونى ، ظننت أنكم كنتم توون قتلى .

وقدم لى تونى زميلاه مشيرًا إلى القصير باسم التنين وللآخر باسم مينكو ، وتصافحنا وكأننا تقابلنا للتو فى إحدى حفلات الكوكتيل بدلاً من الإختباء خلف الشجيرات ببنادق AK-47.

وقال تونى : كنت أعمل مع أمريكى ، أتعرفين السيد جو فورزانى ؟

فهززت رأسى قائلة : لا .

فهز رأسه فى دهشة وخيبة أمل وقال : ماذا تعملين على أى حال ؟

فقلت بعدم ارتياح : دبلوماسية .

فقال : أعنى أنك لا تبدين أمريكية فلست طويلة ولا شعرك أشقر أو شئ من هذا القبيل .

قلت وأنا أضحك : لابد أنك تشاهد الكثير من الأفلام الإباحية .

فضحك التنين وميتكو لذكر الأفلام الإباحية وقال التنين :
يالروعة هذه الأفلام !
ونظر لى تونى فى تشكك وقال : إذًا أنت لست مقدونية ؟
فقلت محاولة لفت انتباه الشباب للتعدد الثقافى بأمريكا : أتت
أسرة أبى من ايرلندا ، وأسرة أمى من روسيا ، ولذلك فأنا
نصفى كاثوليكى ونصفى يهودى .
فنظر تونى لزملائه وقال وكأنه كسب رهانًا : أرأيتم هذه المرأة
أمريكية نموذجية (يهودية ايرلندية) .
وكنت أتساءل فى هذه الأثناء عما إذا كان هؤلاء الشباب الثلاثة
من بين من قذفوا السفارة الأمريكية بالحجارة وأشعلوا النيران
فى السيارات الدبلوماسية ؟ !
وصاح التنين فجأة فى زملائه فعادوا للإختباء خلف الشجيرات
وتلفت حولى خوفًا من أن أسقط وسط تبادل إطلاق نيران
وأسرعت فى طريقى ، وجاءنى صوت تونى ينادينى قائلاً :
انتظرى من فضلك ياسيدتى ؟
وترك تونى مكانه وأسرع نحوى وقال وهو يشير للتلال حوله :
عندما تنتهى هذه الفوضى أرغب فى الحصول على تأشيرة
للولايات المتحدة ؛ فأنا أيضًا نصفى يونانى ونصفى رومانى
لكنى مقدونى .

وأحسست أنه قال ذلك ظنًا منه أن الامتزاج الثقافى له نفوذ خاص .

قلت : عليك أن تذهب للسفارة الأمريكية لكنى لا أظن أنهم يصدرون التأشيرات هذه الأيام خصوصًا بعد الهجمات التى حدثت على السفارة .

قال تونى : سبق وأن عملت مع الألبان ، لقد كنا نعمل معهم فى كوسوفا ولى العديد من الأصدقاء المسلمين .

قلت : والآن ؟

قال : والآن أنا جندى ، هم يقتلوننا الآن ونحن يجب أن نقتلهم .

وتذكرت طلب سكوت الحصول على معلومات من المتطرفين المقدونيين فقلت : لكن ما الذى تفعلونه بفوندو ياشباب ، أعنى أتتوقعون حدوث شئ ما ؟

فقال : نحن نتوقع كل شئ دائمًا ، ونظل دائمًا مستعدين .

ثم سكت للحظة نظر إلي فيها وقال : على كل حال ، ماذا تتوقعين بخصوص الحصول على التأشيرة ؟

قلت : قابلنى غدًا فى نفس هذا الوقت وفى نفس المكان .

وانصرفت وأنا أفكر فى إخبار قيادتى بنبأ الوصول إلى هذا الكنز المعلوماتى الهام .

* * * * *

الفصل العاشر

تعطلت سيارتى ببلغاريا فقررت الذهاب لمقدونيا بالحافلة لأقابل تونى عميلى الجديد ، ودفع تعطش اميلى للمغامرات إلى المجئ معى .ولم تكن حال محطة الحافلات الرئيسية ببلغاريا أقل بؤسًا من محطة القطارات الرئيسية التى لا تبعد عنها إلا حوالى مائة ياردة ، وكانت الحافلات التى تعمل فى خط

(صوفيا ــ سكوبجى)

مملوكة لشركة تحمل ــ لسخرية القدر ــ اسم " الأمل " ، وكان منظر الحافلة الخارجى يدل على أنها سيارة خرجت من الخدمة ، وكان منظر السيارة فى غاية الكآبة بسبب كثرة الأوحال التى غطتها والطلاء الباهت والأبواب الصدأة ، والإطارات المرتخية من ثقل حمولتها .

ولم يكن داخل الحافلة أفضل حالاً ؛ فالنوافذ فى غاية القذارة بدرجة تحجب الرؤية تمامًا ، ورائحة الأجساد المحيطة بك كفيله لأن تجعلك تتراجع لمسافة عشرين قدم .

وجلست مع اميلى فى مقعدين بمؤخرة الحافلة ، وبعد دقائق جاءت امرأة بدينة جلست على المقعد المواجه لنا ومعها حقيبة ملابس ضخمة ، وبمجرد أن جلست خلعت ملابسها كلها حتى

صارت بالملابس الداخلية فقط ثم فتحت حقيبتها وبدأت تخرج ما بها من ملابس وترتديها القطعة تلو الأخرى .

وعندما انتهت من ارتداء كافة الملابس كان عليها ما لا يقل عن عشر قمصان وأربعة أو خمسة سترات جلدية وعدد مماثل من السترات العادية والعديد من السراويل ، وصارت المرأة أسمن مما سبق لدرجة أنها تحركت بصعوبة فى ممر السيارة لتصل إلى الباب وردفاها يهتزان بشدة ويخبطان المقاعد المحيطة بكلا الجانبين وكأنها ترقص رقصة جاز أمريكية .

وتبادلت مع اميلى النظرات ونحن ندرك تمامًا أن ما شاهدناه هو تجهيز لعملية تهريب من قبل إحدى صغار المهربين .

* * * * *

اكتشفت بمرور الوقت أن كل من بالحافلة مهربين صغار باستثنائى أنا واميلى والسائق ، وبدأ الركاب يخرجون بضائعهم ويعيدوا توزيعها على بعضهم بحيث لا يحمل شخص واحد كميه كبيرة من نفس السلعة ، ولابد أن حرس الحدود عمى وصم وبكم لئلا يعرفوا ما يدور ، وأظن أن أغلبهم يتلقى الرشاوى بصفة دورية لدرجة أنى تخيلت هذه العمليه التى تتم فى السيارة شكلية أكثر منها موضوعية .

وقبل وصولنا كوستنديل التى تقع على الحدود البلغارية الغربية توقفت الحافة عند موقف كئيب بجانب أحد الطرق وفتحت الأبواب وركب عدد كبير من الركاب بشعى المظهر فحياهم الركاب القدامى بحرارة وهتافات وربتات على الظهور تدل على معرفتهم لهم .وكان من بين الركاب الجدد امرأة بدا من مظهرها أنها إحدى زعمائهم ، وبدأت هذه المرأة بمجرد صعودها توزيع عدد من زجاجات الخمور على من حولها ، وبعد أن انتهت من الخمور عرفت نفسها لى باسم ناتاشا وهى تدس زجاجات العطور الغالية بين المقاعد وفى ظهرها وساعدها فى ذلك اثنين ؛ رجل أشعث مخمور تمامًا وامرأة ذات شعر أحمر مجعد .
وانتهوا أخيرًا من عملهم فجلست ناتاشا والمرأة ذات الشعر الأحمر فى المقعد الذى أمامنا وجلس الرجل المخمور خلفنا ، وأحسسنا أننا محاطون بأبخرة الكحول ، وظل الرجل المخمور يتمتم فى غضب لشخص تخيلى يجلس بجواره ، وحاولت ناتاشا أن تتملقنى أنا واميلى لنسمح لها بأن تضع بعض زجاجات العطور بحقائبنا فتظاهرت اميلى بالنوم وتظاهرت بعدم فهمها حتى ملت ناتاشا فلوحت بيداها فى اشمئزاز .
وتوقف السائق بعد قليل بالمنطقة الحرة ونزل المهربون ليشتروا المزيد من زجاجات الخمور والبضائع الأخرى تحت سمع

وبصر الشرطة التى تظاهرت بالصمم والبكم والعمى ، ثم عادوا إلى الحافلة يخبئون المشتروات الجديدة .

وتوقفنا بعد ذلك على الجانب البلغارى من الحدود لقرابة الساعة حتى يتم الإنتهاء من فحص جوازات سفرنا ، وأعاد الشرطى لنا الجوازات بأن أعطاها للشخص الذى تصادف وجوده بأحد المقاعد الأمامية بالحافلة ليوزعها علينا ، وأثناء التوزيع العشوائى لجوازات السفر غمرت المهربين مشاعر الدهشة والتعجب عندما اكتشفوا أنى واميلى أمريكيتان ، وتجمعت جمهرة حول الرجل الذى أعلن هذا الإكتشاف وانحنوا على جوازات سفرنا يتفحصونها وهم يبدون إعجابهم بمظهرها وجودة الخامات المصنعه منها لدرجة أن ناتاشا رفعت جوازات سفرنا فى الضوء وكأنها تتأكد من أنها ليست مزيفة .

وبينما كنت أنظر باكتآب إلى جواز السفر الذى أعيد لى باليًا ومتسخًا ؛ وكزتنى اميلى بمرفقها وأومأت لرجل يمد رأسه الأقرع فى الفراغ الموجود بين مقعدينا وهو يضع إصبعه بأنفه وينظر لنا بعيونه الغريبة بحماقة وبلاهة لم أراها أبدًا فى حياتى وبعد انتهاء التفتيش الصورى للحقائب عادت الحافلة تخترق طريقها بين الحدود البلغارية والمقدونية غير المأهولة لساعتين زادت فيها نظرات الأبله بلاهةً وزاد فيها السكران سكرًا على

سكره لدرجة أن صبر اميلى أوشك على النفاذ وتوسلت لى أن أستخدم صفتى الدبلوماسية لعبور الحدود .
وكنت أسافر بجواز سفر عادى وأحتفظ فى نفس الوقت بجواز سفر دبلوماسى مخبأ بحقيبتى الصغيرة لاستخدامه فى حالات الطوارئ ، وقالت اميلى فى محاولة لإيجاد بعض المقترحات :
يمكنك أن تدعى أنك كنت تقومين بتفحص أمنى للحدود ، ويمكن أن تقولى أن لديك موعد هام الليلة مع السفير .
وتمنيت لو أن بإمكانى أن أخبر اميلى أنى لست فى الحقيقة دبلوماسية . وكان الوقت متأخر وليس من المتوقع ــ بسبب بطء الحافلة ــ أن نصل سكوبجى قبل منتصف الليل ؛ أى بعد موعدى المتفق عليه مع تونى ، وكنت شغوفة قدر شغف اميلى للإسراع فى الوصول ، وأخيرًا ذهبت لمقدمة الحافلة وأيقظت السائق الذى كان نائمًا يشخر ، وقلت له : ما المشكلة ؟
ففرك السائق عينيه بشدة وقال منزعجًا : شرطة ؟
قلت : لا ، أنا دبلوماسية .
وأريته وثيقة سفرى الدبلوماسية التى أخرجتها من مخبأها السرى وقلت : أتظن أنهم يمكن أن يسمحوا لنا بعبور الحدود بسرعة لو أنى ذهبت للتحدث معهم ؟

فهز السائق كتفيه وتثاءب فى تثاقل وكأن بصحبته رفقة من المراهقين وقال : إنهم لا يفهموننا .
وتجمع فى هذه الأثناء خلفى العديد من الركاب ليسمعوا الحوار الذى يدور بينى وبينى السائق واتفقوا معه فى عدم جدوى أى محاولة للتأثير على شرطة الحدود ، وانغمسوا فى الهمهمة والثرثرة حول عدم عدالة الحياة ، وبدا أنهم اعتبرونى أنا واميلى جزءًا منهم .وبعد أن أصبحنا أخيرًا على الجانب المقدونى من الحدود أتى أحد الموظفين وطلب جوازات سفرنا فناولته هذه المرة جواز سفرى الدبلوماسى فعاملنا الموظف بطريقة أفضل من الآخرين بأن سمح لى ولاميلى بالبقاء بالحافلة بدلاً من النزول مع بقية الركاب والوقوف فى البرد القارس ، وصعد موظفى الجمارك لفحص الحافلة وتجاهلوا عشرات الزجاجات المخبأة بين المقاعد ووسط الحقائب بطريقة واضحة وكأنها بيض عيد الفصح .وبمجرد أن عاد الجميع للحافلة أدركت مدى براعة ناتاشا فى التهريب عندما انحنت لتخرج الزجاجة تلو الأخرى من جوارى أنا واميلى والتى لم نكن لاحظناها وهى تدسها لدرجة أنى توقعت أن ألمح زجاجة عطر بين ملابسى عندما أذهب لفراشى .

لكنا كنا قد عبرنا الحدود للتو وبينى وبين التفكير فى الفراش ساعات طويلة ، ولأن السائق كان فى غاية الشوق إلى الوصول لسكوبجى فى أقرب وقت كان يقود السيارة بأقصى سرعة ممكنة لدرجة أنى كنت أشك أنه نام على عجلة القيادة ، وكانت انعطافاتنا بين الجبال هى الدليل الوحيد على عدم صحة ظنونى وزاد هياج الرجل السكير فأخذ يصب اللعنات والسباب البذئ على المرأة ذات الشعر الأحمر ثم انتقل لى ولاميلى وأمطرنا بوابل من أقذع السباب فتظاهرنا بالنوم ، وبعد قليل توقف الرجل عن السباب وذهب إلى المقعد الذى أمامنا حيث تجلس ذات الشعر الأحمر وتودد إليها معتذرًا فأشاحت له وكأنه ذبابة لكنها فى النهاية عانقته بعد أن فقدت القدرة على إبعاده .

وتجاهل السائق التوقف الروتينى لتناول العشاء حتى أتمكن من اللحاق باللقاء العاجل بالسفير الأمريكى ، لذلك وصلنا سكوبجى ونحن نتضور جوعًا فتوجهنا إلى أحد محلات مكدونالدز حيث قابلنا العاملون بابتسامة ودودة وبدأوا تسخين الدجاج المقلى وأعادوا توصيل قابس الكهرباء لماكينة خفق البيض باللبن ، وكانت محلات ماكدونالدز بسكوبجى هى المكان الذى أرتاح فيه أكثر من السفارة الأمريكية نفسها .

وجلست فى هذا المكان المريح واميلى إلى جانبى وبفمى سندويتش هامبورجر فارتخى كتفاى وقل إحساسى بالضياع وبدأت أفكر فى تونى .

* * * * *

أتى أخيرًا التدخل الأمريكى الجاد فى الأزمة المقدونية فى صورة المبعوث خاص جيمس بدرو .

وظل بدرو طوال أشهر الصيف يشرف على المفاوضات بين المقدونيين السلافيين والقادة الألبان بأحد المنتجعات السياحية قرب بحيرة أحريد حتى تمكن فى النهاية من صياغة اتفاق سلام هش بين الحكومة المقدونية وجيش التحرير القومى ، وحل صيف عام 2001 على سكوبجى بإحساس من الهدوء الغريب وغير المتوقع .

ووصل المحللون السياسيون المختصون بشئون منطقة البلقان بوكالة الإستخبارات المركزية إلى إجماع على أنه إذا حدث اندلاع أعمال عنف بمقدونيا فى المرحلة التالية فإنه لن يكون من قبل جيش التحرير القومى ولا أى من المجموعات الألبانية الثورية بل من الأسود .

وكانت الأسود ميليشيا عسكرية تتكون من ضباط شرطة من عدة قوميات مقدونية وأغلبهم مجرمين سابقين ، ورئيس الأسود

هو لجوب بسكوفسكى وزير الداخلية المقدونى الذى أخذ على عاتقه مهمة حماية مقدونيا من أجل المقدونيين واكتسب لقب " ميلوسوفيتش الصغير " ، وتغاضى بسكوفسكى عن الغارات التى كانت تشنها قواته على المدنيين وعن عمليات قطع الطرق التى كانوا يقومون بها ، وبالإضافة لذلك كان الأسود مسلحين تسليح جيد ويُدفع لهم بسخاء .

وكانت هناك بالإضافة لميليشيا الأسود ميليشيات أخرى مثل ميليشيا النمور التى تشكلت من فرق أخرى من الشرطة المقدونية وميليشيا الذئاب التى كانت من نخبة من قوات العمليات الخاصة بالجيش ، أما ميليشيا العقارب فلم يعرف أحد طبيعة توجهاتها على وجه التحديد ، وكشفت هذه التسميات الطفولية للمملكات الحيوانية مدى انحطاط المستوى الأمنى بالبلاد .وألح علي سكوت بشدة للقيام بتجنيد شخص من هذه المجموعات وقال : على الرغم من أننا نعرف كل شئ عن الألبان إلا أننا لا نعرف أى شئ عن القوميات السلافية .

ولحسن الحظ أن تونى ــ طالب التأشيرة بجبل فوندو ــ كان له صديق حميم من الأسود .وعندما ذكر تونى صديقه ديمى المتعصب ذات ليلة ونحن نشرب الويسكى قلت له : أريد أن

أقابله ، نحن نعرف أن الأسود هم من خططوا للهجوم على السفارة الأمريكية وأنهم يكرهوننا بشدة لكنى أريد أن أفهم السبب فقال تونى الذى كان تركيزه منصب دائمًا على الحصول على التأشيرة : لا توجد مشكلة ، يمكنك أن تقابليه فى الحفلة التى سنقيمها فى عطلة نهاية الأسبوع .

قابلت تونى وديمى وزوجته سنيزنا ــ التى بدا عليها أنها حامل ــ فى مساء السبت أمام مجمع ترجوفسكى التجارى الذى يعد نواة العلاقات الإجتماعية بسكوبجى .

وكان ديمى سمين له كرش مترهل ويلبس خاتم بلاتينى كبير وسلسلة ذهبية ولاحظت عليه شعار الأسد ، وبدا على سنيزنا أنها قد تنجب طفلها فى أى لحظة .

وحدث التردد المعتاد فى اختيار حانة الشراب التى سنقصدها بمجمع ترجوفسكى التجارى ، وفى النهاية وافق ديمى وتونى على الذهاب إلى الحانة التى تحمل اسم (روما ــ باريس) ، وطلبت أنا وتونى وديمى أكواب الجعة بينما أشعلت سنيزنا سيجارة وطلبت كأس فودكا مزدوج ، وكان ديمى فى غاية السرور لوجود أمريكية مستعدة للإنصات اللامتناهى لوجهة نظره ، واعترف لى بمنتهى الفخر أنه يقود وحدة الأسود بمنطقته التى تحمل اسم كسيلا فودا والتى تعنى حرفيًا

(المياه النتنة) ، وكان فى غاية السرور لإنصاتى له وهو يحدثنى عن قصة حياته التى اشتملت على بعض الغارات خلف الحانات " لإغضاب المخطئين "

على حسب وصفه ، وذكر لى أن بسكوفسكى عرض عليه شخصيًا العودة للشرطة فى النظام الجديد الذى يحمل اسم الأسود وأخبرنى بمدى امتنانه بهذا العرض .

وقال : وكما تعرفين فإن عندى بعض الخبرة ، وعلى كل حال فإن تونى أخبرنى أنك دبلوماسية وأنك مهتمة بمعرفة طبيعة نظرتنا للأمريكان .

قلت : نعم فالعديد من المقدونيين لا يحبون لقاء أمثالى .

قال : حسنًا ، دعينى أخبرك .

وانحنى نحوى وقال : أنتم تصنعون فوضى كبيرة فى هذه البلد واسترخى تونى فى مقعده وعلى وجهه نظرة رضا وكأن ديمى قال بالنيابة عنه كل ما كان يتحرق شوقًا لقوله دون المخاطرة بفرصة حصوله على التأشيرة .

وقال ديمى : مساعدتكم لهؤلاء الألبان تشبه تمامًا قيامكم بإرسال أموال مباشرة لأسامة بن لادن.

واندهشت لمعرفة ديمى بأسامة بن لادن فى الوقت الذى كان أغلب الأمريكان لا يعرفونه ، لكن أهل البلقان كانوا يعرفون

المنشق السعودى الذى يمول جيش تحرير كوسوفا وكذلك الثوار الألبان الذين يفترض أنهم تلقوا تدريباتهم العسكرية بمعسكرات تنظيم القاعدة قبل أن ينال أسامة بن لادن شهرته الحالية ، وكان القليل من المقدونيين المتيقظين أمثال ديمى يعتبرونه مصدر تهديد خطير .وبدأ ديمى يسكر بعد الكأس الثانى ففكرت فى التحاور مع سنيزنا التى كانت تجلس فى صمت وقلت لها : متى ستضعين طفلك ؟فابتسمت ووضعت كأس الفودكا المزدوج من يدها بعد أن تجرعت آخر ما به وقالت : فى أية لحظة خلال هذه الأيام .وكان من المربك الثرثرة مع امرأة حامل على حافة الولادة فسألتها : أستذهبين لمستشفى سنترالنا بولنيكا ؟

قلت هذا مشيرة للمستشفى الرئيسية بسكوبجى التى تشبه مبانيها أحد المصانع أكثر من كونها مكان للعلاج أو الولادة وأحسست أن الأمر برمته أشبه بمشهد من رواية أوليفر تويست .

فقالت سنيزنا بانجليزية ركيكة : لا ، سأذهب إلى مستشفى خاصة حديثة . فقال ديمى وهو متضايق لبعد محور الحديث عنه : هذا المكان مكلف جدًا .

فقلت فى مرح : على كل حال أنا متأكدة من أن هذا المكان يستحق هذه التكلفة .

قالت سنيزنا وهى تلقى لزوجها نظرة خبيثة : يعتقد ديمى أنها مضيعة للمال . ورغبت فى ألا أنجرف إلى خلافات عائلية فاستأذنت للذهاب لدورة المياه ، وعندما عدت كان ديمى يدفع الحساب وقد قرروا نقل الحفلة إلى إحدى الحانات التى تشبه صالات الديسكو .وعندما اعترضت على هذا التفكير لأن هذا لن يكون ملائمًا للجنين كنت أفكر حقًا فى مصلحة سنيزنا ، لكنها ربتت على بطنها وقالت : لا توجد مشكلة فهو نائم الآن .

وذهبنا إلى الحانة التى لم تكن تشبه صالة الديسكو ، فقد كان الدخان والضجيج يملآن جوها واكتظ المكان بأناس تتراوح أعمارهم من سن الخامسة عشر إلى الخامسة والخمسين ، ولأن ديمى يعرف مالك المكان أُجلسنا فورًا على المائدة المغطاة بقماش ثقيل وعليها لافتة " محجوز " وفى طرفها اسم ديمى ، ومرة أخرى شارة الأسد .

وبمرور الوقت أصبح من الصعب علي سماع ما يقوله ديمى لكنى خمنت أنه لا يقول شئ جديد عما قاله من قبل ، وانضم إلينا عدد من أصدقاء ديمى بعضهم أسود ومعهم نمر وذئبان وعقرب واحد ، وأحسست بمدى الفخر الذى سيشعر به سكوت وأشار ديمى بإعجاب إلى الشاب الضخم الأحمق الذى يتبع جماعة العقرب وقال : هذا الشاب جزء من قوة الردع السريع

التابعة لنا .واحتشد حولنا عدد كبير من أصدقاء ديمى وأغلبهم يضع على جسده الأوشام ويعرفون بعضهم البعض معرفة جيدة ، لكن بدا عليهم الإرتباك بسبب وجودى بينهم .

وبعد قليل انضم لنا مالك المكان الذى قدمه لى ديمى باسم فريدى ووصفه بأنه أحد رجال الأعمال المهمين .

وقال فريدى فى تكشيرة : ما تكلفة الحصول على تأشيرة لأمريكا ؟ثم فرقع بأصابعه وقال : أنا أدفع الكثير .

ومنعتنى الموسيقى الصاخبة من سماع أغلب ما يقال لكنى فهمت أن فريدى يمتلك مطعمًا دعانى للعشاء فيه فى الأسبوع القادم .

فقلت : عظيم .وتخيلت مدى سعادة سكوت عندما يعلم هذه الأخبار بالإضافة إلى القيادة التى ستبتهج كثيرًا بشبكة علاقاتى الإجتماعية الجديدة .وبدأت أشعر بالملل من هذا الوضع كلية ولفتُ انتباهى لسنيزنا التى كانت تغفو تحت سحابة من دخان السجائر ، وفجأة اقتحم المكان عدد من ضباط الشرطة فتوقفت الموسيقى وأضيأت الأضواء وصاح أحد أفراد الشرطة الذين اقتحموا المكان قائلاً : أخرجوا بطاقات هوياتكم ، وإذا كنتم تحملون أسلحة ضعوها على المائدة .

وأطاع الجميع الأمر ــ بمن فيهم رفقتى ــ بمنتهى الهدوء ، ومد كل شاب يده إلى جيب سترته ليخرج منها سلاحًا ، وكنت

من بين القلائل الذين لا يحملون سلاح ، وتجمعت على مائدتى كومة أسلحة وبينها بعض القنابل اليدوية ، وكان الوضع متشابه على بقية الموائد . وأخذ رجال الشرطة يتجولون بالمكان ويتفحصون الهويات ويدققون بها ، ولم يصادروا أيًا من الأسلحة ، وعندما وصلوا لمائدتنا صافحوا الجالسين عليها بمن فيهم أنا ولم يطلعوا على بطاقات أى منا أو يلقوا بالاً لترسانة الأسلحة الموضوعة على مائدتنا .

وانتهى عمل رجال الشرطة فانصرفوا وأطفأت الأضواء وعادت الموسيقى تصدح ، وانحنى ديمى نحوى وقال : هؤلاء الشباب أسود سربيين يعملون تحت قيادتى .

وهممت بالإنصراف وناولت ديمى بطاقتى وقلت له : هذا هو رقم هاتفى ، اتصل بى لنتقابل ثانية .

* * * * *

أنجبت سنيزنا طفلة متعافية صحيًا تمامًا ، واتصل بى ديمى فى اليوم التالى لحضور عشاء بمطعم فريدى يوم الجمعة ، وكانت اميلى قد عادت فى هذا الوقت إلى بلغاريا ، بنما ظلت ايما للبقاء معى هذا الأسبوع ، وبما أن هذا اللقاء تمهيدى قررت أن أصطحبها معى .

وقال ديمى : من الجميل أنى سأترك زوجتى بالمنزل .

وعندما أخبرت ايما أنى أنوى أن أتناول العشاء مع ديمى بمطعم فريدى قالت : هل هؤلاء الشباب أصدقائك ؟

قلت : ليس تمامًا ، كل ما فى الأمر أنه من الجيد لى أن أوسع دائرة علاقاتى . فضحكت ايما وقالت : أتمنى لو أن بامكانى أن أعرف ما الذى تفعلينه بالضبط .

قابلنا ديمى أمام مجمع ترجوفسكى التجارى وركبنا سيارته الـــ BMWوانطلقنا إلى مطعم فريدى ، ووصلنا المطعم الذى كانت تسميته مطعمًا مجاز لغوى بسبب كآبة منظره وتذكرت أنى التقيت بأحد عملائى من قبل بهذا المطعم .

ودخلنا المطعم الذى علا نافذته الوحيدة العلم المقدونى بألوانه الحمراء والصفراء فوجدنا المطعم متوهج الإضاءة وبه أربعة موائد وحفنة من الرجال يلبسون ملابس العمال يجلسون بجوار زجاجات خمور وجعة فارغة ، وخلف ركن الشراب خريطة كبيرة لمقدونيا القديمة التى تضم بالطبع بعض من أراضى الدول المجاورة . ووقف فريدى فاردًا زراعاه لتحيتنا وألقى نظرة شهوانية إلى ايما ثم أخذ يدها وقادنا للمائدة الغير مشغولة ونادى على النادل الشاحب ليحضر لنا طلباتنا .

وطلبت راكيجا مثل ديمى بينما طلبت ايما كأس نبيذ أبيض مما أثار ــ فى صمت ــ سخرية المقدونيين ، وانضم إلينا فريدى ورجل آخر عرف لنا نفسه على أنه مدير حديقة الحيوانات . وكان من الصعب أن أرحب بمدير حديقة الحيوانات بحرارة بعد الزيارة الوحيدة التى قمت بها إلى الحديقة مع فنسى لأن الحيوانات كان من الواضح تمامًا أنها لا تتناول أى تغذية باستثناء الفول السودانى والحلوى التى يلقيها إليها المارة من بين فتحات السور ، وكانت الحيوانات فى غاية الهزال ، وشاهدنا فى بيت الزواحف أحد أقفاص الثعابين بجانبه كسر كبير خرج منه الثعبان منذ زمن بعيد ، وكان بيت القرود فى نفس مستوى الإهمال وبلا أى أفرع أشجار ، وجلست الشمبانزى القرفصاء فى أرحد أركان أقفاصها وسط القمامة وكأنها تعلن يأسها ، ورغبت فى مغادرة الحديقة بعد رؤية هذه المناظر لكن فنسى أصر أن نذهب لرؤية الطيور التى كانت فى قفص واحد كبير ، وفوجئت برؤية أحد الصقور ملقى على الأرض ميت ومقطوع الرأس ، ولم أندهش عندما رأيت الحال المزرية التى تعيش فيها الأسود ؛ فقد كانت أقفاصها نتنة والأشبال مريضة وتتحرك بصعوبة .وابتعد تفكيرى عن حديقة حيوان سكوبجى عندما تحول الحديث على المائدة إلى شئون السياسة ، وكان فريدى

يشرح لايما بمنتهى الحماس كيف أن الثقافة الألبانية هى أصل كل الشرور ، ويليها فى المرتبة الثانية الثقافة الأمريكية ، ولأن ايما من أصل بلغارى كان من السهل عليها أن تتفهم طبيعة دوافعه جيدًا لكنها تظاهرت بمنتهى الحكمة عدم الفهم فزاد هذا من هياجه وصاح قائلاً : " المسلم وغد " ، وصنع بيده وفمه حركات افتراضية وكأنه يلقى بنفاية .

ونظرت ايما لى وهى مستاءة من اختيارى لمعارفى الجدد .

وانحنى فريدى على المائدة وقال : " يمكنك أن تعرفى الألبان من رائحتهم " ، فأومأ مدير حديقة الحيوان برأسه تصديقًا على كلامه .واستطرد فريدى قائلاً : رائحتهم كريهة مثل رائحة دهن الخنزير وهى تحترق .فضايق هذا الحديث ايما بشدة فمالت علي وهمست : إلى متى سنبقى هنا ؟

وندمت على أنى أحضرتها معى .

وقال مدير الحديقة بنبرة علمية : ليست رائحتهم رائحة دهن يحترق على وجه الدقة ؛ بل هى رائحة حيوانات ، أنا متأكد من ذلك . وتوقف الحوار لثوانى عندما جاء النادل ليضع أطباق بيضاوية بها عدد من شرائح الخيار وبعض من قطع الطماطم وقليل من الجبن البيضاء . ثم عاد فريدى يتحدث بحماسة شديدة وقال وهو يلوح بيداه فى الهواء : " أما تنفس النساء الألبانيات "

، وصنع بيده وفمه تقليدًا لطريقة تنفس التنين ، فتدخل مدير الحديقة ثانية وقال : " هؤلاء الناس نتنى الرائحة بسبب نظامهم الغذائى " ، ولمح إلى أحد وجباتهم التى تعد من الخضروات النيئة وأكمل كلامه قائلاً : " بينما السلطة المقدونية جيدة للهضم وهى الأفضل على مستوى العالم . "

وفكرت فى الهرب من هذا الجو الكئيب فأمسكت بمعدتى وقلت لفريدى : أين دورة المياه ؟

فقال فى ابتهاج : لا توجد دورة مياه ، هناك دلو بالخلف .

فمثلت بصورة مبالغ فيها أنى أترنح تجاه الباب ، وعندما عدت كان ديمى قد اكتشف أصول ايما البلغارية .

فمازحها بخبث قائلاً : اغتصب جدك جدتى فى الحرب العالمية الثانية . وقلت لديمى : أنا مضطرة للإنصراف أنا وايما فأنا لست على ما يرام . وتخيلت مدى غضب سكوت عندما يعرف هذا لرغبته الشديدة فى أن أجند ديمى .

ونظرت لفريدى الذى تركزت عيناه على المائدة وعادت له نشوة الحياة بسبب ارتباك ايما ورغبتى المفاجأة فى الإنصراف فقفز واقفًا وهو يقول : هيا نستمع الآن لبعض الموسيقى المقدونية .وبمجرد أن تمكنت أنا وايما من الخروج من هذا الجو جرينا فى الشارع ونحن نكاد نسقط من شدة الضحك ، وقالت

لى ايما ونحن واقفين نلهث بجانب الطريق : كيف تتعاملين مع
هذا الوضع العجيب ؟ !
قلت : لا أعرف .
قالت : أعنى هل مهنتك هى مقابلة أمثال ديمى وفريدى ؟ لأنى
لا يمكننى أن أتخيل سببًا آخر يدعوك للقاء مثل هؤلاء
الأشخاص .قلت : أعرف أن هذا جنون .
فقالت : على كل حال ؛ آمل أن يكون الأمر يستحق كل هذا
العناء . ثم أعطتنى ظهرها ونظرت للشارع الذى بللت أرضه
مياه الأمطار وقالت : أعنى أنه مهما كانت طبيعة عملك فلابد
أنك تعرفين معلومات أكثر مما يعرفه شخص مثلى لكنى آمل أن
يكون ما لا أعرفه يستحق كل هذا العناء .وأدركت فى هذه
اللحظة أنه لا أنا ولا أى من زملائى أو رؤسائى يعرف أى شئ
أكثر مما تعرفه ايما، وأدركت أن أسطورة معرفة وكالة
الإستخبارات المركزية لكل شئ ليست أكثر من مجرد "
أسطورة " .ولم تنهار هذه الأسطورة فى أعين كافة موظفى
الوكالة فقط ، بل انهارت أيضًا فى نظر كافة الأمريكان الذين
فشلنا فى حمايتهم ذات يوم تالى.

* * * * *

ذهبت بعد عدة أسابيع إلى الدكتورة توبوركوفسكى ــ طبيبة الأمراض النسائية التى اعتدت الذهاب إليها ــ وكنت أحبها بالرغم من تحفظى على خبرتها الطبية منذ أن حذرتنى من إمكانية الإصابة بأمراض جنسية بسبب السباحة فى بحيرة أحريد أو استخدام مقاعد دورات المياه الغربية ، واعتادت أن تقوم بفحصى بصورة روتينية سريعة ثم تقضى بقية الوقت تحكى لى قصص مغامراتها وحياتها الجنسية ، وقلت زياراتى لها بسبب كثرة حديثها عن نظرياتها الطبية الطائشة ، وبالإضافة لتحذيراتها المختلفة اعتادت أن تحذرنى من مواعدة رجال البلقان ، وقالت : الحيوانات المنوية للرجال هنا قوية على خلاف الأمريكان الذين يعانون من ضعف الحيوانات المنوية ، لذلك يجب أن تكونى فى غاية الحذر حتى لا تتعرضى للحمل .

وقلت لها : شكرًا على النصيحة .

قالت : وأنا أحذرك من أنه على الرغم من قوة الحيوانات المنوية للرجل هنا إلا أنه لن يفكر أبدًا فى الإعتناء بابنه ، فكلهم صعاليك . وقالت : من الجيد أنك لم تعودى تسبحين فى بحيرة أحريد ، وأتمنى أن تكونى أنهيت علاقتك بذلك البلغارى .

وكنت أنهيت علاقتى فى هذه الفترة بفنسى بعد حوالى نصف العام الذى قضيناه معًا دون فعل أى شئ فقد كان يقيم معى

بسكوبجى خلال فترة الإضطرابات التى كنت مشغولة فيها تمامًا حيث كنت أخرج من الصباح الباكر ولا أعود إلا متأخرة فأجده جالسًا يقلم أظافر قدمه على الأريكة وهو يشاهد أحد اسطوانات أفلام الفيديو للمرة المليون .

ودائمًا ما كان يصنع على العشاء شعرية سريعة التحضير وزبد لأنه كان يشعر بقلة الحيلة عندما أحضر أطعمة غالية ، وأعتقد أن كلانا مل من طبيعة حياتنا عندما كنت أعود مساءًا منهكة من لقائى مع أحد العملاء وليس عند أى منا شئ يقوله ، بالإضافة إلى أنى مملت من رؤية أكوام بقايا السجائر التى كان فنسى يتركها بكل مكان بالمنزل .

وبانتهاء فصل الشتاء وقدوم الربيع توقفت عن إخبار فنسى بمواعيد ذهابى إلى صوفيا فى العطلات الأسبوعية ، وقابلته آخر مرة منذ عدة أسابيع يوم أن ذهبت معه إلى شقة أبيه الصغيرة بملادوست التى تعنى " الشباب " ، وكان والد فنسى نسخة كربونية من فنسى نفسه ، وانهمك والد فنسى وعمه العملاق وجدته الضئيلة وأخته الصغيرة لامعة العينان فى التجول داخل الشقة الصغيرة ليحضروا لى شيئًا آكله أو أشربه ، وتساءلت فى نفسى عما إذا كان فنسى حدثهم عنى.

وبينما نحن جالسون دخل ابن عم فنسى وهو يحمل فى إحدى يديه سنارة وفى اليد الأخرى دلو معدنى ثقيل ، وكان باديًا عليه أنه آتى لتوه من الصيد فى نهر الدانوب ، ولمحته يغمز لفنسى بطرف عينيه ــ بمجرد أن رآنى ــ ويرفع له إبهامه دلالة على الإستحسان .وبدا على الأسرة تضايقها من استضافة أمريكية ونادرًا ما كانوا يرفعون أبصارهم عنى ، وجلسنا نشرب جرعة تلو الأخرى من الفودكا التى قدمت فى أكواب شاى مشروخة وأكلنا بعض أحشاء الضأن التى صحبها القليل من الحساء الرقيق ، وبعد وصول ابن العم قليت الأسماك التى اصطادها ثم وضعت على طبق فوق الدلو الذى كان يصطاد فيه .
وبينما نحن نأكل أخرج ابن العم خريطة لبلغاريا وأشار إلى المكان الذى ينوى أن يأخذنى أنا وفنسى إليه فى رحلة صيد عند زيارتى القادمة . وغفوت للحظة على الأريكة بسبب الخمر وأفقت عندما هزنى فنسى برفق لأجد الجمع كله يمسك أكواب الفودكا ويرفعها إلى السقف ويصيحون فى وجهى قائلين : " فى صحتك " ، وأحسست أن حوائط المنزل تقترب منى .
وكنت أعلم أن الجميع ينظرون لعلاقتى بفنسى على أنها وثيقة خروجه من هذا الفقر . ورافقنى فنسى هذه الليلة إلى شقة اميلى لأقضى بها ليلتى دون أن نتبادل كلمة واحدة ، وأحسست أنى لا

أتنفس بسهولة ، وبدا على فنسى أنه قرأ أفكارى فقال : أتعرفين ، هناك طرفة بلغارية تقول أن أحد البلغاريين ذهب إلى الجحيم ، وبينما الشيطان يقوده إلى نيران بلغاريا لاحظ البلغارى أن لكل دولة حراس أعلى ألسنة اللهب يمنعون الناس من الخروج ، وعندما وصل الشيطان بالبلغارى إلى البقعة المخصصة للبلغاريين لاحظ الشاب عدم وجود حراس أعلى ، وتركه الشيطان لينصرف فناداه البلغارى قائلاً : انتظر ، لماذا لا يوجد حراس فى منطقة البلغاريين ؟ فأجابه الشيطان قائلاً : لا نحتاج حراس هنا لأنه إذا حاول أحد البلغاريين أن يتسلق النيران ليخرج منها سيسرع بلغارى آخر لسحبه لأسفل .

وضحكت على طرفته بالرغم من أن قلبى كان يتمزق ، وعندما انحنى ليقبلنى أمام شقة اميلى قبل انصرافه أدركت أن كلانا يعرف تمامًا أنى لن أسمح بأن أسحب لأسفل .

وفى نهاية لقائى بالدكتورة توبوركوفسكى قلت لها : نعم ، لقد أنهيت علاقتى بالبلغارى .

* * * * *

خرجت من عند الدكتورة يوم 11 سبتمبر 2001 وتمشيت فى شوارع سكوبجى ، وكان هذا اليوم جميلاً بصورة غير عادية فقررت أن أترك سيارتى أمام عيادة الطبيبة وأتمشى إلى المكتب

مستمتعة بالنسيم وعبير الزهور ، وأردت أن أؤجل عودتى للمكتب الخالى من النوافذ حيث سأنهمك لبقية اليوم فى كتابة التقارير للقيادة .

ووصلت المكتب فى الساعة الثالثة بعد الظهر فوجدت سكوت فى انتظارى وقال : اقتحمت طائرة مركز التجارة العالمى .

قلت : حقًا ؟

وتوجهت نحو جهاز الكمبيوتر وأنا أسأل : أقتل أحد ؟

وبمجرد أن شاهدت المظهر على شبكة الـ CNN أدركت مدى سخافة سؤالى ، ومدى سخافة تعاملى أنا وسكوت مع الموقف بمثل هذا الإسلوب ، وكيف لم نعرف بمثل هذا الأمر من قبل على الرغم من أننا نعمل بوكالة الإستخبارات المركزية ؟ !

* * * * *

بعد أن شاهدت منظر تحطم الطائرة بمبنى مركز التجارة العالمى على شبكة الـ CNN اتصلت فورًا بايما التى كانت قد وصلت نيويورك فى هذا الوقت فلم يجب هاتفها وظللت أحاول الإتصال بها لحوالى عشرين مرة حتى أجابت فى النهاية بصوت باكى : مرحبًا .

فقلت : هل أنت بخير ؟

وبمجرد أن سمعت ايما صوتى انهارت وقالت وهى تنتحب وتحاول التقاط أنفاسها بين الكلمات : لا أصدق أنك تمكنت من الإتصال بى فالهاتف لم يكن يعمل ، ولم أكن قادرة على الإتصال بأى أحد ، ما الذى يفترض أن أفعله يا ليندسى ؟

قلت : لا أعرف .

فقالت وهى منفعلة وعلى حافة الهستيرية : ما الذى يحدث بحق الجحيم ؟ ألا تعرفون ؟

قلت : لا ، نحن لا نعرف .

وظل سؤالها هذا يرن فى أذنى لساعات وأيام وأسابيع وشهور تالية .

* * * * * *

استقلت اميلى حافلة شركة الأمل فى هذا اليوم من صوفيا إلى سكوبجى بعد أن اتصلت بى هاتفيًا وقالت : سأشعر بالأمان أكثر وأنا معك ، وقال لى والداى " اذهبى وابقى مع ليندسى " . فهم يظنون أنك تعرفين حقيقة هذا الأمر .

وبحلول المساء كنت أجلس مع اميلى أمام شاشة التلفاز نشاهد الـ CNN، وظل هذا الوضع يتكرر ليلة بعد أخرى حتى منتصف أكتوبر عندما عادت اميلى لوالديها بكنساس .

وظللت طوال الأسبوع التالى لهذ الحدث أستيقظ فى الصباح وأقول لنفسى : " يالبشاعة هذا الحلم الذى رأيته ! " ثم أتساءل : " لماذا كانت اميلى نائمة بجوارى " ، وبمجرد أن تعود لذاكرتى مناظر اختراق الطائرات لمبنى التجارة العالمى واشتعال النيران بمبنى البنتاجون حتى أدرك أن كل هذا لم يكن حلم ، وكنت أجلس أنا واميلى طوال الليل بالتناوب على جهاز الكمبيوتر نتفحص رسائلنا الإلكترونية بحثًا عن أى كلمة تأتى لنا من الوطن ، وتركنا التلفاز مفتوحًا ليل نهار .

وبعد هجوم الحادى عشر من سبتمبر بليلتين استأجرت مجموعة من المقدونيين فرقة غنائية من أربعة أفراد للإبتهاج بهذا الحدث أمام مقر السفارة الأمريكية .

ولم أتمكن فى اليوم التالى من النظر المباشر فى عين أحد ، وأبقيت عيناى مثبتتان أمامى ، وفمى مغلق فى توتر وغضب وعبوس ، حتى عدت لاميلى بالمنزل التى كانت تتصرف فيه كربة منزل وتعد لنا شيئًا نأكله ، وحاولنا استعادة تماسكنا بشرب الزجاجة تلو الأخرى من النبيذ الأحمر ، وفى الصباح صببنا الكثير من الكريمة على قهوتنا لأن أيًا منا لم يكن لديه القدرة أو الرغبة فى الذهاب لشراء اللبن من المقدونيين الذين لم يترددوا فى إظهار فرحتهم .

وذات مساء جاءت جارتى الوقحة وأخرجت من سيارتها حقيبة خضروات كبيرة وكأنها تنوى إقامة حفلة إبتهاجًا مصابنا .
واتصل فاسيل بى ليقول : آسف لما حدث لبلدك لكنى متأكد الآن أنكم تشعرون ببعض معاناتنا .
واتصل بى أحمد وأحسست بإخلاص مشاعره وهو يقول : متى يمكننا أن نتبرع بدمائنا؟
ولم يقصد نفسه فقط بل كافة أصدقائه الألبان ، وقال : نريد أن نرسل دماءنا لنيويورك .
وأظن أن أحمد بالإضافة لتعاطفه الصادق كان يدرك بمرارة احتمالية تأثير أحداث الحادى عشر من سبتمبر على علاقة أمريكا بالعالم الإسلامى . ولم أتمكن من التركيز فى عملى ، وحاول سكوت أن يستعيد الإحساس المعتاد لجو العمل فتعود على سؤالى عما إذا كنت قابلت أحمد أو ديمى أو الروسى الذى تعرفت عليه فى إحدى حفلات الكوكتيل منذ بضعة أسابيع ، لكنى لم أهتم بأي من هذا ، ومن ذا الذى يمكنه أن يهتم بعد أن انقلب عالمنا رأسًا على عقب ؟
وتملكنى إحساس بأنى منفية وأنى بلا فائدة فى مقدونيا بينما ينبغى أن تتم الأعمال الحقيقية لوكالة الإستخبارات المركزية فى جزء آخر من العالم .

ووقفت فى أحد الأيام المشمسة أمام مبنى السفارة الأمريكية
أنظر إلى العلم الأمريكى وذهب عقلى إلى نيويورك وواشنطن ،
وفكرت فى أصدقائى وزملائى ، وفكرت فى جيمس الذى تأكدت
من سلامته بعد أن أرسلت له بريد الكترونى ضمن سلسلة
الرسائل التى أرسلتها بعنوان (من فضلك أخبرنى أنك بخير) .
وقال لى فى رسالته : أنا بخير ، وكان من المفترض بى
كمصور أن أهرع إلى البنتاجون وألتقط عدد من الصور ، لكنى
لسبب ما لم أتمكن من القيام بك .
وددت لو أن بإمكانى أن أخبر جيمس أنى أتفهم مشاعره ، لكن
ما الذى كان بإمكانى فعله وأنا عميلة بوكالة الإستخبارات
المركزية ، وأعتقد أن واجبى كان يحتم علي منع مثل هذه
الأشياء من الحدوث ؛ لكنى بطريقة ما لم أتمكن من القيام
بواجبى . ووقفت أحدق فى العلم الذى أحسست أنه يلوح وهو
يشعر بالوحدة وكأنه امرأة تقف على رصيف الميناء تلوح
لسفينة تبحر نحو أعالى البحار ، وأحسست ببعض الدوخان من
أثر الخمر التى شربت منها بالأمس ثلاث زجاجات مع اميلى
ونحن نشعر بالندم والعجز والحزن ، وفوق كل هذا ؛ بالغضب
فقد أحسست بغضب لم أحس به من قبل طوال حياتى ، أحسست

بالغضب من الإرهابيين وبالغضب الأكبر من نفسي ومن وكالة الإستخبارات المركزية كلها.
وتحولت أحاسيس الإحباط عندى إلى تشنج عنيف وفيضان من الدموع التى لا تتوقف ولففت ذراعى حول جسدى الذى أخذ يهتز بعنف ، وسألنى حارس السفارة الذى وجدته واقف بجوارى يحمل فى يده منديل : هل أنت بخير يا سيدتى ؟ ...... لماذا لا تعودين للبيت الآن يا سيدتى ؟
فقلت : أنا بخير . ورفضت أخذ المنديل ومسحت وجهى بيدى . ولسوء حظى أتت سيدة الإنجيل فى هذه اللحظة إلى مبنى السفارة . وسيدة الإنجيل هذه هى امرأة مقدونية مجنونة تمامًا اعتادت أن تأتى أمام مبنى السفارة الأمريكية تحمل الإنجيل بيدها وتصيح منتقدة السياسة الأمريكية .
وعندما لمحتنى سيدة الإنجيل صاحت فى الجمع الذى تجمهر حولها وهى تشير إلى : وهذا شئ آخر ؛ انظروا إلى تلك العاهرة ! وأشارت إلى بالإنجيل وهى تصيح : عاهرة ! عاهرة ! عاهرة ! أمريكية عاهرة ! عاهرة ! عاهرة !
وظلت تترنم بهذا السباب حتى ركبت سيارتى وقدتها مبتعدة ثم انفجرت فى الضحك وظللت أضحك وأضحك وأضحك حتى عدت للبكاء مرة ثانية ، ووصلت التقاطع الذى تقف فيه إحدى

فتيات الشوارع تتسول ؛ وكنت أحببت هذه الفتاة لحسها المرهف فقد كانت تتنبأ باقتراب وصول سيارتى ، وبمجرد أن رأتنى أتت من الجانب الآخر من الطريق مسرعة نحوى ففتحت نافذة السيارة لأرى وجهها المبتسم المشرق دائمًا بالتفاؤل وسألتنى وهى تحنى رأسها جانبًا : كيف حالك ؟

قلت : أنا بخير ، تعرفين أنه حدثت مشكلة ببلدى .

قالت : أعرف . ثم اقتربت منى ومسحت دمعة انحدرت على خدى وقالت : لا تبكى ، سيكون كل شئ على مايرام .

فشكرت الفتاة المتشردة وأعطيتها بعض الفكة وأحمر شفاه من حقيبتى ثم قدت السيارة وأنا أتعجب من هذه الشيطانة الصغيرة . وقلت لنفسى : سيكون كل شئ على ما يرام ، أصبح الآن لعملى معنى وأصبح عندى شئ حقيقى أقوم به .

* * * * *

الفصل الحادى عشر

وافق سكوت على طلب الأجازة لحضور حفل زفاف أخى بالولايات المتحدة فأحسست كأنى سجينة تلقت نبأ الإفراج ، وبدأت أرتب لعودتى وأنا فى غاية السعادة وابتعت الهدايا من متاجر الألبانيين وذهبت لصالونات التجميل بسكوبجى ، ولاحظ عملائى وكل من يتصلون بى أنى سأسافر لشهر كامل .

وعندما بدأت أحزم مشترواتى اكتشفت أن أغلبها ردئ وغير ملائم فألقيت بها .

وأدركت الحقيقة المؤلمة التى غابت عن بالى لفترة طويلة ؛ وهى أن كونى جاسوسة وانهماكى لشهور فى قيادة السيارة لإجراء المقابلات مع العملاء ثم الجلوس على المكاتب لكتابة التقارير للقيادة أصابنى بالسمنة وجعلنى سريعة الغضب .

وبسبب حاجتى الملحة إلى استعادة قوامى الرشيق فى أسرع وقت قررت التحلى بالشجاعة والذهاب إلى حمام السباحة العام بسكوبجى الذى يشبه مظهره الخارجى أحد مستشفيات الأمراض العقليه المهجورة ، وبمجرد أن دفعت رسوم الدخول قادتنى مسؤلة الحمام ـــ التى كانت ترتدى معطف معامل أبيض ـــ بصورة فظة إلى غرفة تغيير ملابس كان بها فى هذه اللحظة

دستة من الشباب المراهقين ، وبمجرد أن رأونى أطلقوا صيحات لا يمكننى إلا أن أفسرها بأنها كانت استهجانية .
وغيرت ملابسى بسرعة خلف أحد الأبواب ثم قادتنى مسؤلة الحمام إلى مكان صغير أشبه بالمستودع وبه طين يصل إلى الكاحل وقالت : هذا ضرورى لمنع انتقال العدوى من الأقدام .
ثم قادتنى مرة أخرى فى ممر مظلم حتى وصلت إلى حمام سباحة أوليمبى أشبه بحوض كبير لتربية الطحالب ، وكان السباح الوحيد الموجود بالمكان يرتدى بدلة غطس كاملة .
وارتديت الطاقية والنظارة وغطست وأنا أشجع نفسى بقول : سيفتخر بى جيمس .
لكنى قلت لنفسى بعد ثوانى: لكن ربما يكون جيمس قد تزوج .
وتذكرت أن صوته عندما حدثته فى الهاتف لم يدل على أنه تزوج ، وتذكرت قوله لى عندما اتصلت به لأخبره أنى سأعود فى أجازة لشهر : سأصدق هذا عندما أراك .
وكان صوته ملئ بالمرح والأمل ، وأتذكر قوله : أظن أنه يمكننا أخيرًا أن نذهب لتناول كوب الجعة الذى وعدتينى به منذ عامين . وظللت لساعات طويلة أحلل حوارنا الهاتفى الذى استغرق ثلاث دقائق فقط ;
ماذا يعنى بأنه سيصدق هذا عندما يرانى ؟

هل جعلتنى عدم القدرة على العودة للبلاد أبدو فى نظره غريبة الأطوار ؟ متى وعدته بكوب الجعة ؟ أنا لا أذكر أبدًا أى حديث عن الجعة . هل هذه هى طريقته فى طلب الخروج معى لتناول كوبًا من الجعة ؟ هل يحتفظ فعلاً بتسلسل أحداث كافة مراسلاتنا منذ وقت مغادرتى البلاد ؟
وكل ما أعرفه هو أن التفكير فى رؤية جيمس مرة أخرى ملأنى بإحساس من القلق .

* * * * *

زادت أحداث الحادى عشر من سبتمبر من حماستى ورغبتى فى أن أكون أكثر كفاءة ، لكن تصرفات الوكالة تسببت فى أن أفقد إيمانى بها تمامًا ، وأصابت الهجمات جميع من بالقيادة بالإضطراب لأنه لا يمكن وصف أحداث الحادى عشر من سبتمبر على أنها أى شئ باستثناء كونها فشل استخباراتى مدوى ، وكان كل من بالوكالة يتساءلون أين الخطأ فى عملنا ؟ وما الذى يفترض بنا فعله الآن ؟
ولم يعد بإمكانى القدرة على فهم قيمة المعلومات الإستخباراتية التى نتلقاها من جاسنا البوسنية ، ولا أحمد وشبكة علاقاته بالألبان المزعجين ، ولا ديمى وتونى وأصدقائهم المتعصبين ، وأخبرت سكوت وكذلك القيادة أن هذه القضايا يجب إيقاف

التعامل معها وأنه فى ضوء أحداث الحادى عشر من سبتمبر ينبغى أن ننهى علاقتنا بالعملاء غير الفعالين ــ ومن بينهم عملائى ــ وأن نركز على إنشاء شبكة من الأهداف المتصلة بالإرهابيين ، لكن يبدو أن ما قلته ــ وكذلك الحال مع بقية زملائى من الضباط الميدانيين ــ لاقى فى القيادة آذاناً صماء .

وعندما رفضت السفر مرة أخرى للقاء جاسنا التى كنت متأكدة من أن ليس لديها شئ ذو أهمية لتخبرنا به ؛ قال لى سكوت : إنها خبرة جيدة لك .

قلت : لكنها بلا فائدة ، ومن أجل ماذا ندفع لها تلالاً من النقود ؟

ولام سكوت القيادة كعادته قائلاً : تريد منك القيادة أن تستمرى فى هذه العملية .

ولذلك اضطررت إلى استمرار الإتصال بجاسنا وبالعملاء ذو الدرجة الثانية من الأهمية وكذلك الدرجة الثالثة لأن شخصًا بالقيادة يرى أن هذا جيد لى !

وتخيلت مشاعر من فقد أحد أحبائه فى هذه الهجمات الإرهابية لو أنه علم ما نقوم به من مهام عديمة الجدوى ، وشعرت أنه بالإضافة إلى خداعى نفسى فإنى أخذل كل شخص آخر ، بينما كانت الوكالة فى هذه الفترة تنظر لى على أنى أحد الضباط الصغار الواعدين .

وبينما أنا أسير فى أحد الأيام بشوارع سكوبجى صادفت عدد من الأطفال الصغار يلعبون بمسدسات وبنادق بلاستيكية لعبة " المقدونيين والألبان " تمامًا مثلما اعتدنا أن نلعب كأطفال أمريكيين لعبة " رعاة البقر والهنود الحمر " ، وجرى الأولاد يطلقون النيران التخيلية على بعضهم البعض من خلف السيارات المتوقفة بالطريق فى حماسة جنونية فأدركت فى هذه اللحظة أنى أوقعت نفسى فى لعبه طفولية يستمر الرجال فيها فى لعب أدوار الراشدين .

وتأكدت من أن أحداث الحادى عشر من سبتمبر ضايقت الوكالة بشدة لأنها عنت أن أحد الأطراف لا يلعب فى إطار قوانين اللعبة لأنه إذا كانت الحرب الباردة قد انتهت وأن تكتيك الجواسيس مقابل الجواسيس لم يعد مجديًا ؛ فلابد أن هذا هو الإستنتاج الوحيد لتطور الأحداث بهذا الشكل .

لكن وكالة الإستخبارات المركزية كانت ولا تزال تتشكل من رجال فى غاية الإشمئزاز من التوقف عن لعب لعبتهم .

وفى أثناء قمة التفانى التى كنت بها قمت بتجنيد ــ فاتوس ــ أحد العملاء الذى ظننت أن له علاقات بالإسلاميين المتطرفين بالمنطقة بعد أن تعرفت عليه فى أحد النوادى الليلية فى الجانب الألبانى من نهر فاردار .

وقال لى فاتوس وهو يرفع صوته لأتمكن من سماعه وسط ضجيج الموسيقى الصاخبة : أعتدت على الخروج مع بعض هؤلاء الشباب .
وكان يعنى بذلك مجموعة من المجاهدين الذين تسللوا إلى كوسوفو أثناء الحرب البوسنية ، والآن هم منهمكون فى نشر الأفكار المعادية للأمريكان بالمنطقة .
وابتهجت عندما قال فاتوس : أنا شخصيًا لا أتفق كثيرًا مع الأمور التى تتعلق بالجهاد .
وعندما نقلت نبأ هذا اللقاء إلى سكوت قال : استمرى فى هذه المهمة ، لكن تأكدى فقط من موافقة القيادة .
فكتبت برقية مطولة إلى القيادة أشرح فيها كيف تعرفت على فاتوس ، ولماذا أرى أنه يمثل عميل محتمل ذو قيمة عالية ، وعلى الرغم من تأكدى من أن هذه البرقية سيتم تجاهلها بصورة روتينية مثل الآف التقارير التى ترسل يوميًا إلى القيادة ؛ وصفت فاتوس بقول : " له علاقات بالمتطرفين لكنه مستعد للحديث مع أمريكان أمثال الضابط هادلى " .
وقررت فى هذه الأثناء مقابلة فاتوس فى برستينا عاصمة كوسوفو التى ظلت تحت الوصاية الدولية مقسمة بين القطاعات البريطانية والأمريكية والفرنسية والألمانية والإيطالية ويجوب

كل قطاع من هذه القطاعات دوريات تابعة لحلف الناتو يقودها جنود من الدولة التابع لها القطاع ، وكان دور هذه القوات ـــ بالإضافة إلى التجوال المستمر بالمنطقة لمنع تجارة الرقيق الأبيض ـــ هو منع الصرب من قتل الألبان والعكس وإن كان الشكل الثانى هو الذى صار متفشيًا فى أواخر التسعينات بعد أن سقط ميلوسوفيتش وانقلبت المائدة على الصرب المقيمين بكوسوفو الذين أصبحوا خائفين من الخروج من منازلهم ولو لشراء الخبز . وبسبب المزايا النسبية القليلة التى تتمتع بها سكوبجى عن برستينا اعتادت القوات التى تؤدى خدمتها بكوسوفو على عبور الحدود إلى مقدونيا وقضاء بعض الأوقات بسكوبجى ، ولذلك تعرضت للإيقاف أكثر من مرة وسئلت عن سبب ذهابى لكوسوفو فقلت أنى أريد أن آخذ بعض الهدايا التذكارية من المنطقة التاريخية الهامة قبل العودة لقضاء عطلة الأعياد بالبلاد ، وعلى الرغم من أنه كان سبب واهى إلا أنى كنت مدركة تمامًا أن غطائى بمقدونيا نفسها صار رقيقًا تمامًا بعد عامين من التجسس . خرجت من سكوبجى فى آخر النهار متخفية تحت الضباب الكثيف الذى ملأ السماء فى هذا اليوم ، وكان الطريق إلى كوسوفو محاط بالجنود المقدونيين المتشككون بطبيعتهم والخائفون من التعرض لهجوم الألبان الذين قد ينبثق

عنهم الضباب فجأة فيخرجون كفرسان بلا رؤوس ويعبسون بتشكك فى السيارات العابرة .

وعندما اقترابى من حدود برستينا تذكرت اشتهارها بالخمول وأطباق استقبال القنوات الفضائية المتراصة بالشرفات والشوارع المرصوفة من كلا الجانبين بالقمامة والكلاب الضالة التى تجوبها. وبمجرد أن وصلت للمدينة أحسست بالإحباط بسبب القذارة التى تملأ المكان والسيارات الخربة التى تجول الطرقات والسكان المحليين رثى الهيئة ، وانتهى الطريق الرئيسى بوسط المدينة بأخدود طينى ركنت به سيارتى .

وبعد السير لبعض الوقت فى الطرق الموحلة وصلت لمتجر بيتزا يحمل اسم " فجالا " حيث سأقابل فاتوس ، وكان على باب المتجر أريكة مقلوبة وصفيحة قمامة مملوءة عن آخرها مثل أغلب الأماكن التى اعتدت أن أقابل عملائى فيها بدول البلقان ، وكان المتجر نفسه فى دور سفلى بلا نوافذ ويحتاج المرأ لنزول عدد كبير من درج السلالم ليصل إليه .

ووجدت فاتوس ينتظرنى على مائدة لفردين قرب غرفة الطعام ، وبالقرب منا صالة أخرى ملحقة بالمكان يجرى التجهيز فيها لبدأ حفل زفاف . واكتشفت أن محل البيتزا هذا يقدم لزبائنه كل شئ باستثناء البيتزا ، وطلبت من فاتوس أن نذهب معًا لطلب ما

سنتناوله ، وفعلت هذا لأنى تعودت على هذا التصرف فى مثل هذه المواقف لأعطى الرجل هذا الإحساس البسيط من أنه ذو اليد العليا . وبينما نحن ننتظر وصول طعامنا بدأ رواد حفل الزفاف يتوافدون ، وكان من الواضح أن سجاد مدخل المتجر جديد وبه بعض المواد الزلقة التى تسببت فى سقوط العديد من النساء المسلمات ، ولم يبد فاتوس أدنى اهتمام عندما كانت تتدحرج إحدى النساء المسلمات ساقطة أمامنا وكأنها ثمرة فاكهة سقطت من على الشجرة . وسألت فاتوس مشيرة إلى المجاهدين المحليين قائلة : أتعتقد أن بإمكانك إعادة الإتصال ببعض هؤلاء الشباب الذين اعتدت على الخروج معهم ؟

فرجع فاتوس فى مقعده إلى الوراء وقال : أنا لست مهتمًا بأفكارهم . فقلت من أجل الدخول فى صلب الموضوع : لكن نحن مهتمون . وفكرت فى أن سكوت إما سيذهل من هذا الأسلوب أو سيشعر بالفخر .

وضاقت عينا فاتوس وقال : من نحن ؟

قلت : أنا ، أعنى أمريكا ؛ فتعقب حكومتنا للمتطرفين من أولوياتنا القصوى . فقهقه فاتوس ضاحكًا وقال : أنتم لا تفهمون

قلت : ماذا تقصد ؟

قال : هؤلاء الأشخاص ليسوا كما تظنون ، من يريد أن يكون واحدًا منهم لابد وأن يكون مستعدًا للتضحية بأن يشارك فى بعض أعمال الجهاد .

قلت : أفهم ذلك تمامًا ، ولذلك نحن نحتاج لشخص مثلك ليتعرف على هؤلاء الناس ويبقى عينه عليهم ويخبرنا بما قد يخططون له من الأمور الهامة ، فكر على سبيل المثال فى أعداد الأرواح البريئة التى كان بإمكاننا انقاذها لو أننا عرفنا مسبقًا بحدث كـــ 11 سبتمبر على سبيل المثال .

فخلل فاتوس شعره بأصابعه وقال : الأمر ليس بهذه البساطة فهناك الكثير من الأشخاص الذين يكرهون أمريكا فى هذه الأيام

قلت : أعرف ، وهذا أحد الأشياء التى نحاول فهمها.

فوضع فاتوس كوبه على المائدة التى علتها أطباق اللحم المشوى والبطاطس والسلطة ، وقال : سنفكر فى هذه الأشياء ، لكن هذا وقت الطعام .

وأنهينا الطعام ، وأثناء عودتى للسيارة قال فاتوس : سأتصل بك

قلت : لا تتأخر ، أعتقد أننا لو بقينا على اتصال فسيستحق الأمر عناءك . ودقائق خرجت من طرق برستينا الموحلة لكنى لم أتمكن من التحرك بسبب الضباب الكثيف الذى لم يسمح لى بالرؤية على بعد قدم واحد ، وخفت أن أحيد عن الطريق وأترك

لألاقى حتفى بلا محالة ، وفكرت فى الطريقة التى سيُنقل بها
إلى أهلى نبأ وفاتى . وتخيلت نفسى أستمع لصوت أمى وهى
تسأل : لماذا كانت تقود سيارتها وحيدة بالليل ؟ وأين كوسوفو
هذه ؟ وتطوع سائق السيارة التى أمامى بأن ترك الأضواء
الخلفية لسيارته تضئ وتطفئ باستمرار لتوضح لى معالم
الطريق ، أو ليمنعنى من الإصطدام بمؤخرة سيارته .
لكن لسوء الحظ اختفت هذه السيارة ووجدت نفسى رغمًا عنى
أقود السيارات التى تكدست خلفى وبعد دقائق لم أكن متأكدة مما
إذا كانت سيارتى على الطريق أم حادت عنه .
وأحسست بموجة من الإرتياح عندما ظهر أمامى فجأة أحد
حراس الحدود الذى أشار لى بالتوقف فأنزلت زجاج النافذة
وناولته جواز سفرى ، وتمنيت لو يخبرنى الحارس أن القيادة
فى هذا الجو فى غاية الخطورة وأن يدعونى للبقاء بعض الوقت
بأحد مكاتب حرس الحدود أمام مدفأة حتى ينكشف الضباب ،
لكن الحارس ألقى نظرة روتينية على جواز سفرى ثم سمح لى
بالعبور فى صمت ، وتبخرت الراحة التى كنت أنتظرها بعد
عبور الحدود إلى مقدونيا عندما تنبهت إلى أن الظواهر الطبيعية
لا تبالى بالحدود الجغرافية فقد كان الضباب فى الجانب
المقدونى من الحدود أسوأ منه عن الجانب الآخر .

وتملكنى إحساس بأنى لن أتمكن من عبور الأميال القليلة المتبقية بأمان ، وتركز ندمى فى أنى قضيت الساعات الأخيرة من حياتى أتناول اللحم وأحاول تجنيد أمثال فاتوس ، وانتابنى إحساس مرير بأنى قضيت حياتى كلها دون أن أتمكن من إنجاز أى شئ ، وبمجرد وصولى سكوبجى ذهبت إلى أحد محلات مكدونالدز ولم أتمكن من منع نفسى من التفكير فى هذه الشبورة إلا على أنها إشارة . وتكررت تعجلى فى تجنيد فاتوس خلال لقاء واحد دون أخذ الوقت الكافى أو حبك تمثيلية " الصداقة " قبل تجنيده ، وكنت أريد أن أنسى خطوات التجنيد الواجب اتباعها أثناء تطور العلاقة ، وكل ما أردته هو الدخول فى صلب الموضوع ، وأعتقد أن مشاعرى فى هذه اللحظة لم تختلف عن مشاعر أى من الضباط الميدانيين الآخرين الذين تملكتهم مشاعر الإحباط وعدم الإحساس بجدوى ما يقومون به ، وعلى الرغم من أنى لم أكن أعرف أى شئ عن فاتوس إلا أنه بدا لى كمنارة لكن لماذا انتهى اجتماعنا الأول بهذه الشبورة الغير متوقعة ؟ ! وبينما أنا أقود سيارتى بشوارع سكوبجى للوصول إلى المنزل الذى أعيش فيه أحسست كأنى ذبابة تغوص فى إناء حساء ، وأردت أن أصعد فوق الأرض إلى أعلى وأعلى حتى أذهب فوق تلك الشبورة التى بدت وكأنها لن تنجلى .

* * * * *

أرسلت برقية للقيادة أذكر فيها تفاصيل ما تم مع فاتوس فجاءنى رد القيادة يمنعنى من محاولة تجنيده ، وجاء فى نص الرسالة التى وردتنى من القيادة ما يلى : " تؤكد معلوماتنا احتمالية أن تكون للهدف علاقات سابقة بالخلايا الإرهابية ، ولذلك ننصح الضابط هادلى بالتوقف والإمتناع عن إجراء أى اتصالات مستقبلية بالهدف ."وقلت لسكوت فى اليوم الذى وصلتنى فيه هذه الرسالة : هذه سخافة فهو قبل كل شئ أخبرنى بعلاقاته بالإرهابيين ثم كيف سيمكننا أن نكتشف أى شئ إذا تجنبنا الأشخاص الذين لهم علاقة بالتنظيمات الإرهابية ؟ !

قال سكوت : هذا غير منطقى بالنسبة لى أيضًا ، لكن لا يمكنك الإستمرار فى هذا دون دعم القيادة ولذلك فقد قمت بواجبك .

واكتشفت بعد ذلك مدى يأسى وعدم رغبتى فى الإستمرار لبقية حياتى فى التعثر فى ردهات الوكالة وفى الأزقة الخلفية بالمدن النائية كفأرة فى متاهة .

* * * * *

لم أكن وحدى الشغوفة لإثبات أنى أقوم بدورى فى الحرب ضد الإرهاب ؛ ففى مارس 2002 قام وزير الداخلية المقدونى

لجوبى بوسكوفسكى ــ الذى كان يعيش بقصر برتقالى بالقرب من منزلى ــ بدعوتى لشرب الشاى معه ، وأخبرت سكوت بمنتهى الفخر أن الشرطة المقدونية هاجمت خلية إرهابية وقتلت سبعة أفراد تابعين لتنظيم القاعدة ، وطبقًا لما قاله بوسكوفسكى ؛ فإن هذه المجموعة الإرهابية كانت تخطط لمهاجمة سفارات ودبلوماسيين بمقدونيا .ووجد سكوت ــ الذى يعلم تمامًا أن بوسكوفسكى أخرق ــ هذه القصة غير منطقية ، وكان رأى السفير الأمريكى مشابهًا . واكتشفنا بعد عامين أن بوسكوفسكى هرب بمعاونة خمسة من رجاله ستة باكستانيين وهندى من بلغاريا إلى مقدونيا بعد وعدهم بأنهم سيذهبون للغرب ، ثم أسكنوهم بمقدونيا لبعض الوقت قبل أن يطلقوا عليهم النيران فيردوهم قتلى ليظهروا للأمريكان أن مقدونيا تشاركهم فى الحرب على الإرهاب .وعندما ووجه بوسكوفسكى بهذه التهم أنكرها فى البداية بشدة ثم أخبر المراسلين الصحفيين بعد ذلك بأن هذا تم بناءًا على معلومات تلقاها من بعض ضباط وكالة الإستخبارات المركزية ، وكان هذا الإدعاء معقولاً بالنسبة لأى أحد باستثناء أمثالى ممن يعملون داخل الوكالة .

* * * * * *

ذهبت قبل مغادرتى مقدونيا بيومين إلى أحد صالونات التجميل التى تحتل الطابق السادس بالكامل فى أحد مبانى وسط البلد ، وعندما تجولت بالمكان اندهشت لكمية النشاط والحركة الدائبة فى الغرف الصغيرة التى ملأت هذا المكان ، وتعجبت من النساء المقدونيات اللاتى ينفقن ببذخ للإعتناء بمظهرهن الخارجى على الرغم من شكواهم الدائمة من عدم امتلاك قدر كافى من المال لشراء الخبز ، وعندما سألتنى المسؤولة عن المكان عن الزينة التى أطلبها بعد أن قدمت لى قائمة طويلة بأنواع التسريجات والخدمات الأخرى التى تقدم بالمكان مثل إزالة الشعر الزائد وغيرها قررت الإكتفاء بتزيين أظافرى . وجلست على أحد المقاعد وتركت العاملة تزين لى أصابع يداى ومعها مساعدتان منهمكتان فى تزيين أصابع قدماى ، واستمرت هذه العملية لقرابة الساعتين غفوت خلالهما واكتشفت عندما استيقظت أنهم وضعوا على أظافرى الطبيعية أخرى صناعية طويلة مصبوغة باللون القرنفلى وعليها رسومات لقلوب صغيرة وبعد أن عدت إلى الولايات المتحدة وحاولت نزع هذه الأظافر الصناعية اكتشفت أنها مثبتة بالأظافر الطبيعية بإحكام شديد بحيث يستحيل إزالتها دون إزالة الأظافر الطبيعية .

وعندما قابلت جيمس أخيرًا لاحتساء الجعة شعرت ببعض السخافة بسبب مظهر أصابعى الذى جعلنى أشبه بزوجة أحد رجال العصابات .

* * * * *

ذهبت مع جيمس إلى مطعم مكسيكى وتناولنا بعض المشروبات وحاولت ألا أطلب طعامًا كثيرًا لئلا ألفت نظر جيمس لمظهر طلاء أظافرى السخيف ، وعندما مددت يدى لألتقط قطعة كعك لمح جيمس أظافرى فقال : يالها من أظافر جميلة !

ومضت الليلة بين الضحك والحديث ورؤوسنا تتمايل نحو بعضها وكأننا فى سباحة ، وزاد إحساسى بالأمل والرغبة ، وكان من الواضح أن صديقة جيمس لم يعد لها الآن أى وجود فى حياته ، واكتشفت أن لقاءنا هذا هو بالفعل موعد غرامى .

وبمجرد أن خرجنا من المطعم قال جيمس :أنا مجبر على أن أعترف لك بأنى كنت أتحرق شوقًا لعودتك مرة ثانية .

وعندما انحنى جيمس علي ليقبلنى غرست أظافرى فى فخذى لأتأكد من أن هذا حقيقى ، وبعد أن انتهى من تقبيلى أفلت منى لسانى وقلت : أليس بمنزلك بعض الصور التى ترغب فى أن ترينى إياها ؟

خرجت مع جيمس فى الشهر التالى فى مواعيد غرامية متوالية وتبادلنا المكالمات الهاتفية والرسائل عبر البريد الإلكترونى طوال الليل ، وأحسست أن شيئًا جديدًا خاص وغير متوقع يحدث بحياتى . واعتدت الجلوس بشقة جيمس أقلب فى أكوام الصور التى التقطها حول العالم وأنا أتذكر المقولة القديمة التى تقول : " الكاميرا لا تكذب " ، وأحسست بصدق أعماله وأمدتنى صوره بالهدوء وأعادت لى أحاسيس الماضى عندما كان أبى يحكى لى قصص قبل النوم وأنا طفلة صغيرة ومنظر أمى عندما كانت تدخل علي بالبسكويت وشراب الزنجبيل وأنا مريضة . وكانت الصور التى التقطها جيمس من ذلك النوع الذى يقتنص البهجة من وسط البؤس ، والثراء من وسط الفقر ، والسلام من بين براثن الحرب ، والضوء من وسط الظلمة . وجلست أتأمل هذه الصور لساعات كصورة الهندية النحيلة وهى تحدق بخجل إلى عدسته ، وصورة الطفلين اللذان يسيران جنبًا إلى جنب متشابكى الأيادى وسط طريق قروى مترب ، وصورة فتاة متشردة تلهو على أرجوحة وقدماها تنطلق بحرية نحو السماء المعتمة .واكتشفت أن جيمس جاب العالم مثلى لكنه لمس حياة الناس بطريقة مختلفة عنى تمامًا ؛ فبينما كنت أتجول العالم لأسرق خصوصيات الآخرين كان هو فى رحلات من نوع آخر

تعطى أكثر مما تأخذ . وعندما أخبرنى بإعجابه بطريقتى فى الكتابة وطريقتى الخاصة فى النظر إلى العالم ؛ تساءلت عما سيقوله إذا علم أنى جاسوسة ، واكتشفت أنى كتبت له ـ مثلما كتبت للآخرين ـ الشئ الوحيد الذى كان بإمكانى كتابته ؛ وهو اللمحات البسيطة الأمينة التى ظهرت فى حياتى كحصوات صغيرة على الشاطئ الكبير من الأكاذيب التى صارت حياتى .
وبمرور الوقت مع جيمس زاد حبى له ، وبدأت أعود مرة ثانية للضحك بصوت عالى ، وألقيت تلميحات لطريقة حياتى التى لم أعد سعيدة بها لدرجة أنى أخبرته ـ حقًا ـ أنى لم أعد فخورة بكونى أمريكية ، وأن ما أحب فعله حقًا هو الكتابة .
وأحسست فى كل مرة أقابل فيها جيمس أنى ثعبان ينزع فى كل مرة إحدى طبقات جلده .

* * * * *

جلست مع جيمس فى أحد المطاعم الهندية ونحن نمسك قوائم الطعام وأنا لا أقدر على رفع عيناى من عليه لأقرأ القائمة ؛ لذلك تركته يختار لى طعامى وابتسامته تعدى النادلة والنادل والخادم الذى أتى ليصب لنا الماء ، ونظر لى جيمس وقال :
أريد أن آتى لزيارتك بمقدونيا .

وكان ينبغى علي أن أنهى زيارتى فى غضون أيام قليلة ، فقلت : نعم ، ينبغى أن تزورنى .

قال : سأفعل .

قلت : متى ؟ فضحك وقال : بأسرع ما يمكن .

وفكرت فى العودة إلى مقدونيا والعملاء الذين ينبغى علي التعامل معهم ، وتذكرت رحلتى بالدراجة إلى جبل فوندو ، والآن أمدنى لقاء جيمس بذكريات جميلة يمكننى استعادتها أثناء سباحتى بحمام سباحة سكوبجى القذر لأنسى ما به من أقذار وأتذكر الذكريات الإنسانية البحته التى ليس لها علاقة بعميل محتمل أو شخص اتصال أو جاسوس مجند فسيكون جيمس بالنسبة لى شخص يتوجب علي الإهتمام به ليس كضابط ميدانى أو متعاملة مع العملاء ولكن كإنسانة ؛ كامرأة ؛ كنفسى .

وقال جيمس وهو يأخذ رشفة طويلة من كوب الجعه ويتمعن فى ملامح وجهى : لم تكملى لى من قبل الحديث عن طبيعة عملك فضحكت وأنا أرى فى عينه العاطفة والدعابة والتفهم ، وقبل كل هذا ؛ الثقة .وأمسكت بيده وقلت له : أتعرف يا جيمس ؟ لم أبدأ أبدًا فى إخبارك بطبيعة عملى . ومن هنا بدأت كشف المستور ببطأ .

* * * * *

الخاتمة

تزوجت بجيمس كيجلى فى 21 سبتمبر 2003 فى فيينا ؛ أى بعد أربعة أشهر من استقالتى الرسمية من وكالة الإستخبارات المركزية .واكتشفت أن ترك الوكالة فى نفس مستوى صعوبة الإلتحاق بها بدءًا من أسرتى التى كان قلقها عندما فكرت فى ترك الوكالة ليس بأقل منه عندما فكرت فى الإلتحاق بها ، وظلت أمى دائمًا تردد لى القول : ماذا عن تأمينك الصحى ؟ ولم يعترض أخى على فكرة تركى الوكالة ، لكنى أحسست أنه خاب أمله في ، وكنا على وشك الدخول فى الحرب واستقل أخى المقاتلة الأمريكية كيتى هاوك فى طريقه إلى العراق .

ورغبت فى ترك الوكالة لأكثر من سبب ، ولم يكن أقل هذه الأسباب هو اقتناعى بأن غزو العراق هو أحد أكبر الطرق الفاشلة التى يمكن للبلاد أن تسلكها ، وبدت لى الحرب على العراق ودور وكالة الإستخبارات المركزية فى تبرير الحرب بأدلة ملفقة أمر مخجل تمامًا بغض النظر عن أننا لم نحرز حتى هذه اللحظة أى تقدم فى الوصول إلى أسامة بن لادن بالإضافة إلى الجهود الضئيلة جدًا التى بذلت لكشف مرتكبى أحداث 11

سبتمبر .ومن سخرية القدر أنى عينت فى بداية عام 2003 بقسم الشرق الأدنى للمساعدة فى التعجيل بغزو العراق ، وأثناء قيامى ببعض الأعمال المتعلقة بغزو العراق قابلت امرأة تسترت على أسلحة برنامج الدمار الشامل العراقى لعقد من الزمان ، واعترفت لى صراحةً أن وكالة الإستخبارات المركزية لا تعرف على وجه التحديد ما يمتلكه صدام حسين من أسلحة الدمار الشامل ، ولا أى شئ آخر يؤكد تهديد العراق لأمن الولايات المتحدة .وعندما سألت أحد محللى الوكالة عن سبب الربط بين تنظيم القاعدة والعراق ؛ نظر لى فى خجل وهز كتفيه وقال : فى اسم كل منهما حرف القاف .وأخبرتنى إحدى زميلاتى التى كانت تعمل فى هذا الوقت فى القسم المختص بالعراق أن رئيسها جمعها مع كافة أعضاء المكتب وقال لهم : دعونا نواجه الحقيقة ;الرئيس يريد أن يشن حرب على العراق ووظيفتنا هى إعطائه المبررات الكافية .وارتعبت عندما عرفت هذه المعلومات ، وقررت فى هذه اللحظة الخروج من هذه اللعبة . وعلمت فى هذه الأثناء من خلال الرسائل المتبادلة أن سالى العاصفة كانت فى الشرق الأوسط تحوم حول العراقيين فى كل حدب وصوب ، ونالت من القيادة الكثير من المديح على مجهوداتها بالرغم من أنها لم تنجح فى تجنيد أى منهم .

واندهشت عندما قابلت بمطعم الوكالة جين سوك التى لم أكن رأيتها منذ ثلاث سنوات ، وجلست جين سوك مستقيمة وكأنها تحمل على رأسها كوب شاى تخشى أن ينسكب وهى تتحدث عن رغبتها فى أن تكون مع طلائع الفرق التى ستدخل بغداد . وكان ايثان أيضًا فى طريقه لبغداد بعد أن تمكن بطريقة ما من منع أطباء الوكالة من اكتشاف المرض الخطير الذى أصابه ، وتملكت ايثان الرغبه الملحة فى الذهاب إلى العراق ــ مثل الضباط الميدانيين الآخرين الذين يرسلون إلى هناك يوميًا ــ ليتمكن من جنى تلال من الأموال تحت بنود بدل الأخطار وبدل الوقت الإضافى وقال لى مازحًا : " اغتنمى الفرصة " ، ولم أكن متفقة مع ايثان فى طريقة نظرته للحرب ، لكنه كان واحد من القلائل الذين سأفتقدهم كثيرًا .وتلقيت أكبر طعنة أخلاقية عندما أرسلت لى رسالة بالبريد الإلكترونى تدعونى لحضور " حفل تكريم ذوى الأداء العالى " بسبب دعمى لعملية تحرير العراق ، ولم أذهب أبدًا لهذا الحفل ، وقررت أن الجائزة التى ستمنح لى بالحفل شئ يمكننى أن أعيش بدونه .

وطوال الشهور التى تلت تقديمى استقالتى ؛ زاد إحساسى يومًا بعد آخر بأن وكالة الإستخبارات المركزية أشبه بسفينة تبحر دون أن يمسك أحد بدفتها ، وذهبت ذات يوم إلى جورج تينت

بصالة الألعاب الرياضية بالوكالة فلمحت الرجل الذى كان من قبل بهى الطلعة واثق من نفسه وقد أصبح مترهل الجسد وسريع الغضب ، ونظر لنفسه في المرآة بأسى وهو يناضل من أجل إتمام أحد المهام البغيضة .

* * * * *

بعيدًا عن قلق عائلتى وعدم تأكدهم من طبيعة مستقبلى المهنى ، كان هناك عائق آخر ؛ وهو أنى بمنتهى البساطة لم أكن أعرف لمن أذهب لأقدم استقالتى ، وكان من المفترض أن رئيسى المباشر هو رئيس عمليات العراق وهو رجل بيروقراطى مراوغ ولديه العديد من المشاغل المهمة التى ينبغى عليه الإهتمام بها أكثر من هواجسى الشخصية المتعلقة بالعمل ، وتساءلت فى نفسى عما إذا كان بإمكانى أن أقول له بمنتهى البساطة : " أنا مستقيلة " ، وأخرج وأنا أغلق الباب خلفى فى هدوء ! لكنى كنت متأكدة من أنى يجب أن أعود أولاً لرؤسائى بقسم إقليم وسط الأورو آسيوى الذين ذكرت نفسى أكثر من مرة أنى أنتمى إليهم .وفى النهاية ذهبت لمكتب الأمن وبعد التعرض لجهاز كشف الكذب مرتين ، قالت لى الخبيرة التى كانت تفحصنى ــ ولم يكن عمرها يزيد عن الثانية والعشرين ــ : أعيدى النظر فى قرارك.

فقلت لها : لقد قمت بالفعل بإعادة النظر فى طبيعة عملى قبل أن أصل إلى هذا القرار .

قالت : سأدون هذا بملفك فهذه المعلومة هامة .

قلت : دونيها من فضلك .

* * * * *

بعد أن استقلت ناولنى موظف مكتب الأمن مذكرة لأكتب فيها كل ما يتعلق بجيمس وتفاصيل حياته ووالديه ، وكانت هذه هى القشة التى قصمت ظهر البعير فقلت : لن أملأ هذه الإستمارة . وتركت موظف الأمن الذى كان مسترخيًا فى مقعده ويستخدم مظروف مكتوب عليه سرى للغاية لإزالة الطعام العالق بين أسنانه .وأسرعت فى ممرات الوكالة حتى وصلت قسم إقليم وسط الأورو آسيوى فدخلت مكتب ايرين نائبة رئيس القسم التى لم أكن اجتمعت بها من قبل إلا مرة واحدة على الرغم من رؤيتى المتكررة لها وقلت : أنا مستقيلة ، أنا تاركة الوكالة . فسحبت ايرين مقعدها الدوار نحو أحد أجهزة الكمبيوتر وضغطت بسرعة على لوحة المفاتيح وهى تنظر للشاشة بتمعن ، وتوقعت التعرض لإرهاب أمنى أو القبض علي ، وبعد فترة من الصمت المرعب انتهت ايرين من فحص البيانات التى كانت

على شاشة الكمبيوتر ثم التفتت لى أخيرًا وقالت : سنناقش هذا مع الرئيس فى الأسبوع القادم .

قلت : ليس هناك ما يناقش ، لقد اتخذت قرارى .

وأظن أن ايرين أحست فى هذه اللحظة ـــ مثلى تمامًا ـــ أنه ليس بيدها ما تفعله .

وقالت : ربما تجدين صعوبة فى بدأ حياتك بالخارج فالوكالة هى أسرتك الآن . فمنعت نفسى من الضحك وتخيلت الوكالة أشبه بعصابة وقلت لها : لم تكن الوكالة أبدًا أسرتى يا ايرين ، أنا مشتاقة لأسرتى الحقيقية .

فتنهدت ايرين وقالت : أظن أنه ليس بيدنا ما نفعله .

قلت : حقًا ، لا يوجد شئ يمكن أن تفعلوه لى .

وقامت ايرين وقمت وتصافحنا وقالت : ستكون هناك بعض الأوراق التى ينبغى عليك ملأها قبل الإنصراف .

وكنت على يقين من هذا لكنى خرجت مسرعة من مكتبها ، ـــ وكما حذرنى بل أثناء التدريب ـــ كنت محترسة وأنا أشق طريقى خارج الوكالة من أن يضرب الباب الدوار مؤخرتى .

وكان هذا اليوم عاصفًا ، وغطت السحب السوداء السماء فوق الوكالة لكنى لمحت الشمس مشرقة من بعيد .

والآن بإمكانى أن أسافر خارج البلاد دون الحصول على إذن أحد وبدون اسم مستعار أو مهمة ، فلن أكون تحت غطاء . ولن أكون أيضًا وحيدة فقد اشترى جيمس تذاكر السفر للهند حيث سنقضى شهر العسل .

* * * * *

كلمة الغلاف

يمكن أن تصفنى بالبلاهة ، لكنى عندما كنت طفلة أشاهد أفلام جيمس بوند وهارى الجاسوس كانت كل أمنيتى فى الحياة أن أكبر لأصبح جاسوسة ، وخلافًا لكل الأطفال ؛ لم أفقد هذا الإحساس عندما كبرت ، ولذلك أرسلت لوكالة الإستخبارات المركزية CIA طلب الإلتحاق بها بعد أن أصبحت خريجة جامعية مثالية .

كان الإلتحاق بالوكالة قصة فى حد ذاتها فقد طُلب منى أن أتبول بعدد من الأكواب أكثر مما يمكنك أن تتخيل ، واتهمت من قبل المحلل النفسى بالإنحراف الجنسى ، وخافت زميلتى فى السكن بشدة من الرجل الذى يتجول بالحى للتحرى عنى .

وأخيرًا ؛ بدأت تدريباتى لأصبح ضابط ميدانى بوكالة الإستخبارات المركزية CIA ، وعلمونى اختراق العوائق أثناء القيادة بسرعة ستين ميل فى الساعة ، والقفز من الطائرة وأنا أحمل معدات مثبتة على جسدى ، واكتشاف المراقبة ، والسفر تحت اسم مستعار ، ولم يعلمونا شيئًا واحدًا ؛ وهو كيف نواعد رجلاً ونحن نكذب عليه طوال الوقت فيما يتعلق بطبيعة عملنا ، وكان هذا ما توجب علي معرفته بنفسى .

ثم أرسلت فى مهامى خارج البلاد ، وهنا بدأ المرح الحقيقى

.....

* * * * *

تعليقات الصحافة والنقاد
على الكتاب

" ليس مجرد كتاب لطيف وأخاذ ، لكنه أيضًا تهمة فظيعة توجه لوكالة الإستخبارات المركزية CIA "

Milwaukee Journal Sentinel

* * * * *

أمين فى الوصف بصورة مذهلة ... رائع .... واحد من أهم الكتب التى رسمت صورة واقعية حديثة للحياة اليومية بوكالة الإستخبارات المركزية CIA .

Sa
Today

* * * * *

"محايد بصورة غير عادية .. ويعكس التجربة الشخصية بقوة .
جريدة الواشنطن بوست"

* * * * *

"يتخوف المحافظون من بيروقراطية الحكومة ، ويتخوف الليبراليون من أجهزة الإستخبارات ، على الرغم من أن الإثنان اتفقا على انجاب طفل غير شرعى هو وكالة الإستخبارات المركزية CIA، ويقلق كتاب ليندسى موران أى شخص بأكثر الطرق إمتاعًا وتشويقًا ومرحًا فهذا الكتاب أكبر من " سرى للغاية " إنه حقيقة .
وليندسى ليست جاسوسة سابقة فحسب بل هى أيضًا حالمة تستخرج الرومانسية من أعماق عالم الجاسوسية وتوضح بعض القصور اللازم علاجه بوكالة الإستخبارات المركزية CIA ".
P. J O Rouke

* * * * *

" قرأنا جميعًا من قبل عن حماقات الحروب ، والآن نشكر موران على كتابها الدقيق الرائع الذى كشف لنا حماقات العالم الحقيقى للجاسوسية الأمريكية ، فلم تصف ليندسى فى كتابها تفجيرها هى وزملاءها القنابل والسيارات فحسب ؛ بل فجرت الأسطورة أيضًا

كشف المستور
فلم يكن من وصفتهم فى الكتاب من زملائها أشبه بجيمس بوند - كما اعتدنا أن نتخيل عالم الجاسوسية - بل كانوا حمقى ، وبلهاء وبكائين وبينهم أيضًا نبلاء . "
Davied Schickler

* * * * *

" تسقط ليندسى موران فى هذا الكتاب عباءتها لتكشف لنا لأول مرة طبيعة حياة الضابط الميدانى بوكالة الإستخبارات المركزية ، وتلتزم بالذكاء والصراحة وعمق الرؤية أثناء سردها لتفاصيل التدريبات السرية التى تلقتها بـ " المزرعة " والمهام التى كلفت بها خارج البلاد ؛ لتبين لنا أن الحياة الحقيقية لجواسيس وكالة الإستخبارات الأمريكية أمر مختلف تمامًا عن الصورة التى تعرضها أفلام هوليود . "

مؤلف
روايات جيمس بوند الأكثر مبيعًا

* * * * *